

الدكتور

أحمد محمد الخولي

أستاذ بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة
وعلمه سيرة اللغة العربية

تيسار لتثنية

بين العرب والفرس

الطبعة الثالثة

منقحة ومزودة

دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة



الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف: 692.709
رقم التسجيل: ١٤٩٨٧

الدكتور
أحمد محمد الخولي
أستاذة بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة
رئيسة جمعية اللغة العربية

تيسار لتثقيفنا

بين العرب والفرنس

BIBLIOTHEQUE ALEXANDRINE
مكتبة الاسكندرية

الطبعة الثالثة
منقحة ومزودة

General Organization

دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - المتاحرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إذا كان العالم المعاصر يتصل بعضه ببعض اتصالاً يختلف في القوة والضعف ، ويتباين في السلام والحرب ، وفي المودة والعداء ، ويتفاوت في التأثير والتأثر ، فقد كان العالم القديم شبيهاً في هذا بالعالم الحديث ، على ما بين العالمين من فروق في وسائل الاتصال ، وطبيعتها ، وسرعتها ، وقوتها ، وما ينجم عنها من تبادل التأثير والتأثر .

والحق أن التاريخ في هذا يعيد نفسه ، فالعزلة المطلقة ضرب من المحال بين الشعوب التي تتجاور في الموقع ، أو تتقارب في المكان ، فتشتبك مصالحها ، وتتفق أو تختلف سياستها ، وتقوم علائقها على السلم تارة ، وعلى الحرب تارة ، وتتبادل العطاء فيأخذ بعضها من بعض ، ويعطى بعضها بعضاً .

وليس من شك في أن اتصال أمة بأمة يعقب آثاراً شتى في النظم ، والعادات ، والعقائد ، واللغة ، والثقافة ، تظهر معالمها في الضعيف المحاكى أكثر مما تظهر في القوى الذي يُحاكى ، إذ كان الناس وما زالوا مولعين بمحاكاة من يرونه أعلى منهم حضارة ، وأوسع ثقافة ، وأعظم معرفة ، سواء أكان الغلب السياسي له أم لهم .

وهذه دراسة لصلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ،

ولما أثمرته من تبادل في النظم السياسية والاجتماع والعقائد والعادات ،
وما نجم عن هذا كله في اللغة والأدب والثقافة .

ولقد قصدت إلى تقسيم الدراسة قسمين : القسم الأول خاص بالعصر
الجاهلي ، والقسم الثاني مقصور على فترات من الإسلام ، لأن لكل من
الزمنين وسائل اتصال وضروب تأثير وتأثر ، ولأن العرب والفرس كانوا
في الإسلام أقوى صلات وأكثر علاقات ، فكان تأثير الفرس في العرب
حيثل أوسع وأعمق مما كان في الجاهلية ، وكانت آثار العرب في
الفرس لانتقل عما نقلوه من الفرس إن لم تزد عليه شمولاً وعمقاً وسعة
ونبالة ونخيراً .

ولست أدعى لهذه الدراسة أنها استيعاب أو استقصاء ، فإنها لا تتجاوز
شق الطريق ، ونصب المعالم ، والتمهيد للرواد ، فمزال كثير من
الموضوعات جديراً بأن يُفرد ببحث مفصل مستقل ، لعله يكشف عن
جديد ، ولعله يغير بعض مارسخ في الأذهان من أوهام وأغاليط كادت
لكثرة ترديدها تصل إلى مرتبة الحقائق التي ينقلها لاحق عن سابق .

وآمل أن تظهر دراسات مشابهة تتناول صلات العرب بغير الفرس
من الأمم التي عاصرتهم فأعطتهم وأخذت منهم ، كالروم والحبش
والهنود ، فإن علائق العرب بهؤلاء كعلائقهم بالفرس تمتد جلورها إلى
ماقبل الإسلام ، ثم تلو سوقها وتتفرع أغصانها بعد الإسلام ،

أحمد محمد الحوفي

الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الكتاب الأول

في بعض أبحاث أهلي

الفصل الأول

عموم الاتصال

أولاً - قبل إمارة الحيرة

١- يُحدّث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسّس إمارة الحيرة بقرون ، يُحدّث أن العرب أدوا الجزية للملك قورش بـخوراً ولبناناً في كل عام (٥٥٠ ق . م) إذ استولى الفرس على أكثر الهلال الخصيب ، واتصلوا بالعرب ، واحتكوا بهم احتكاكاً مباشراً .

٢- ثم استعان قمبيز بالعرب في غزو مصر (٥٢٥ ق . م) فملوه بالإبل ، وزوّدوا قواته بالماء ، وساعدوه مساعدة كبيرة ، لولاها ما استطاع أن يصل إلى مصر .

وبعد ذلك بثلاث قرن ساعدوا الفرس في حملتهم على اليونان

(٤٩٢ ق . م) (١)

(١) العرب قبل الإسلام لـجرجى زيدان ١٠١ نقلاً عن هيرودوت . وتاريخ العرب ٥٠ فيليب حتى .

٣- وقد ذكر الكاتب اليوناني كينوفند (٤٠١ ق . م) أن كُورة
في شرق الفرات كانت تسمى (العربية) (١) .

على أن البلاد الواقعة شرق الفرات أسفل مصبّ نهر الخابور كانت
تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة (٤٠١ ق . م .) (٢) .

٤- وفي أوائل القرن الثالث بعد الميلاد تنازعت إبياد ومضر بعد
انتصارهما على جرّهم وإجلّتها عن مكة ، فهزّمت إبياد ، وهاجرت إلى
العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء
متفرقة من جنوب الحيرة (٣) ، منها سِنْدَاد - نهر فيما بين الحيرة إلى
الأبلة - وكانوا ذوى منعة ، لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد
أغاروا على بلاد الفرس مرتين وانتصروا (٤) .

٥ - وكان على شاطئ الفرات حصن عظيم كالمدينة ، هو الذى
ذكره عدى بن زيد في قوله :

أيها الشامت المعير بالدهر سر أنت المبرأ الموفور ؟
من رأيت المنون خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضّر إذ بناه وإذ دجّله تُجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وخلّله كلّ ساء فللطير في ذراه وكور

(١) مجلة المجمع اللغوى ٣/٣٣١ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٦٧ .

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٧٣ .

لم يَنْهَهِ رَيْبَ الْمَنُونِ فَبَانَ إِلَى مَلِكٍ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورٌ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثُرَتْ مَائِمَتُهُ لَمَلِكٍ وَالْبَحْرُ مُعْرِضٌ وَالسُّدَيْرُ
فَارْعَوَى قَلْبَهُ وَقَالَ : وَمَا غِبْتُ طَعَةً حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ ؟
وَذَكَرَهُ أَبُو دُوَادٍ الْإِيَادِي فِي قَوْلِهِ :

وَأَرَى الْمَوْتَ قَدْ تَدَلَّى مِنَ الْحَضَرِ عَلَى أَهْلِهِ السَّاطِرُونَ
صَرَعَتْهُ الْأَيَّامُ مِنْ بَعْدِ مُلْكِهِ وَنَعِيمِ وَجُوهِهِ مَكْنُونِ (١)

كَانَ مَالِكُ هَذَا الْحَصْنِ أَوْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَمَالِكُ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ هُوَ
السَّاطِرُونَ ، وَالْعَرَبُ تَسْمِيهِ الضُّيْزَنَ ، وَكَانَ مِنْ قَبَائِلِ قُضَاعَةَ وَبَنِي
عُبَيْدِ بْنِ الْأَجْرَمِ عِدَدٌ كَبِيرٌ اسْتَعَانَ بِهِمْ فِي بَسْطِ نَفُوذِهِ حَتَّى بَلَغَ الشَّامَ .
ثُمَّ لَمَّا أَغَارَ عَلَى بَعْضِ سَوَادِ الْعِرَاقِ فِي عَهْدِ سَابُورِ الْأَوَّلِ بْنِ أَرْدَشِيرِ
(٢٤١ - ٢٧٢ م) (٢) ، وَافْتَخَرَ عَمْرُو بْنُ لَيْلَةَ الْقُضَاعِيُّ بِهَذِهِ الْإِغَارَةِ فِي
قَوْلِهِ :

لَقِينَاهُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عِلَافٍ وَبِالْخَيْلِ الصَّلَادِمَةِ الذُّكُورِ
فَلَاقَتْ فَارِسٌ مِنَّا نَكَالًا وَقَتَّلْنَا هَرَابِدَ شَهْرٍ زُورٍ
دَلَّفْنَا لِلْأَعْجَامِ مِنْ بَعِيدٍ بِجَمْعٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ كَالسَّعِيرِ (٣)

وَقَدْ شَخَّصَ سَابُورُ إِلَى حَصْنِ الضُّيْزَنِ فَحَاصَرَهُ عَامَيْنِ ، وَلَمَّا هَذَا
يُشِيرُ الْأَعَشِيُّ بِقَوْلِهِ :

- (١) سيرة ابن هشام ٨٦/١ .
(٢) تاريخ الطبري ٦٢/٢ وابن خلدون ٢/٢٤٩ .
(٣) تاريخ الطبري ٦٢/٢ والأغاني ١٤١/٢ ، الهراة ، جمع هربل وهو خادم تار
المجوس . شهر زور : مدينة فارسية . علاف : حلوان من قضاة تلنسب إليه الخيل
العلافية . الصلادمة : القوة الشديدة المفرد صلدم على وزن زبرج .

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى ، وهل خالد من نعم ؟
أقام به شهابور الجنو دِ حولين يضربُ فيه القدم
فما زاده ربُّه قوة ومثُلُ محاوره لم يقُم
فلما رأى ربُّه فعله أتاه طُروقا فلم ينتقم
وكان دعا قومه دعوة هلموا إلى أمركم قد صُرم
فموتوا كراما بأسيا فكم أرى الموت يجشمه من جشم (١) :

ثم فتح سابور الحصن ، وقتل الضيزن ، ونكل بمن كانوا معه من
قضاة ، فقال عمرو بن إله ، وكان فيمن شاهدوا المعركة :

ألم يحزنك والأنباء تنمى بما لاقت سراً بنى العبيد
ومصرحُ ضيزن وبني أبيه وأحلاس الكتائب من تزد
أتاهم بالفيسول مجللات وبالأبطال ساهور الجنود
فهدم من أواسى الحضر صخرا كأن ثفاله زبر الحديد (٢)

ولقد فسح الإخباريون لخيالهم المجال ، فزعموا أن ابنة الضيزن
عشقت سابور وعشقها ، وأنها هى التى دلتها على حيلة لتقويض الحصن ،
ثم غدر بها (٣) :

٦- ثم انتهز العرب صغر سن سابور الثانى (٣٠٩ - ٣٧٩ م) فأغاروا
على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم ، وكان العرب أقرب

(١) تاريخ الطبرى ٦١/٢ وسيرة ابن هشام ٧٨/١ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ وديوان الأئمة
٤٢ . شهابور الجنود : سابور الأول وكان يسمى لكثرة جنوده شهابور الجنود
(٢) الطبرى ٦٢/٢ والأغانى ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر فيه بلدى
ابن اللطمان . زبر الحديد : قطعه .
(٣) الطبرى ٦٢/٢ ومروج الذهب ٢٩٦/١ والأخبار الطوال للدينورى : ٥٥ وسيرة
ابن هشام ٧٧-١ .

إلى فارس ، وأحوج إلى تناول شيء من خيرات الفرس ، لسوء حالهم ،
وشطّفت عيشهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد
عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تخوم فارس ، وغلبوا أهلها على
مواشيهم وحروثهم ، وأكثروا الفساد في تلك البلاد ، واطمأنوا هنالك
مدة لا يُجْلِيهم أحد من الفرس .

فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم
وسار بهم ، فأوقع بهؤلاء العرب ، وقتلهم تقتيلا ، وأسرههم أسرا عنيفا ،
ولم ينج منه إلّا من هربوا .

ويقال إنه لم يكتف بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد العرب ،
فورد الخط والبحرين وقتل أهلها ، ثم ورد هَجَرَ فَأَرَوى الأرض بدماء
من هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه
لن ينجيه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف على بلاد
عبد القيس ، فأباد أهلها ، إلّا من هرب ، ثم أتى اليمامة فَأَسْرَفَ في
التقتيل .

وهو في أثناء ذلك لم يمرّ بماء من مياه العرب إلّا غَوَّرَهُ ، ولا بشر
إلّا طمسها .

ثم اقترب من يثرب فقتل وأسر .
وعرج على بلاد بكر وتَغَلَّبَ فيما بين مملكة قارس والروم بالشام
فقتل وسبى وانتقم .

ثم أسكن الأسرى من العرب من بكر بن وائل كَرْمَانَ ، ومن بى
حنظلة الأَهْوَازَ ، وأسكن عددا عظيما من أسرى العرب لإقليم تَوَّجَ ،
وكانت حملاته هذه نحو سنة ٣٥٠ م .

— ٢٠ —

وعاش سابور حياته نهماً إلى قتل العرب ، وتزعج اكثاف رؤسائهم ، ولهذا سماه العرب ذا الأكثاف (١) .

ولقد ثار العرب منه فيما بعد بانضمامهم إلى خصمه يوليان ملك الروم في الحرب التي قامت بينهما (٣٦١ - ٣٦٣ م) حتى قالوا إن العرب كانوا في جيشه مئة وسبعين ألفاً (٢) .

٧- وكأئذا يأتى هذا العداء المستحكم إلا أن يغزو البحرين أردشير الثانى (٣٧٩ - ٣٨٥ م) ، فالتقى ملك البحرين بنفسه في البحر (٣) .

ومن هذا نرى أن الفرص قد تعددت لأن يحتك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ، ويساكنوهم ، ويحاربوهم ، قبل أن تؤسس إمارة الحيرة .

(١) تاريخ الطبرى ٦٦/٢ - ٦٩ و ٦٨/٣ ومروج الذهب ١٢٢/١ - ١٢٤ وتاريخ ابن خلدون ١٦٩/٢ ودائرة المعارف مادة بكر .
 (٢) الطبرى ٦٨/٣ وسأوثر رسم مئة على هذه الصورة .
 (٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٩/٢ .

ثانياً - إمارة الحيرة

رأى الفرس أن الوسيلة المثلى للاطمئنان على الأمن في هذا الجانب من مملكتهم أن يساعدوا القبائل العربية النازلة على مقربة من حدودهم على تأسيس إمارة تقيهم غزوات العرب ، وتَحْجِز بين حدود الفرس وحدود الروم ، فكانت إمارة الحيرة .

١- والحيرة مدينة قديمة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على بحيرة النجف ، وعن كُتُب من البادية .

ويظهر أن كلمة الحيرة سريانية (حِرْتَا) ومعناها المعسكر ، وقد ذكرت باسم (إِرْتَا) على أنها مدينة فارسية في كتاب غلاوكوس (١) وفي كتاب ستفانوس البيزنطي (٢) .

وكانت المدينة من قصور مُحَصَّنَة ، حول مبدان واسع لم تكن له وسائل دفاع ، ولم يكن حول المدينة سور يحميها أو حصن يقيها ، لهذا لما سار إليها خالد ابن الوليد ١٢ هـ (٦٣٣ م) ليفتحها تحصن أهلها بقصورهم ، فساق خالد قطعانهم وأغنامهم إلى زرعهم الذي لم يكونوا حصدوه ، فطلبوا المفاوضة على التسليم .

كان أهل الحيرة منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أصناف :

سوخ وهم البدو النازلون غربي الفرات (٣) ، والعباد وهم السكان

Eragmenta. p. 409. (١)

Ethnica p. 276. (٢)

(٣) هؤلاء من العرب الذين اجتمعوا من البحرين وتحالفوا على التناصر ، فصاروا يدا واحدة نسبهم اسم تنوخ (الطري ٤٧٦/١ وابن الأثير ١٣٥/١ والأغاني ١٥٥/١) .

الأصليون الذين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعا ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .
وهؤلاء السكان كلهم من العرب .

٢- ليس من المعلوم يقيناً متى بدأ تأسيس الإمارة ، أكان في عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس (٢٤١ - ٢٧٢ م) إذ نصب على الحيرة عمرو بن عديّ أم كان في عهد أبيه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١ م) ؟
ويظهر أن الإمارة بدأت في عهد أردشير ، إذ تآمر على الحيرة مالك ابن قهم الأزدي ، ثم خلفه ابنه جليمة الأبرش ، ثم تولى بعد جليمة ابن أخته عمرو بن عديّ (٢٦٨ - ٢٨٨ م) وهو أول الأمراء اللخمييين آل نصر ، وأول من بعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق ، ثم توالى بعده الأمراء من اللخمييين حتى دامت إمارتهم نحو أربعة قرون ، إلى أن افتتحها خالد بن الوليد سنة ١٦ هـ ٦٣٧ م (١) .

٣- كان أمراء الحيرة أو ملوكها يخضعون للفرس خضوعاً إسمياً وكان الفرس يعفونهم من الإتاوة ، لقاء حمايتهم للحدود عن يغير عليها وكفاء مساعدتهم لهم في حروبهم للروم .

على أنهم بلغوا من القوة أحياناً إلى حد المساواة بينهم وبين الفرس والروم ، فحاربوا الفرس حيناً ، وحاربوا الروم أحياناً منتصرين للفرس وموالين لهم .

ومن أعظم ملوكهم النعمان بن امرئ القيس بن عمرو المعروف

(١) الطبري ٣٧/٢ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٧٦ ومروج الذهب ١/١٢٦ وتاريخ الإسلام السياسي ٤٨ الدكتور حسن ابراهيم .

بالنعمان الأعور (حوالى ٤٠٣ - ٤٣١ م) كانت عنده كتيبتان يقال لإحدهما دوسر وهى عربية ، ويقال للأخرى الشهباء ، وهى فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يخضع له من العرب (١) .

كذلك عظمت مكانة الحيرة فى عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (حوالى ٥١٤ - ٥٥٤ م) وهو الذى رفض أن يعتنق المزدكية كما اعتنقها ملك الفرس قباد ، فعزله قباد ، وولى على الحيرة الحارث ابن عمرو أمير كندة ، فلما مات قباد خلفه ابنه كسرى أنوشروان ، فنسجل بالمزدكية وأتباعها ، وأعاد المنذر إلى إمارة الحيرة ، وكان هذا سبباً فى حروب بينه وبين الحارث الكندى ، إلى أن قضى عليه وعلى بنيه

ويبدو أن رفض المنذر للمزدكية ، وانتصاره على الحارث الكندى ، وتخوف كثير من العرب أن يحكمهم الحبش الذين استولوا فى ذلك الوقت على اليمن ، يبدو أن هذا دفع القبائل العربية فى نجد وشرق الجزيرة إلى أن تعلن ولائها للمنذر .

ثم زاد من مكانته أنه حارب الغساسنة والروم ، وانتصر عليهم مرات ، وكان من نتائج انتصاره أنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم فى عهد الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الروم لملك الفرس وللمنذر غُرمًا متساويا من المال .

٤- كان آخر ملوك الحيرة الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ - ٦١٣ م أو ٦٠٢) وهو أبو قابوس ، وصاحب النابغة الذبياني ،

(١) الطبرى ٧٣/٢ .

وقاتل عبيد بن الأبرص وعدى بن زيد في إحدى الروايات ، وهو الذى مات في حبس كسرى (٦١٣ م) .

وقد أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت النعمان ، وأشرك معه في الحكم رجلا فارسياً اسمه النخيرجان .

وكان من أثر هذا ضعف الحكومة العربية في الحيرة ، ثم قيام حرب ذى قار بين الفرس والعرب ، وكان إياس بن قبيصة وأولياؤه من العرب في صف الفرس ، لكن العرب انتصروا على الفرس وعلى إياس .

ثم انفرد ملك الحيرة آزاذ بن يابيان الهمداني سبعة عشر عاما ، وجاء بعده المنذر بن النعمان فلم يمكث إلا ثمانية أشهر ، وهو الذى يسميه العرب المغرور ، إذ قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة فافتتحها سنة ١٢ هـ ٦٣٣ م (١) بعد أن دامت أربع مئة سنة ، وهى مدة طويلة في أعمار الدول .

٥- على أن الحيرة لم تكن حلقة اتصال بين العرب والفرس فحسب ، بل كانت الحيرة وماجاورها مجمعا لأديان شتى في الجاهلية ، يدل على ذلك أن المسلمين فتحوها وعلى شواطئ دجلة والفرات فرس يعتنقون الزرادشتية ، ونصارى يدينون بالمسيحية ، وأناس يتبعون المانوية (٢) ، وأتباع لديانات قديمة وثنية ، بقيت منهم آخر طائفة وهم الصابئة بحرآن حتى القرون الوسطى (٣) .

(١) الطبرى ١٥٦/٢ - ١٥٧ .

(٢) ديانة نشأت من اتحاد دين زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية .

(٣) الفهرست ١٧ والخضارة الإسلامية ٧٣ فون كريمر

ثالثاً — الفرس باليمن

لم يكن اتصال العرب بالفرس محصوراً في نطاق الجوار والمخالطة والغزوات المتبادلة والصلة التجارية ، عن طريق الحيرة وحدها ، لأن التاريخ ينبيء عن صلات أخر.

١- فقد قام أبو كرب أسعد الملقب تُبَع (حوالي ٣٨٥ - ٤٢٠ م) مع ابنه حَسَّان بهجوم على شمال الجزيرة (١) ، أملاً في بسط سلطانه على بلاد العرب كلها ، ورغبة في دعم نفوذه التجارى على طرق القوافل العربية ، لهذا عين ابنه على يثرب ، وعين على كِنْدَةَ أحد أقاربه وهو حُجْر آكل المُرار ، ثم تقدم إلى الحيرة واستولى عليها ، ثم توغل في فارس نفسها حوالي ٤٢٠ م أو ٤٢٥ م.

٢- ولما تورطت اليمن في النزاع الناشب بين الفرس والروم (٥٠٦ - ٥٢٦ م) آزر الملك معديكرب بيزنطة على فارس ، بمحاربه المنذر ملك الحيرة الموالي للفرس سنة ٥١٦ م.

لكن اليمن بعد ذلك انحازت إلى فارس ، لأن الروم حاولوا أن ينشروا المسيحية بها ، وخوفوهم بالحبس ، فاعتنق اليهودية ذو نواس

(١) كان امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالي للفرس قد هجم على نجران ، وفي نقش الفارة (٣٢٨ م) إشارة إلى حملته ، ولقب نفسه بقاتح نجران وملك العرب ، وكان الغرض من هذه الحملة السيطرة على القبائل العربية المقيمة بين الحيرة واليمن ، والسيطرة على طرق القوافل التجارية ، والقضاء على احتكار اليمن لهذه الطرق. وتصدى لمقاومته أخوان هما الشرح يحصب وهازل باين ، وكانا قد اغتصبا الملك من شمر يهر عث ، واستمالا في مقاومتهما بقبيلة كندة التي كانت قد هاجرت إلى شمال اليمن ، واستقرت هناك ، وظلت بعد هجرتها موالية للملوك اليمن ، وشبه تابعة لهم .

وبعد هجوم امرؤ القيس بنحو قرن زحف تبع على الشمال وعلى الحيرة .

آخر ملوك التبابعة ، وعقد معاهدة مع المنذر الثالث ملك الحيرة وحليف.
الفرس

٣- فلما احتل الحبش بلاد اليمن سنة ٥٢٢م لجأ سيف بن ذى
بزن إلى الفرس ، ليستنجد بهم . وليس بين المؤرخين خلاف في هذا
الاستنجد ، فهم متفقون على أنه استنجد أولاً بقيصر ، فلم ينجده ،
ارغبته في أن تبقى اليمن خاضعة لأحلافه الحبش ، فتكون طريقاً إلى
متاجر الروم ، وليناوى النفوذ الفارسى والمتاجر الفارسية باليمن ، ولأن
الدين المسيحى مشترك بين بيزنطة والحبشة .

فاتجه سيف إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) فأنجده .
بعجيش خلص اليمن من حكم الحبش ، وأخضعها لحماية الفرس (١).
ولقد ابتهج العرب بخلاص اليمن ، فوفدت على سيف وفودهم .
تهنئته بطردهم ، وسجل أبو الصلت والد أمية هذا الابتهاج بقوله :

لا يطلبُ الثَّارَ إلَّا كابن ذى بزن	في البحر خيم للأعداء أهوالا
أنى هرقل وقد شالت نعامته	فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة	من السنين يهين النفس والمسالا
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم	تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
من مثل كسرى شهنشاه الملوك له	أومثل وهرز يوم الجيش إذصالا؟
لله درهم من فتية صبروا	ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
بيض مرابذة غلب أساوره	أسد تربى فى الغيصات أشبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم فى الأرض فلالا

فاشرب هنيئاً عليك التاج مُرتَفَقاً في رأس غُمدان دارا منك مَحَلّالا
وأُطل بالمسك إذ شالت نعماتهم واسبيل اليوم في بُردِيكِ إسبالاً (١)
وبنو الأحرار الذين عناهم أُمّية في شعره هم الفرس الذين قدموا
مع سيف بن ذى يزن ، وبقى أبناؤهم إلى القرن الرابع الهجرى يسمون
بنى الأحرار بصنعاء ، ويسمون الأبناء باليمن ، والأحامرة بالكوفة ،
والأساورة بالبصرة ، والحضارمة بالجزيرة ، والجراجمة بالشام (٢).

ومن قصيدة لعدى بن زيد العبادى في الإشادة بالفرس الذين خلّصوا
اليمن من الحبش قوله (٣) .

ما بَعَدَ صَنَعَاءَ كَانَ يَعْمُرُهَا وَلَاةٌ مُلْكُ جَزَلٍ مَوَاهِبُهَا
مَحْفُوفَةٌ بِالْجِبَالِ دُونَ عُرَى الْ كَائِدِ مَاتُرْتَقَى غَوَارِبُهَا (٤)
يَأْنَسُ فِيهَا صَوْتُ النَّهَامِ إِذَا جَاوَبَهَا بِالْعَشَى قَاصِبُهَا (٥)
سَاقَتْ إِلَيْهِ الْأَسْبَابُ جُنْدَ بَنِي الْ أَحْرَارِ فَرَسَانُهَا مَوَاكِبُهَا

(١) سيرة ابن هشام ٦٩/١ والأغاني ٧٣/١٦ والمعارف لابن قتيبة ١٧٧ وطبقات
الشعراء ١٠٢ وأخبار مكة للأزرقي ٩٣/١ والطبري ١٢٥/٢ وفي الأغاني أن الشعر لأمية
لا لأبيه .

سأل : مخفف سأل . مرازمة : جمع مرزبان وأصل معناها وزير الفرس ، والمراد
أنهم ذوو رأي ومكانة . غلب : جمع أغلب وهو القوى الشديد . أساورة : جمع أسوار بضم
الهمزة وكسرهما وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمي بالسهم . تربب : تربى . الفيضات :
جمع غيضة وهي المكان الملتف بالشجر ويكون مأوى للسياح . فلال : جمع فل وهو المهزوم .
غمدان : قصر عجيب الصنعة بين صنعاء وطبوة . شالت نعماتهم : هلكوا . اسبيل : أنج
ثوبك مختالا .

(٢) الأغاني ٧٣/١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ٧١/١ .

(٤) غواربها : أعاليها .

(٥) التهام : الذكر من البوم . القاصب : الزامر في القصب .

وَفُوزَتْ بِالْبَغَالِ تَوْسَقٍ بِالـ حَتَفٌ وَتَسْعَى بِهَا تَوَالِبُهَا (١)
 حَتَّى رَأَاهَا الْأَقْوَالُ مِنْ طَرَفِ الْـ مَنَقَلٌ مَخْضَرَةٌ كَتَائِبُهَا (٢)
 يَوْمٌ يَنَادُونَ آلَ بَرِيرٍ وَالـ يَكْسُومَ لَا يُفْلَحَنَّ هَارِبُهَا
 وَكَانَ يَوْمٌ بَاقِي الْحَدِيثِ وَزَا لَتِ إِمَةٌ ثَابِتٌ مَرَاتِبُهَا (٣)
 وَبُدِّلَ الْفَيْجُ بِالزَّرَافَةِ وَالْأَيَّامُ جَوْنٌ جَسْمٌ عَجَائِبُهَا (٤)
 بَعْدَ بَنَى تُبْعِمُ نَخَاوِرُهُ قَدْ اِطْمَأْنَتَ بِهَا مَرَاذِبُهَا (٥)
 ولكن لماذا ابتهج العرب بالخلاص من الجيش إلى الفرس ؟

لاشك أن اليمنيين والعرب عامة كانوا موقرين من سوء الحكم
 الحبشي ، ومحاولة الجيش استعمار الحجاز ، وهدم البيت الحرام ، ثم
 لهم - وإن لم يكن استقلالهم تاما في عهد الحكم الفارسي - كان
 النفوذ لهم والسلطان ، لأن سيف بن ذي يزن كان يحكم اليمن ، ويدفع
 الجزية لكسرى في كل عام (٦) .

وما من شك في أن العرب كانوا يأنفون من أن يحكمهم
 الحبش ، ولنا لتبيين ذلك في قول سيف لكسرى : « أيها الملك ،
 غلبتنا على بلادنا الأغربة ، فجئتك لتنصرني عليهم ، وتخرجهم عنى ،
 ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم » (٧)

(١) فوزت : قطعت المفازة وهي الصحراء . التوالب : جمع تولب وهو ولد الحمار
 وأطلقه هنا على ولد البغل.

(٢) الأقوال : هم الملوك ومثله الأقبال . المنقل : الأرض التي يكثر فيها النقل وهي
 الحجارة . (٣) الإمة بكسر الهمزة النعمة .

(٤) الفيج : الذي يسمى للسلطان بالكتب على رجليه . الزرافة : الجمع من الناس ، وهي
 أيضا حيوان معروف . جون : سود ، ويروى خون بالحاء جمع خائفة .

(٥) بنويع : اليمن . النخاورة : القوم الكرام المفرد نخوار . المرازية : جمع مرزبان وهو
 الوزير والقائد . (٦) الطبري ١١٧/٢ . (٧) الطبري ١١٦/٢ .

فهو يعبر عنهم بالغربان ، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان .

وننبينه في قول أبي الصلت في قصيدته السابقة (أرسلت أسدا على سود الكلاب) ، وهو يعنى بالأسد الفرس ، ويعنى بالكلاب السود الحبش .

وقد نكل سيف بن ذى يزن بالحبش الباقين في بلاده ، ثم اغتالوه ، فوثب إلى الحكم رجل من الحبشة ، فأخذ يقتل ويفسد ، فأرسل كسرى جيشاً يقوده وهَرَز ، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الحبش ففعل ، وأمره كسرى على اليمن ، فكان يتولى حكمها ، ويعجى إلى كسرى مالها .

ولما مات ولي كسرى ابنه المرزبان ، ثم مات فولى التينجان ابن المرزبان ، فمات هذا أيضا فعين كسرى خُرَّ خُسْرَه بن التينجان ، ثم عزله وولى بعده باذان ، ولم يزل باذان على اليمن ، حتى بعث الله النبی عليه الصلاة والسلام (١) .

(١) الطبری ١٢٠/٢ - ١٢١ سيرة ابن هشام ٧٣/١ .

رابعاً - التجارة

منذ زمن قديم^(١) اتصل العرب والفرس اتصالاً تجارياً ، كانت له عدة وسائل .

١ - فقد كان السبئيون حلقة اتصال بين الهند والحبشة وشرق إفريقيا وبين شمالى آسيا وشمالى إفريقيا ، وكانت عُمان الإقليم الشرقى لهذه المتاجر .

٢ - فلما ضعفت حِمير - التى خلفت سبأ - انتقلت المسكنة التجارية إلى مكة ، وعقدت مكة معاهدات تجارية مع الأمم المجاورة ، إذ أخذ بنو عبد مناف العِصمَ لقريش ، وكانت إحدى هذه العِصم أو المعاهدات معاهدة أخذها نوفل من ملك فارس ، فتردد العرب على العراق وعلى فارس ، وبهذه المعاهدات التى عقدها أبناء عبد مناف مع حكام الشام من روم وعرب ، ومع الفرس والحبش وحِمير جَبَّر الله قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاءَ عليها كثيراً من الخيرات ، فسمى الأربعة الذين عقلوا المعاهدات المجبرين (١) .

٣ - على أن العرب كانوا منذ زمن قديم يقدمون على الفرس بمتاجرهم وسلعهم ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها (٢) وكانوا إذا أجلبوا قصلوا العراق وفارس فيشترون التمر والشعير ، ثم يعودون إلى بلادهم ، خوفاً من الذلة فى سلطان دولة أعجمية (٣) .

(١) الطبرى ١٨٠/٢ ومجمع الأمثال ٦٦/٢ - والنوادر القالى ١٩٩ .

(٢) الطبرى ٢٩١/١ .

(٣) ابن الأثير ٢٢٨/٢ .

٤ - والذي يتتبع طرق القوافل ومسالك المتاجر يجد بينها طريقا من مأرب إلى جرة ، وجرة مدينة على الخليج العربي - الفارسي - يرجح أنها أسست في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان سكانها أصحاب نشاط تجارى ، وهى ممتازة الموقع ، لأنها تواجه الهند ، وتقع داخل خليج البحرين بمأمن من الأمواج ، وعلى مقربة من واحات الحسا التى تعد مفتاحا لقلب الجزيرة العربية ، والراجح أن موضعها كان قريبا من العُقَيْر الحالية ، ومازال هذا الطريق مسلوكا إلى يومنا هذا .

ثم يجد طريقا آخر من جرة إلى بَطْرَا ، إذ كانت بعض السلع تحمل في قوارب إلى الخليج ، ثم تحمل في الفرات ، ثم ترسل إلى الشام برا عن طريق تدمر .

وهناك طريق ثالث من جرة إلى الحسا واليمامة وغيرها من مناطق نجد (١) .

٥ - وكان الفرس يبعثون متاجرهم إلى أسواق العرب: مثل عكاظ والمشقر ، وكذلك يبعثونها إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية ، ولما كانوا لا يستطيعون حمايتها استعانوا بعرب الحيرة على خفارة القوافل التجارية ولاسيما المتجهة إلى سوق عكاظ ، لقاء جعل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل .

وكثيرا ما كان حماة القوافل يردون الجعل إن اعتدى أحد على القافلة وعجزوا عن حمايتها .

ولقد كان الاعتداء على القافلة يشعل حربا ، كما حدث في يوم

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية ١٢ محمد أحمد حسونه .

السَّلَآن ، إِذْ قَامَتْ حَرْبٌ بَيْنَ النِّعْمَانِ الثَّالِثِ - أَبِي قَابُوسَ - بَنِ الْمُنْدَرِ الرَّابِعِ (٥٨٥ - ٦١٣ م) وَبَيْنَ بَنِي عَامِرٍ بَنِ صَعْصَعَةَ ، لِأَنَّ بَنِي عَامِرٍ اعْتَمَدُوا عَلَى قَافِلَةِ كَسْرَى أَبَرْوِيزِ الْمُنْتَهِجَةِ إِلَى عَمَّاظَ ، فَغَضِبَ النِّعْمَانُ ، وَاسْتَنْصَرَ أَخَاهُ لَأُمَّهُ وَبَرَّةَ الْكَلْبِيِّ ، وَجَمَعَ بَنِي تَمِيمَ ، وَالتَّقَى الْجَيْشَانِ بِالسَّلَآنِ ، وَاقْتَتَلَا أَحْرَ قِتَالٍ ، ثُمَّ انْتَصَرَ الْعَامِرِيُّونَ عَلَى جَيْشِ النِّعْمَانِ (١) .

كَذَلِكَ تَحَارَبَ الْعَرَبُ وَالْفَرَسُ فِي يَوْمِ الضَّفَقَةِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ اعْتَمَدُوا عَلَى قَافِلَةِ كَسْرَى الْمُرْسَلَةِ إِلَى الْيَمَنِ ، أَوْ عَلَى قَافِلَةِ أَرْسَلَهَا إِلَى كَسْرَى بِإِذْنِ عَامِلِهِ عَلَى الْيَمَنِ ، وَاحْتَالَ كَسْرَى وَأَعْوَانُهُ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى التَّنْكِيلِ بِالْمَعْتَلِينَ (٢) .

٦ - وَقَدْ تَمَيَّزَتْ مَكَّةُ - كَمَا هِيَ الْآنَ - بِأَنَّهَا سَوْقٌ عَالِمِيَّةٌ ، تَرْدُ إِلَيْهَا الْمُنَاجِرُ مِنَ بِلَادٍ وَمِنْ أَصْقَاعِ نَدَى ، حَتَّى إِنْ بَعْضُ مُؤَرِّخِي الْإِفْرَنْجِ يَرْجَحُونَ أَنَّهُ كَانَ بِهَا بَيْوتٌ رُومَانِيَّةٌ تَشْرَفُ عَلَى الشُّؤْنِ التِّجَارِيَّةِ لِلرُّومِ ، وَكَانَ فِيهَا حَبْشٌ يَرْعُونَ مَصَالِحَ قَوْمِهِمُ التِّجَارِيَّةِ (٣) . وَيُؤَكِّدُ لَامَانَسُ مَا ذَكَرَهُ الْوَاقِدِيُّ أَنَّ بَعْضَ الدُّوَلِ كَبِيزَنْطَةَ وَفَارَسَ كَانَ لَهَا مُمَثِّلُونَ فِي عَكَّةَ نَفْسَهَا (٤) .

وَمِنْ هُنَا صَارَتْ مَكَّةُ مَرْكَزًا لِلصِّيرْفَةِ ، وَسُوقًا لِلتَّبَادُلِ ، وَتَدَاوُلِ

(١) ابْنُ الْأَثِيرِ ١/٢٣٤ .

(٢) الطَّبْرِيُّ ٢/١٣٤ وَالْأَغَانِيُّ ١٦/٧٥ وَالْمَقْدُ الْفَرِيدُ ٣/١٥٤ .

(٣) فَجَرُ الْإِسْلَامِ ١٥٠ و Arabia Before Mohammed .

(٤) عَصْرُ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ١٧١ مَبْرُوكُ نَافِعٍ .

الناس فيها دراهم الفرس البغلية (١) ، وكان التجار يستطيعون أن يدفعوا فيها أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة ، ويستطيعون أن يؤمنوا على متاجرهم التي تجتاز طرقا محفوفة بالمخاطر ، لهذا مياها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب .

(١) فتوح البلدان ٤٧١ - الدرهم البغل أو الطبري ٨ دنانق والمغربي ٤ والبيبي ٣ والإسلامي ٦ لأن عمر قال : انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها ، فكان الدرهم البغل والدرهم الطبري ، فجمع بينهما فكان مجموعها اثني عشر دانقا ، فأخذ نصفها فكان ستة . فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكل عشرة مثاقيل أربعة عشرة درهما وسبعان . (الأحكام السلطانية للماوردي ١٤٧) .

والدرهم البغلية نسبة إلى بغل وهو يهودي ضرب تلك الدراهم ، وكان يعرف برأس البغل (النقود العربية ٢٢/١ لأب أنستاس الكرملي) .

خامسا — صلوات آخر

اتصل العرب بالفرس بوسائل أخرى ، كانت لها آثار ونتائج :

١ - فتد حكم الفرس البَحْرَيْن وهَجَرَ ، وبقي حكمهم إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بعث إلى أتباع كسرى بهَجَرَ يدعوهم إلى الإسلام ، فلما أبوا وضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل (١) .
وقد نقل الفرس إلى هَجَرَ طائفة من الفَعْلَة لبناء حصن المشَقَّر ، ومعهم نساء من ناحية السَّوَاد والأَهْوَاز ، فتناكحوا وتوالدوا ، وصاروا أكثر السكان بمدينة هجر ، وتكلموا العربية ، وانتسبوا إلى عبد القيس .
فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس : قد علمتم عددنا وعُدَّتنا وعظيم غنائنا ، فأدخلونا فيكم ، وزوجونا ، فرفضت عبد القيس ، أنفة من أن تلحقهم بها ، فتفرقوا في العرب ، وبقيت في عبد القيس منهم بقية ، فانتسبت إلى عبد القيس ، ولم تردّها عن هذا الانتماء (٢) .

٢ - وكان الفرس يستخدمون بعض العرب في دواوينهم فكتب لَقِيط ابن يَعمَر الإيادي لكسرى وترجم له (٣) . وكان عَدِيّ بن زيد من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ثم خلفه ابنه في وظيفته ، وكان زيد والد عَدِيّ يقرأ العربية والفارسية (٤) .

٣ - على أن بعض العرب رحلوا إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث ابن كَلْدَة الثقفي ، رحل من الطائف إلى جَنْدِيسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب والعزف على العود ، ويذكرون أنه قابل كسرى أنو شروان ،

(١) المغازي للواقفي ٨٨ ، ٨٥ (٢) تاريخ الطبري ١٣٣/٢

(٣) الأغاني ١٠١/٢ ومعجم ما استمع للجري ٧٥/١ .

(٤) الأغاني ١٠١/٢ - ١٠٦

ودار بينهما حديث طويل . ومحاورة في الطب (١) .

كذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة وإلى فارس ، فأتقن الفارسية ، وكلف بها ، وكان يقتنى بعض كتبها ويعاند الدعوة الإسلامية (٢) بها ، فإذا تحلق الناس حول النبي عليه الصلاة والسلام ليسمعوا منه ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً من محمد ، فإني أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحلثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفندياذ ، والنضر هذا هو الذي قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إذا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٣) ويرى بعض المفسرين أنه المقصود في الآية الكريمة « ومن الناس من يشتري لهم الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله بغير علم ، ويشغلها هُزُؤاً ، أولئك لهم عذاب مهين » (٤) .

ورحل الأعشى الكبير إلى فارس وقيل إنه مدح كسرى ، وعرف كلمات فارسية كثيرة استخدم بعضها في شعره وقد سجل رحلاته في قوله (٥) :

وَطَوَّفْتُ لِلشَّعْرِ آفَاقَهُ عُمَانَ وَحِمْنَ وَأُورِشَلَمَ
أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّبِيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ
وفي قوله :

قد سرت مابين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالى وتسيارى
ووقد عبد الله بن جُدعان على كسرى (٦) .

-
- (١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ - ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطي
(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١ وعيون الأنباء ١١٣/١
(٣) سورة القلم ١٥ .
(٤) سورة لقمان ٦ .
(٥) معجم البلدان ٥١/٢ والديوان ٤١ ، ١٧٩ .
(٦) الأغاني ٤/٨ .

الفصل الثاني

آثار الفرس في العرب

(١) أثر الديانة الفارسية في بعض العرب

من الطبيعي أن كانت للصلات التي أسلفناها آثار شتى في العرب ،
تتناول ألوانا من الحياة ، لكن الذي يعنينا في هذه الدراسة هو الآثار
التي تتصل باللغة والأدب والثقافة والعقائد اتصالا مباشرا ، أو اتصالا
بعت إليها بسبب .

وقبل الحديث عن تأثير الفرس في عقائد بعض العرب لابد من
إلمامة مجملة بأصول دينهم الذي دانوا به .

١- كان الفرس القدماء يعبدون (مَثْرَا) إله الشمس ، و (أناهيتا)
إلهة الخصب والأرض ، وآلهة أخرى .

قلما ظهر زرادشت (١) بدينه الجديد اعتبره قدماء الإيرانيين نبيا
أَوْحَى إِلَيْهِ (أهوار مازادا) وأمره أن يبلغ الناس رسالته .

أما الأصل الذي قامت عليه الزرادشتية فهو الاعتقاد بوجود قوة
عالية هي قوة الخير والنور ، وتسمى (أهورا مازدا) أي النور العظيم ،

(١) يذكر ولد ديورانت أن العلماء مختلفون في مولده بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد
(قصة الحضارة الفارسية ٣٨) ويرجح برستد أنه ولد حوالي ٥٧٩ قبل الميلاد ، ويعلق الدكتور
أحمد قنبري مترجم كتاب برستد بأن الباحثين قد اتفقوا إلى أنه عاش في القرن السادس . (انتصار
الحضارة ٢٥٩) ثم يذكر برستد في موضع آخر أن قورش (يمل ٦٢٥ قبل الميلاد) أقام
في عاصمته التي أسماها بعبارة الديانة الزرادشتية في الوقت الذي كان فيه زرادشت مازال حيا
(انتصار الحضارة ٢٦٤) وهذا يثبت وجود زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد .

وبجانب هذه القوة سبعة من الملائكة يمثلون الفضائل السبع العليا ، وهى :
الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم .

ولمّا كان الخير لا يتحقق إلّا بمقاومة الشر وقهره فإنّ التّرواد شتية
تفترض وجود شخصية شريرة تسمى (أهريمان) أى قوة الشر والظلام
يعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة ، تمثل الرذائل
الإنسانية ، وهى : النفاق ، والخديعة ، والخيانة ، والجبن ، والبخل
ولمّا هاق الأرواح .

وبين قوى الخير وقوى الشر صراع دائم وحرب لا تنقطع ،
لأن كلا منها تريد السيطرة على الإنسان .

لهذا دعا زرادشت إلى مجاهدة قوى الشر وصراعها والتغلب عليها
تحت لواء من قوى الخير ، وبين لأتباعه أن التهاون فى مؤامرة قوى
الخير إنما هو استسلام لقوى الشر ، فعلى من يختار طريق الخير أن
يخضع (لأهورا مازدا) إله النور الأعلى ، الذى لا أول لوجوده ،
ولا نقص يعتري ذاته ، خالق جميع الكائنات ، وعلى رأسها الإنسان .

ولمّا كان (أهورا مازدا) قوة روحانية عالية منزّهة عن أى نوع من
النقص ، لا يستطيع العقل أن يدرك حقيقتها ، ولا يستطيع الخيال أن
يتصورها رمز زرادشت إلى هذه القوة الغيبية العليا التى لا تدركها
الآبصار ، ولا تحيط بكنهها العقول ، برمزىن حسين تستطيع للعقول
إدراكهما ، ويستطيع أتباعه أن يفكروا فيهما فيتصوروا صفات (أهورا
مازدا) على وجه التقريب .

فالشمس تمثل بعض صفات أهورا مازدا ؛ لأنها كائن مشرق.
مضى فياض بالخيرات ، وهى قوة لا تُقاوم ، ولا تقوى نزعات
الشر على الاقتراب منها والانتقاص من قدرها وطهرها .
والنار عنصر أزلى أبدي ، وقوة مطهرة مهلكة .

لهذا يبدو أن الزرادشتية لا تدعو إلى عبادة النار بدعوى أنها
كائن حي ، وإنما تدعو إلى تقديسها وتقديس الشمس لأنهما رمزان
عظيمان لأهورا مازدا .

وقد حمل زرادشت أتباعه واجب الاحتفاظ بالشفلة النارية
مضطرمة ، وكان يجول في البلاد ليقم معابد النار ، ثم أسبغ الممجوس
على نار المعبد قدسية عظيمة ؛ حتى كان كاهن النار يتلثم عند اقترابه
منها ، خشية أن يصل نفسه إليها فيلوثها .

وكانت لزرادشت تعاليم خلقية ؛ منها أنه كان يحض على العمل
والجد ، ويعدده أفضل وسيلة للتقرب إلى الخالق ونيل رضاه ، وطالما
حث أتباعه على استغلال الأرض والانتفاع بخيراتها ، وبين لهم أن
العمل والإنتاج وتثمين الأرض خير من صوم وصلاة في كسل
وخمول ، كذلك أمرهم باجتنب الكذب ، وبالوفاء بالعهد .

ولم يحل عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى كانت الزرادشتية هى الدين
الأول للإيرانيين ، إذ اعتنقها ملوك الفرس ، وناصرها دارا الأول
(٥٢٢ - ٤٨٦ ق . م) وجعلها الدين الرسمى للدولة (١) .

(١) قصة الأدب الفارسي ٣٠ حامد عبد القادر وقصة الحضارة الفارسية ٢٩ ول ديورانت.

لكن الناس انحرفوا فيما بعد عن الزرادشتية ، فعبدوا النار ، وعلوها من آلهتهم ، وسموها (آنز) وجعلوها ابناً للإله الأعظم إله النور والضياء ، وجعلوا يقدمون للشمس وللنار ولأهورامازدا قرايين من الأزهار والخبز والفاكهة والحيوان ، وأحياناً من البشر (١) .

٢ - ثم ظهر (ماني) بإيران سنة ٢٤٢ م في زمن سابور بن أردشير وادعى النبوة ، وصدقه خلق كثير ، هم الذين سُموا المانوية .

قام مذهب ماني على أن العالم يسيطر عليه النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر ، فكل ماهو خير وجميل ونافع فالنور مصدره ، وكل ماهو شر وقبيح وضار فالظلام مصدره .

وقد فرض ماني على أتباعه عدة فروض ، منها الشك في الدين ، والتواني في العمل ، وتعلم العلل والسحر ، ومنها الامتناع عن الكلب والبخل والقتل والزنا والسرقة والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم .

ولم يعجد ماني نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الزرادشتية كانت تشجع على التناسل والتعمير والتثمين والإنتاج وفلح الأرض ، أما المانوية فكانت تدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل وإيثار العزلة والرهبة ، حتى يفنى العالم المادى ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، وهذا هو معنى قول هُرمز بن سابور : إن ماني جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم (٢) .

(١) قصة الحضارة الفارسية ٤٧ و٤٨ ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسي ٤٥ حامد عبد القادر .

لهذا كانت الديانتان متعارضتين وإن تراءى بينهما بعض الشبه الظاهري ، فكان أتباع زرادشت يطلقون على المانوية كلمة ملاحدة .

٣ - ثم ظهر مزدك في عهد قبادزاد كسرى أنوشروان (أوائل القرن السادس) فوافق زرادشت في بعض مادعا إليه ، وزاد ونقص ، لكنه حاول أن يفلسف مذهبه الهدام ، ويصبغه بصبغة فيها خير للمجتمع ، فزعم أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شحنة وبغضاء وسفك للدماء إنما سببه أمران : الأموال والنساء ، ولا سبيل إلى السلام والمحبة إلا بالتسوية بين الناس في الأموال والأموال والعبيد والإماء والنساء ، وبهذا أحل مزدك الشيوع في النساء وفي الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ .

ونجم عن ذلك كثرة أتباعه من السفلة والطغام ، وصاروا عشرات الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قبادزاد ، فاشتدت البلايا على الناس ، وصار الرجل لا يعرف ولده ، والوالد لا يعرف أباه (١) .

ويتحدث نظام الملك في تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن في نسائكم ، فهي كالأموال بينكم ، فمن يرغب في امرأة فليجتمع بها ، فليس في ديننا غيرة ولا حمية ، وبهذا لاتحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلا إلى داره فعليه أن يمدهم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم مباشرة نسائه ...

(١) الملل والنحل ٢٢٩/١ وصبح الأعشى ٢٩٧/١٣ والكمال لابن الأثير ١٤٤/١ والأغانى ٦١/٨ والفتاوى والإشراف ٨٩ .

ثم يقول نظام الملك إن كسرى أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى الدولة ، وأوعز إليهم أن ينصبوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسروا إلى كبراء الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه وخلعوا قباذ ، ثم أعادوه بعد أن قتلوا مزدك وكثيرا من أتباعه (١) .

وربما كانت دعوة الشيوعية في فارس أقدم من مزدك هذا ؛ لأن الطبري يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل (فسا) يقال له زرادشت ابن خر كان ، وتابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعد رجل يقال له مزدق (٢) ؛ وبهذا الرأي أخذ براون (٣) وكذلك ذكر ابن النديم أن اثنين دعوا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر في أيام قباذ ، وقتله أنوشروان وقتك بأتباعه (٤) .

وأيما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذبوع المذهب في الناس ، لكن الطائفة لم تنقرض ؛ بل بقي عدد منهم تعقبهم أنوشروان بعد استوائه على العرش (٥٣١ م) ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية .

ولذا فالسمة الغالبة على الفرس أنهم عبدة للنار وللشمس .

(١) سياسة نامه ٢٤ .

(٢) الطبري ٣/٩١ .

(٣)

(٤) الفهرست ٣٧٢ .

وكانت بيوت النار منبثة في العراق وفارس ، حتى ليصعب إحصاؤها ، وظل بعضها في جهات شتى من العراق وفارس إلى ما بعد الفتح الإسلامى بثلاثة قرون (١) .

ولقد كان لهذه العقيدة تأثير في العرب :

١ - فقد عرف بعضهم المجوسية ، ودان بها آخرون في بقاع شتى من الجزيرة ، فلما ظهر الإسلام دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . منهم مجوس نجران (٢) ومجوس اليمن ، ومجوس هَجَرَ (٣) وعُمان (٤) والبحرين (٥) ، وكان بالقَطِيف وبالأزارة وبالعابة ودارين مجوس أيضاً (٦) ، وكان بتميم مجوس منهم زُرارة بن عُذْس وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان ، وغيرهم (٧) ، وكان سَلْمان الفارسي مجوسياً ثم أسلم (٨) .

على أن بعض العرب مازالوا على المجوسية إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد ذُكر له في خلافته قوم يعبدون النار ، ليسوا يهودا ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أرى ما أصنع بهم ، فقال عبد الرحمن بن

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢٦٨/١ و ٨٦/٤ والمساكن والممالك لابن حوقل ٨٩ ، ١٨٩ والمساكن والممالك للإصطخرى ١٠٠ ، ١١٨ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥

(٣) فتوح البلدان ٧٥ ، ٧٨ والخراج لأبي يوسف ٧٤ .

(٤) فتوح البلدان ٨٤ .

(٥) فتوح البلدان ٨٦ .

(٦) فتوح البلدان ٩٢ ، ٩٣ .

(٧) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١ والمعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والاعلاق النفسية لابن رسته ٢١٧/٧ .

(٨) أسد الغابة ٣/٢٢٩ .

عوف : أشهد أن رسول الله قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب (١) .
لذلك لا عجب في أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفرد لهم
أبو الحسن المدائني كتابا سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٢)) .
والراجع أن هذا الزواج لم يكن في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج
المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوّة زرادشت ، مكذبون بسائر
الأنبياء (٣) .

٢ - أما المزدكية فقد اعتنقها بعض العرب ، منهم ملك كندة
الحارث بن عمرو بن حُجر ، وكان معاصرا لقباذ بن فيروز نصير
المزدكية ، وكان قباذ قد دعا المنذر بن ماء السماء والى الحيرة إلى الدخول
معه في المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فلبى ، فولاه الحيرة مكانه ، فلما
تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ م) عزل الحارث ، وأعاد المنذر (٤) .

٣ - وأما تقديس العرب للنار فقد تجلّى في مظاهرشى ، فحلفوا
بها ، إذ كانت نار اليمن لها سدنة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان
سادنها إذا أتى برجل هيّبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت
لتمسّيط وتنفض ، فيهلّ على الحالف لينكل إن كان مذنباً ،
وليحجره على الحلف إن كان بريئاً ، قال أوس ابن حجر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف (٥)

(١) الخراج لأبي يوسف ٧٤ والرسالة ٣٠ للشافعى .

(٢) الفهرست لابن النديم ١٠٢ .

(٣) الفصل للشهرستاني ١/١٦٣ .

(٤) الأغاني ١/٦١ و تاريخ الخلفاء ١/٢٩٩ و

Original Sources of the curan. p.p. 212-275.

(٥) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين للجاحظ ٧/٣ وأساس البلاغة مادة هول

والحيوان للجاحظ ٤/٤٧١ .

وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى (١) وأفنون الغلبى (٢) .
 ثم ذكرها الكميت في العصر الإسلامي في قوله (٣) :
 كَهَوْلَةٌ مَا أَوْقَدَ الْمُخْلِفُونَ لَدَى الْحَالِفِينَ وَمَا هَوَّلُوا
 وَمِنَ الْقَسَمِ بِهَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :
 حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَالرَّمَادِ وَبِالنَّاسِ رِوَا اللَّهِ نُسْلِمُ الْحَلَقَةَ
 حَتَّى يَظِلَّ الْجَوَادُ مُنْعَفِرًا وَيَخْصِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَةِ (٤)
 وَقَوْلُ الْأَعْشَى (٥) .

حلفت بالملح والرماد وبالشعري وباللات نُسْلِمُ الحلقة
 حتى يظل الهمام مُنْجِداً وَيَقْرَعَ النَّبْلُ طُرَّةَ الدَّرَقَةِ
 وأغلب الظن أن الشعر لشاعر واحد ، مع تغيير يسير في الرواية .
 وكانوا يتحالفون على النار ، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم (٦)
 وكانوا يستمطرون بها ، بأن يعقدوا في أذنان البقر السلَّ والعُشْرَ -
 نوعان من النبات - ثم يصعدوا بها في جبل وعر ، ويشعلوا فيها
 النيران ، ويضجوا بالدعاء والتضرع (٧) . وفي شعر أمية بن أبي
 الصلت تسجيل لهذا الاستمطار ، منه قوله :

(١) الأغاني ١٣٩/٢٠ .

(٢) المفصليات ٦٢/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٨/٣ وأساس البلاغة مادة هول .

(٤) البيان والتبيين ٨/٣ الحلقة : يسكون اللام وفتحها جماعة القوم ، والقسم هنا معناه .
 لا تسلم الحلقة . منعفر : ملق في التراب . النبل : السهام . الدركة : ضرب من التروس من الجلد
 جمعها درق . غرة : وجه .

(٥) الأغاني ١٣٩/٢٠ والبيان ليسا بديوان الأعشى .

(٦) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ وأيمان العرب للتجريمى الكاتب . مخطوط .

(٧) الحيوان ١٥٠/٤ .

سنة "أزمة" تخيل بالناس من ترى للعضاء فيها صريرا
إذ يسقون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئا فطيرا
ويسوقون باقر السهل للطور د مهازيل خشية أن يبنورا
عاقدين النيران في شكر الأذ ناب عقدا كما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صبير صبيرا
فسراها الإله ثرثم بالقطر وأمسى جناهم مطورا
سلع ما ومثله عشر ما عائل ما وعالت البيقورا (١)

٤ — وبعض العرب عبدوا الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ،
وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت ، من هؤلاء تميم (٢) ، وكثير من
جمير قبل أن يتهودوا ، وقد ذكر القرآن الكريم أن ملكة سبأ كانت
تعبد الشمس هي وقومها « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من
دون الله » (٣) .

وفي الشعر مايدل على ذلك ، فقد سماها عتبة بن الحارث
اليربوعي إلهة :

تروحننا من اللعناء عصرا وأعجلنا الإلهة أن تؤوبا (٤)
وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلا : أبديني

(١) ديوان أمية ٤٥ والحيوان ١٥٠/٤ تخيل بالناس : تفرعهم . العضاء : جمع عضاة :
أعظم الشجر أو الخيط أو كل ذات شوك . باقر : بقر . شكر الأذئاب : جمع شكير وهو
شعر الدليل . الصبير : السحابة البيضاء أو الكثيفة . عائل : نافع وكاف . غالت : أهلكت .

(٢) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ بروكلمان .

(٣) سورة النمل ٢٤ .

(٤) لسان العرب مادة أوب . اللعناء : اسم مكان . تروحننا : رجنا . أعجلنا : سبنا

تؤوب : تقرب .

٣٦ -

بها سنا أحسن منها. ، ولتَجْرِ في ظَلَمِها إِيَّاتَكَ (١) وزعموا أنه إن فعل ذلك أمن على أسنانه العَوَج ، وإلى هذا يشير طرفة بقوله في وصف أسنان محبوبته :

سَقَتُهُ إِيَّاءَ الشَّمْسِ إِلَّا لثَاتِهِ أَسِفٌ - وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدٍ
وقوله :

بَدَّلْتُهُ الشَّمْسَ مِنْ مَنِيَّتِهِ بَرْدًا أبيض مصقول الأثر (٣).

٥ - على أن العرب والفرس تشابهوا - في غير تأثر ولاتأثير - في بعض النظم المتصلة بالمرأة ، فقد كان الفرس يبيحون الجمع بين الأختين (٤) ، لأن الزرادشتية تبيحه (٥) .

وكان تعدد الزوجات مباحا ، أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى واتخاذ الحظايا والخليلات (٦) .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون في تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لأبائهم ، وعدة حربية للزكهم ، أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لرجل آخر يجنى فائدتهن ، ومما قاله الفرس إن الرجال لا يبتهلون إلى الله من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعد البنات خيرا يجوز منحه للبشر (٧) .

(١) ظلمها : ماثها . إيَّاتَكَ : شماعك .

(٢) ديوان طرفه ٢٥ ، إِيَّاءَ الشَّمْسِ : شماعها : لم تكدم عليه : لم تعض بأسنانها شيئا يذهب تحزيزها ، كناية عن النعمة . أسف بإثمِد : ذر عليه حجر الكحل .

(٣) الديوان ٦٥ الأثر : تحزيز الأسنان .

(٤) صبح الأعشى ١٣/٢٩٥ .

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ . (٧) قصة الحضارة الفارسية ٦١ .

٦ - لكن العرب خالفوهم في نظم أخرى ، منها أن بعض الفرس الذين دانوا بالزرداشية كانوا يبيعون للرجل أن يتزوج بنته وأخته الشقيقة وغير الشقيقة (١) ، لأن الزرداشية تبيح ذلك (٢) وكانت بعض الأمم القديمة تشبههم في هذا ، مثل الآشوريين والبطالسة والإسبرطيين والمصريين . وكان الحجاب شديدا على نساء الطبقة الراقية في فارس ، حتى كن لا يخرجن إلا في هودج مرخاة عليها السدول ، وكان محظورا عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع عام أو خاص ، حتى لقد جيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن وإخوتهن ، أما الفقيرات فكن حرات في التنقل ، لأنهن مضطرات إلى العمل والكد (٣) .

أما العرب فقد حرموا على أنفسهم أنواعا من القربات ، وجاء الإسلام فأقر هذا التحريم .

كانوا لا يتزوجون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات (٤) . وذهب ابن عباس إلى أنهم كانوا يتجافون عما حرمه الله بعد ، إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين (٥) . وتباعد أهل مكة في مناكحهم عن البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة . ونفورا من المجوسية ، ثم نزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم (٦) .

ولم يكن العرب يمارسون ذلك التضيق في الحجاب ، أو ذلك

-
- (١) الأسرة والمجتمع ٤٨ الدكتور عل عبد الواحد وصبح الأعشى ٢٩٥/١٣ . وقصة الحضارة الفارسية ٧٣ والنظم الاجتماعية والسياسة ٨٥
 (٢) ول ديوارنت ٥٩ وبارتولد ٦٢ . (٣) ول ديوارنت ٦٠
 (٤) الملل والنحل وبلوغ الأرب للطائر ٣١ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ٩٩/١
 (٥) تفسير الطبري ٢١٧/٤ - ٢١٩ وروح المعاني للالوسي ٢٦١/٤
 (٦) معجم البلدان ١٣٧/٨ .

التعننت في عزل النساء عن المجتمع (١) .

على أن قلة من العرب كانوا يخلفون آباءهم على نسائهم ، بدليل قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤهم من النساء إلا ما قد سلف (٢) » والآية الكريمة تعني رجالا خلفوا آباءهم على أزواجهم (٣) ، وقد سجل ذلك عمرو بن معديكرب في قوله لزوجته التي خلف آباءه عليها (٤) :

قلولا إخوتي وبني منها ملأت لها بلى شطب يميني
لصلصلة اللجام برأس طرف أحب إلي من أن تنكحيني

ولما جاء الإسلام نسخ أربع زيجات من هذا كانت قائمة (٥) .

والدليل على أن الذين مارسوا ذلك كانوا قلة أن الإسلام لم يجد من هذا النوع غير هذه الزيجات ، وأن العرب كانوا يمتقون ، ويسمون المولود عليه المقتنى ، ومن ثم قال الله تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتناً وساء سبيلاً » كأنه قال هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح ، قبيح ممقوت في المروءة (٦) ، وكانوا يسمون من يخلف آباءه على امرأته الضيزن ، ويتهمونه بأنه يدين بالمجوسية ، قال أوس ابن حنجر في هجاء بعض العرب :

(١) راجع المرأة في الشعر الجاهل والفرز في العصر الجاهلي للمؤلف .

(٢) سورة النساء ٢٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢١٧/٥ .

(٤) لسان العرب مادة نكح .

(٥) الإحصاء ٨/٤٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ١٢٣/٣ و ١٧/١ والملل والنحل

٢٣٢/٣ وأسد الغابة ١٣٨/٢ والروض الأنف ١٤٦/١ والمهجر ٣٢٥ والكشاف ١٩٧/١

والمبسوط ١٩٧/٤ ومعجم البلدان ١٣٧/٨ .

(٦) سورة النساء ٢٢ والكشاف ١٩٧/١ .

الفارسية فيكم غير مُنكَرَة فكلكم لأبيه ضَيِّزَنَّ سَلَفَ (١).

وقال المتلمس يهجو عمرو بن هند ملك الحيرة ويلصق به نقيصة مدعاة هي أنه يغازل أمه ويلاعبها ، على عادة الفرس :

ملكٌ يلعب أمه وقطينها رخوا المفاصل (...) كالمبرد (٢).

وقد بقيت زبيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، لأن منظور بن زبَّان كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تنزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما وقال منظور :

لعمرو أبي دينٌ يفرق بيننا وبينك قسراً إنه لعظم

وقد هجاه حُجْر بن معاوية بقوله :

لبئس ماخلف الآباء بعدهم في الأمهات عجانُ الكلب منظور .
قد كنت تغمرها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمر معلور (٣).

وكان بعض العرب يجمعون بين الأختين ، ذكرهم أبو الحسن المدائني في مؤلفه (كتاب فيمن جمع بين أختين) (٤) . لكن أكثرهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام (٥) . على أن أثرا منه بقي إلى عهد عمر ؛ فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام حلف أنه لا يعلم أن الإسلام حَرَّمَ الجمع بين الأختين (٦) .

(١) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٢٢/٢٧ والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢١/١

(٢) ديوان المتلمس ٦ مخطوط .

(٣) الأغاني ٥٣/١١ .

(٤) معجم الأدباء ١٣٣/١٤ والفهرست ١٠٢ .

(٥) الملل والنحل ٢٣١/٣ والمهجر ٣٢٨ وإنسان العيون ٤٤/١ وروح المعاني ٢٦١/٤ .

(٦) فتوح الشام للبصري ٢٣٧ .

وأما زواج البنات فلم يحدث بين العرب ، وليس لدينا إلا حادثة واحدة تنسب إلى حاجب بن زُرارة ، إذ قيل إنه تزوج ابنته دُخْتَنُوسَ ثم ندم (١) ، وقيل إن لقيط بن زُرارة هو الذى تزوج ابنته دُخْتَنُوسَ ، وهو الذى سماها بهذا الاسم الفارسى ، فلما قتل يوم شعب جيلة وهى فى عصمته قال :

يأليت شعرى عندك دُخْتَنُوسَ إذا أتاها الخبِرُ المرموسُ
أَتَخْلُقُ القُروْنَ أم تَمِيسُ لا ، بل تَمِيسُ لَهَا عُرُوسُ (٢)

لكن هذا الاتهام فى حاجة إلى نظر ، لأن كثيرا من الشقاة يخالفون ما ذكره ابن قتيبة أنها بنت حاجب ، ويوافقون ابن الأثير فى أنها بنت لقيط ، ويرون أنها كانت زوجا لابن عمها عمرو ، ثم تزوجها بعده معد بن زُرارة ، أو عمير ابنه ، ولم يشيروا إلى زواج أبيها لقيط بها (٣) .

وإذا فلم تكن دُخْتَنُوسَ زوجة لأبيها سواء أكان حاجبا أم لقيطا ، ولم يتزوج عربى ابنته كما تزوج بعض الفرس بناتهم .

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ والأعلاق النفسية لابن رسته ٢١٧/٧ والزينة لأبي جاتم الرازى ٦٠٠ مخطوط والمغرب للجوالقي ١٤٢ شرح شاكر .
(٢) البسكامل لابن الأثير ٢١٣/١ .
(٣) الأغاني ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤ وجمع الأمثال ١٣/٢ والشعر والشعراء ٢٧١

(٢) أثر الفرس في الحرب

كثيراً ما كان العرب والفرس يشتبكون في حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس ، فيرد الفرس غارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أطراف الصحراء أو إلى أعماقها ، كما تبين في عوامل الاتصال .

وقد عرف العرب الكتائب الفارسية ، والأسلحة الفارسية ، فالنعمان المعروف بالأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) كانت له كتيبتان ، إحداهما عربية يقال لها دوسر ، والأخرى فارسية يقال لها الشهباء ، وكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب (١) .

ونجد في شعر الحارث بن حلزة ذكراً لكتيبة فارسية في قوله

يعدد من انتصر قومه عليهم :

ثم حَجراً أعنى ابنَ أم قطام . وله فارسية خضراء (٢)

ونجدهم ينسبون إلى الفرس نوعاً من الدروع ، نجا في فتخراً عمرو ابن امرئ القيس أنهم لا يرهبون الأسود ، ولا يخشون الأعداء ، لأنهم أبطال يمشون في دروعهم الفارسية في زهو واعتداد كأنهم فحول من الإبل :

والله لا يَزِدْهُنَّ كَتِيبَتَنَا أَسَدُ غَرِينٍ مَقِيلُهَا غُرْفُ
إذا مشينا في الفازنَى كما تمشي جمال مصاغب قُطْفُ

(١) تاريخ الطبري ٧٣/٢ .

(٢) شرح المملقات العشر ٢٨٣ حجر : معطوف على الفخيم في بيت سابق . كان نجير قد غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء في جمع من كتلة كثير ، وكانت بكر بن وائل مسج امرئ القيس ، فخرجت وردته وقتلت جنوده .

فارسية خضراء : كتيبة خضراء من كثرة سلاحها ، والمراد بالخضر النواد .

عشى إلى الموت من حقائقنا . مشيا ذريعا وحكنا نصف (١)
 وجاء في شعر دُرَيْد بن الصَّمَّة أنه نصح أخاه عارضا وأصحابه ،
 «وأُنذِرهم أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم المهاجمين في دروع فارسية :
 نصحت لعارض وأصحاب عارض ورَهْط بنى السوداء والقوم سُهْدَى
 فقلت لهم : ظنوا بِالْقَيْ مَدَجِّج سَرَاتُهُم في الفارسي المَسْرَد (٢)
 ولقد كانت هذه الحروب توحى إلى الشعراء والمخطباء بالافتخار
 بالنصر ، وبحفز الهمم ، وبعث العزائم ، وبالتحذير من الغفلة والاستهانة
 .وقد أسلفت طرفاً من هذا في عوامل الاتصال .
 وهذه لمحات آخر تكشف عما كان للحرب من أثر في الأدب .

١- في عهد كسرى غزت إياد سواد العراق ، واعتدت على ملوك
 آل نَصْر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، لكن
 العرب انتصروا أول الأمر انتصارا مبينا ، حتى قالوا إن جماجم الفرس
 وأجسادهم كانت كالتل العظيم ، ولم يستكن كسرى لهذه الهزيمة ،
 فبعث في آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة فبَغَتَهُم
 واقتتلوا قتالا شديدا حتى ظفر بهم وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا
 قد أصابوا من الأعاجم يوم الفُرات ، وكان لقيط بن يَعمَر الإيادي (٣)
 قد حذر قومه إياد بعد نصرهم بقصيدة طويلة منها :

(١) جهرة أشعار العرب ٢٦٢ يزدهي : يستخف . غرث : المراد الغابات . الفارسي :
 الدرغ . مصاصب . فحول المفرد مصعب . قطف : جمع قطوف أى بطيئة المشي المفرد قطوف .
 (٢) الأصمعيات ١١٢ ، وجمهرة أشعار العرب ٢٢٥ بنو السوداء : أصحاب أخيه عبد الله
 الذي يرثيه . ظنوا : أيقنوا . الفارسي المَسْرَد : الدرع المتينة النسيج الضيقة الخلق .
 (٣) كان . كاتبا ومتربها عند كسرى . الأغاني ١٠١/٢ ، ومعجم ما استعجم ٧٥/١ .

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا
هو القضاء الذى يجهت أصلكم
وقد بدلت لكم نصحي بلا دخل
على نساكم كسرى وما جمعاء
فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا
فاستيقظوا إن خير العلم مانفعا (١)
وحذرهم مرة أخرى بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط
فإن الليث آتاكم دليفا
أناكم منهم ستون ألفا
على من بالجزيرة من إيد
فلا يحبسكم سوق النقاد
يزجون الكتاب كالجراد (٢)

٢ ... وتحارب العرب والفرس في يوم الصفقة (٣) ، وسببه في رواية
أن باذان عامل كسرى على اليمن أرسل إلى كسرى عيرا تحمل ثيابا
ومسكا وعنبرا ومناطق مُحَلَّاة ، وكان يخفها بنو الجعيد المراديون ،
فلما كانت القافلة ببلاد بني حنظلة بن يربوع من تميم أغار عليها
هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماها ومن معهم من الفرس ، واقتسموها ،
وعلم الفرس الذين بهجر ، فساروا إلى بني تميم ، وقتلوهم قتالا شديدا
انهزم فيه الفرس . فاستشاط كسرى ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم
غيلة في الحصن المسمى المشقر .

وفي رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحا أرسلها كسرى إلى
اليمن ، وكان العرب يخفرون متاجره بالتناوب ، كل في منطقته لقاء
جعل ، ولكن هؤلة بن علي الحنفي تعهد بخفارة العير في المناطق كلها

(١) الأغانى ٢٠/٢٣ .

(٢) المؤلف والمختلف ١٧٥ ، والأغانى ٢٠/٢٥ النقد : صغار النعم أو الغم القصيرة
الأرجل القبيحة الشكل ، أى لا يمنكم حرصكم على هضمكم من الحذر .

(٣) الطبرى ٢/١٣٤ ، والأغانى ١٦/٧٥ ، والمقد الفريد ٣/١٥٤ .

على أن يأخذ وحده الجعل ، فغضب بنو سعد من تميم ، وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة ، وأسروا هُوذة حتى افتدى نفسه . وفي هذا يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهُوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانياً عليه وثاق القيد والحلق السمر
ويقول المجذام التميمي :

وهن عصبن هُوذة يوم حَجَرٍ فظلل ينازع المسد المغارا (١)
ثم سار هُوذة إلى كسرى ، فأرسل معه جيشاً ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا مما معه ، وكان بنو سعد أكثر من جاء إليه ، فاحتال للشار منهم بأن يدخلوا من باب المشقر رجلاً رجلاً ، وكلما دخل رجل ضرب عنقه .

ثم كشف العرب الخديعة وثاروا ، فاضطر هُوذة والأساورة إلى الهرب ، فتبعهم بنو سعد والرياب يقتلون من يلحقون به ، وقد افتخر كاشف الحيلة بقوله :

ألاهل أتى قومي على النساء أننى حميت ذماري يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضير (٢)
وقد مدح الأعشى هُوذة بن على الجنى بقصيدة طويلة ، أشار فيها إلى مكزمة له يوم المشقر ، لأنه لما رأى ثورة القوم ، وأنهم قد نذروا به ، كلم قائد الفرس في أن يعفو عن مئة من خيار بني تميم ، فوهبهم له يوم الفصح ، فاعتقهم :

(١) معجم الشعراء ٤٧١ جبر : موضع الموقعة . المسد المغار : الجبال المتينة من ليه .

(٢) الطبري ١٣٤/٢ بغير : سبيلتين .

سائل عيما به أيام ضفقتهم . لها رآهم أسباري كلهم ضربا
فقال للملك أطلق منهم مئة رسلًا من القول مخفوضا ومارفعا
فكك عن مئة منهم وثاقهم فأصبحوا كلهم من غلله خلعا
هم تقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وماصنعا (١)
٣- أما أكبر الوقائع بين العرب والفرس ، وأكثرها شهرة وتأثيرا
في الأدب ، فهي موقعة ذي قار (٢) .

وذلك أن كسرى غضب على النعمان ، وجبسه بسابط أو بخانقين
حتى مات ، وقيل إنه ألقاه تحت القيلة فداسته ، انتقاما منه لقتل
عدي بن زيد ، وقد سجل سلامة بن جندل ما فعله كسرى بالنعمان في
قوله :

هو المدخل النعمان بيتا سماؤه صدور القيول بعد بيت مسردق
وبعد مصاب الزن كان يسوسه ومال معد بعد مال محرق (٣)

حيث حنق كثير من العرب على كسرى ، وكان من مظاهر جنحهم
أن جعلت بكر بن وائل تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن
قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له أجرا على أن يضمن له

(١) ديوان الأعمى ١٠١ والطبري ١٣٤/٢ . صرح : دليل . رملا : ليثا ، ضاحية . ضحا .

(٢) الطبري ١٥٢/٢ ، ومروج الذهب ١٣٤/١ ، والتنبية والإشراف ٢٠٨ ، والإغانى ٢٩/٢ و١٣٢/٢٩ - ١٤٠ وديوان الأعمى ٢٥٩ .

(٣) الأصمعيات ١٥٢ . مسردق : مشدود أعلاه وأسفله . ومصاب الزن : إشارة إلى الأرض التي كان النعمان يحبسها والمطر يصيبها . معد : المراد القبائل الشمالية التي كانت خاضعة له من نسل معد بن عدنان . محرق : يطلق على عمرو بن هند لأنه جرق ميثق من بني تميم ، وعلى الحارث بن عمرو ملك الشام لأنه أول من حرق العرب في ديارهم ، فهم يدعون آل محرقين ، وعلى امرئ القيس بن عمرو .

ألا تغير بكر على سواد العراق ، فأقطعه الأبلّة وما والاها ، لكن البكرين
أغاروا ، فغضب كسرى على بكر ، وسخط على قيس بن مسعود وحبيه ،
وعباً جيشاً لقتال العرب ، فأنذر قيس قومه بقصيدة منها :

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبغلتى لمن يُخِيرُ الأنبياء بكر بن وائل (١).

واستدعى كسرى إلياس بن قبيصة الطائى — عامله على عين التمر
وما والاها إلى الحيرة — فأتاه بصنائه من العرب الذين كانوا بالحيرة ،
وبجيش من العرب فى ثلاثة آلاف ، ومن الفرس فى ألفين ، وجعل
على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث مع الجيش عيرا فيها
متاجر إلى اليمن ، وقال : إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بالعرى إلى اليمن.
بلغ الخبر هاتى بن قبيصة الشيبانى وقبيلة بكر ، فانتهوا إلى ذى قار ،
ولما التقى الزحفان خطب هاتى فقال : « يا قوم مهلك مَقْدُورٌ خيرٌ من نَجاء
مَعْرُور ، وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المثية
ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والظعن فى الثغر أكرم
من الظعن فى الدُّبُر ، يا قوم جدوا فما من الموت بد » .

وتبارى العرب فى الإقدام وفى التحميس على الاستبسال ، وروى
من تحميسهم كثير ، كقول عمرو بن جبلة الشكرى :

يا قوم لا تغرركم هذى الخِرَقْ ولا ويمِضُ البَيْضُ فى الشمس شرق
من لم يقاتل منكم هذا العُنُقْ فجنّبوه الراح واسقوه المَرَقْ (٢)

(١) هذه رواية الأغاني ، ورواية مجمل الشعراء ٣٢٥ (لأن تعلم الأنبياء والعلم وائل)
وهى بهذا لا إقواء فيها بالنسبة للقصيدة .
(٢) العنق : الجسع من الناس .

وقول حنظلة بن ثعلبة العجلى :

ياقوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تغلوا الفرسا (١)

وقول يزيد بن المكر بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار :

من فر منكم فر عن حريمه وجاره وفر عن نديمه
أنا ابن سيار على شكيمه إن الشراك قد من أديمه (٢)
وكلهم يجرى على قدمه من قارح الهجنة أو صميمه (٣)

وكانت النسوة يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهبن بطولتهم
بأناشيد حماسية ، كقولهن :

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق (٤)

أو تهربوا نفسارق فراق غير وامق (٥)

عرس المولى طالق

واستمات العرب ، ففقطعوا وضمن رواحل نساءهم ، حتى يقتسروا
أنفسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على
رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

ثم انجلت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقتنى البكريون آثارهم
إلى السواد ، وغنموا ، وقسموا على نساءهم مافي العير من بز وعطر
والطاف .

(١) تغلوا : تهزموا .

(٢) شكيمه : عهده وطبعه . الشراك : سير النمل . الأديم : الجلد ، يريد أنه صورة من
أبيه .

(٣) قارح الهجنة : القارح الفرس المكتمل ، الهجين : أبوه خير من أمه والمراد بقارح
الهجنة : العريق في الخسة .

(٤) النمارق : جمع نمرقة وهي البساط .

(٥) وامق : محب .

ولقد أشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل وبخاصة ، كقول
الدهان ابن جندل :

إن كنت ساقية يوما على كرم فاسقى فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقى فوارس حاموا عن ديارهم وأعلى مفارقهم مشكا وريحانا
وكقول الأعشى (١) :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلت
لهم ضربوا بالحنو حنو قراقرم مقدمة الهامرز حتى تولت
تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فولت
وأقلتهم قيس فقلت لعله يبل لئن كانت به النعل (٢) زلت

كانت هذه الموقعة لتمام أربعين سنة من مولد النبي صلى الله عليه
وسلم ، وقيل كانت بعد الهجرة ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ،
فهى حوالى سنة ٦١٠ م .

ولما علم الرسول بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب
من العجم ، وبى نصروا .

وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أن العرب لما انتصروا على الفرس
في موقعة ذي قار لم يتغنوا بنصرة العروبة عامة ، وإنما تغنوا بنصرة

(١) الأغاني ٢/٢٩، ١٣٢/٢٠٢ ومروج الذهب ١/١٣٤ والتنبيه والإشراف ٢١٠٨ .

(٢) راجعها : يريد نفسه . يوم اللقاء : يوم لقاء الفرس . تغنو قراقرم : حنوتى قار .
من المواضع التى كانت بها المعركة قرب الكوفة . الهامرز : أحد قواد الفرس فى ذلك اليوم .
وكانت شيبان على ميمنة بكر بإزاء كتيبة الهامرز . بنو الأحرار : الفرس . تناهت : كفت .
غلب : جمع أغلب وهو الغليظ الممتق ، ويوصف به الأسد . قيس : هو قيس بن مسعود .
يبل : يذهب ويهلك . إن كانت به النعل زلت : إن كان أخطأ مسير مع جيوش كسرى .
والظاهر أن كسرى شك فى أمره فطلبه فهرب منه .

القبائل التي اشتركت في الحرب وهم الشيبانيون والعجليون واليشكريون ، فلم تتجلى في الغناء روح عربية عامة ؛ لأن العرب لم يكونوا يدركون أنهم أمة ، وإنما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية (١) .

والحق أن الحياة القبلية كانت طاغية على شعور العرب بأنهم أمة ، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد في أنهم لم يتغنوا بانتصارهم على الفرس غناء يدل على الشعور بالقومية ، وذلك أن بعض القبائل العربية كانوا يحاربون إخوتهم العرب نصرة للفرس ، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف كما يقول المؤرخون ، يتزعمهم إياس بن قبيصة الطائي ، وصنائع الفرس الذين كانوا بالبحيرة وماحولها ، فكيف يتغنى الشعراء بروح عربية عامة ؟ لو أن العرب كلهم كانوا يحاربون الفرس لكان الفخر القبلي دليلاً على فقدان الشعراء أن العرب أمة ، ولو أن الشعراء أشادوا بالعرب كلهم في موقعة ذي قار لكانوا كاذبين على الواقع ، لأنهم يعلمون أن الجيش الذي حاربهم ثلاثة أخماسه من العرب ، وخمسه من الفرس .

(٣) أثر الفرس في اللغة العربية

كان من الطبيعي بعد هذا الاتصال أن يستعمل العرب كلمات فارسية ، ورد بعضها في الشعر ، ولعل أكثرهم ثراء بهذه الكلمات واستخدما لها في شعره الأعشى ، لأنه كما قال عن نفسه :

وقد طفتُ للمال آفاقه عَمَّانَ فحَصَّ فأوريشليم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبط وأرض العجم (٢)

(١) نعي الإسلام ١/ ١٨٨ .

(٢) الديوان ٤١ .

وقال أيضاً :

لقد سرت ما بين بانقيا إلى عدن و طال في العُجم ترحالي وتسياري (١)

لهذا نجد في شعره كلمات فارسية سواء أكان بعضها معروفاً من قبله أم غير معروف ، منها هذه الأسماء الفارسية للأزهار ، وغيرها ، ذكرها في وصفه لمجلس من مجلس الشراب واللهو :

ببابل لم تُغصّر فجاءت سُلَافَةٌ	تخالط قنديداً ومِسْكا مُخْتَمًا
يطوف بها ساق علينا مُتَوِّمٌ	خفيفٌ ذَفِيفٌ مسا يزال مُقَدِّمًا
بكأسٍ وإبريقٍ كأن شرابه	إذا صُبَّ في المصْحاة خالط بقمًا
لنا جَلَسَانٌ عندها وبِنَفْسَجٍ	وسيسنبر والمرزجوش منمنما
وآسٌ وخيرى ومروٌ وسوسنٌ	إذا كان هنزمنٌ ورختُ مخشما
وشاهسفرم والياسمين و نرجسٌ	يُصَبِّحُنَا في كل دَجْنٍ تَغِيَمًا
ومُسْتَقٌ سينين وونٌ وبرَبِطٌ	يجاوبه صَنِجٌ إذا ماترثما (٢)

ومنها كلمة سفسار الفارسية ، وردت في شعر الأعشى بلفظها

الفارسي في قوله :

(١) الديوان ١٧٩ ومعم البلدان ٥١/٢ .

(٢) الديوان ٢٩٣ . بابل : مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد نحو مئة كيلو ، ينسب العرب إليها الخمر والسكر . السُلَافَةُ : ما سال قبل العصر وهي أجود الخمر . القند بفتح القاف والقنديد بكسرهما : عمل قصب السكر فارسي معرب . مختم : مسدود بالطين ونحوه . متوم : مقرط بلؤلؤتين . ذفيف : مسرع . مقدم : يقدم السككوس . المصحاة : قلع من فضة يشرب به . البقم : شجر كبير ورقه كورق اللوز وساقه أحمر يصطبغ بطيخه . المرزجوش والجلسان والبنفسج واليسنبر والآس والخيرى والياسمين والسوسن والمرو والشاهسفرم كلها أنواع من الورود والرياحين فارسية معربة . منمنم : مزخرف . الهنزم : غيد من أعياد النصارى . مخشم : سكران شديد السكر . دجن : غيم ومطر . المستق والون والبربط أنواع من آلات الطرب ، كلها فارسية معربة . الصنيج : دوائر من النحاس تثبت في أطراف الأصابع ويفرب بها على نبات الموسيقى معرب .

وأصبحت لا أستطيع الكلام سوى أن أراجع سمسارها (١)

وأصل الكلمة من السنسكريتية انتقلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وقد نقل حديث عن قيس بن أبي غرزة الصمغاني الغفاري قال فيه : كنا نسمى السهاسرة ، فسمانا النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن منه ، فقال يامعشر التجار (٢) ، على أن الكلمة عربت بكلمة سفسير (٣) ، قال النابغة :

وقارفت وهى لم تجرب وباع لها من الفصافص بالنمى سفسير (٤)
وذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا فرأوا على باب دار الندوة :
ألهى قريشاً عن المجد الأساطير ورشوة مثل مائرشى السفاسير
فأنكروا ذلك ، وقالوا ما كتبها إلا ابن الزبير (٥) .

ومن هذه الكلمات الفارسية البستان ، فارسي معرب ، قال الأعشى
فى المدح :

يَهَبُ الْبُجْلَةُ الْجَرَاجِرَ كَالْبَسِ تَانُ تَحْنُو لِدَرْدَقِ أَطْفَالِ (٦)
ومن هذه الكلمات الفارسية القَرْنُقُل والزَنْجَبِيل فى قول قيس
بن المخطم :

-
- (١) الديوان ٣١٩ .
(٢) المغرب للجواليق ٢٠١ ، والإصابة ٢٦٢/٥ ومسند أحمد ٦/٤ ، ٢٨٤ :
(٣) اللسان والقاموس المحيط .
(٤) المغرب ١٨٥ قارفت : قاربت أن تجرب . باع لها : اشترى لها يعنى السمسار
الفصافص : جمع فصافص بكسر الفاء وهو القوت الرطب . النمى : فلوس كانت بالحيرة
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٦ السفاسير : جمع سفسير .
(٦) المغرب ٥٢ واللسان ٢٠٢/٥ و ٣٨٥/١١ البجلة : الضخام . الجراجير : جمع جزجور
وهو الهمير السكير الصلب . كالپستان : المراد كالنخل : الدردق : الصفار من كل شئ .

كَأَنَّ الْقَرْنَفَلَ وَالزَّنَجِيلَ . وَذَاكِي الْعَبِيرَ بِجَلْبَابِهَا (١) .
 وَالزَّنْبِقَ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ :
 وَفَوْقَ الْحَوَايَا غَزْلَةٌ وَجَاذِرٌ . تَضَمُّنٌ مِنْ مَسَكٍ ذَكِيٍّ وَزَنْبِقٍ (٢)
 وَالْأَفْحُونَ فِي قَوْلِ طَرْفَةِ :
 بَادِنٌ تَجْلُو إِذَا مَا ابْتَسَمَتْ عَنْ شَتَبَتِ كَأَقَا حَيِّ الرَّمْلِ غَرٍّ (٣)
 وَالْأَبَارِيقَ فِي قَوْلِ عُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ :
 إِذَا ذُقْتَ فَاجْأَا قَلْتَ طَعْمُ مُدَامَةٍ مُشْعَشَعَةٍ تَرْخِي الْإِزَارَ قَدِيحٍ
 بِمَاءِ سَحَابٍ فِي أَبَارِيقِ فَضْصَةٍ لَهَا ثَمَنٌ فِي الْبَائِعِينَ رَيْيَحٍ (٤)
 وَفِي قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ :
 قَدَعُوا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فِجَاءَتُ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا لِابْرِيقٍ (٥)
 وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ دَخْدَارٍ (ثَوْبٌ أبيضٌ بِالْفَارَسِيَةِ مَعْرَبٌ تَحْتَ دَارٍ)
 جَاءَتْ فِي قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ :
 أَرَقْتُ لِمَكْفَهْرٍ بَاتَ فِيهِ بَوَارِقُ يَرْتَقِينَ رَعُوسَ شَيْبٍ
 تَلُوحُ الْمَشْرِقِيَّةُ فِي ذِرَاهِ وَيَجْلُو صَفْحَ دَخْدَارٍ قَشِيبٍ (٦)
 وَالْإِسْتَبْرَقُ غَلِيظُ الدِّيبَاجِ فَارَسِيٌّ مَعْرَبٌ أَوْ ضَرْبٌ مِنَ الْحَرِيرِ

-
- (١) ديوان قيس بن الحظيم ٨٠ ولسان العرب ٣١٤/١٨ .
 (٢) الديوان ٦١٧ غزلة : جماعة من الغزلان . جاذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .
 (٣) ديوان طرفة ٥١ .
 (٤) ديوان عبيد ٢١ . مشعشة : مزوجة بغيرها . ترخي الإزار : تيد أسباب اللهو .
 قديح : ما يبق في أسفل الدن ، أي أنها آخر مركزة ، أو قديح بمعنى مصبوبة في القديح .
 (٥) الأغاني ١٥٨/١ .
 (٦) المعرب للجواليق ١٤١ ، والأغاني ٢٣/٢ وفي ٣٨/٢ (ويجلى صفحة الذيل القشيب)
 المكفهر : السحاب المتراكم . الشيب : السحاب التي فيها سواد . ويأخض شيبها بالرهوس
 الشيب ، وقيل شيب جميل معروفه شبه الرق في السحاب . يلجمنا في البيروني .

أصله استبرفه أو استبروه (١) .

قال مالك بن نويرة :

ولا ثياب من الديباج تلبسها هي الجياد وما في النفس من دَبَب (٢)
وقد اشتقوا من كلمة ديباج فقالوا : دَبَج المطر الأرض ودَبَّجها
إذا زينها بالرياض ، وأصبحت الأرض مُدَبَّجَة ، وطيلسان مدبَّج ، وهو
الذي زينت أطرافه بالديباج ، وفلان يصون ديباجتية أى خديه ،
وللقصيدة ديباجة حسنة إذا كانت مُحَبَّرَة (٣) .

والبلاس : المسح ، وهو الكساء من الشعر ، قال الراجز لامرأته :
إن لا يكن شيمحك ذا غِراس فهو عظيم الكيس والبلاس
في اللزبات مُطعم وكاسي (٤)

والإسوار بكسر الهمزة وضمها هو الراي ، وقيل الفارس ، ويجمع
على أساور وأساورة ، قال القلاح :
ووتر الأساور القياسا صُغْدِيَّة تَنْتَزِع الأنفاسا (٥)
والإستار : الأربعة ، أصلها بالفارسية جهار ، فعربوه فقالوا إستار ،
قال الأعشى :

توفى ليوم وفي ليلة ثمانين نحسبُ إستارها (٦)

(١) المغرب ١٥ .

(٢) المغرب ١٤٠ . الديب : الميب .

(٣) أساس البلاغة مادة دبج .

(٤) المغرب ٤٦ وذكر ابن دريد في الجمهرة ٢٨٨/١ أن العرب تكلمت به قدما
اللزبات : جمع لزبة يسكون الزاي وهي الشدة .

(٥) اللسان مادة قوس والمغرب ٢١ : القياس : جمع قوس . الصغد : بلد أو جبل من العجم .

(٦) المغرب ٤٢ ولسان العرب ٨/٦ توفى يعنى القارورة السكيرية ، إذا شربوا بالصنير
ثمانين يكون بالسكير أربعة ، كل عشرين واحد .

والتاج فارسية كانت في البهلوية ثار ، قال عمرو بن كلثوم :
 وسيد معشر قد توجه
 بناج الملك يحيى المحجرين
 تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفورنا (١)
 والبوصى ضرب من السفن ، بالفارسية بوزى ، وقد تكلموا به
 قديما ، قال طرفة في وصف عنق ناقته :

وأتلع نهاض إذا صعدت به كسكان بوصى بدجلة مضعد (٢)
 وقال الأعشى :

مايجعل الجد الطنون الذى جنب صوب اللجب الماطر
 مثل الفراقى إذا ما طمى يقذف بالبوصى والماسر (٣)
 والأرنذج أصله بالفارسية رنده وهو جلد أسود ، قال الأعشى :

عليه ديابوذ تسربل تحته أرنذج إسكاف يخالط عظما (٤)

والبربط من آلات الطرب ، أو هو العود ، معرب بربط أى صدر
 الإوز أو البط ، لأنه يشبهه ، قال الأعشى :

والنأى نرم وبربط ذى بحة والصنج يبكى شجوه أن يوضعا (٥)

والسنبك : طرف مقدم الحافر ، جاء في حديث أبي هريرة :

(١) شرح المعلقة للزوزنى ١٢٢ .

(٢) المغرب ٥٤ واللسان ٢٧٤/٨ وشرح القصائد العشر ٧١ . أتلع : صفة لمتق ناقته ،
 أى أنه طويل ، نهاض : يهض فى السير . السكان : الذى تقوم به السفينة . مضعد : ساجح فى مقابلة
 التيار فهو يعالج الموج .

(٣) المغرب ٥٥ : الجد : البئر الجيدة الموضع . الطنون : القليلة الماء : التى لا يوثق
 بها . اللجب : الكثير الصوت . طمى : ارتفع . الماسر : الساجح .

(٤) المغرب ١٦ ولسان العرب ١٠٨/٣ و ٢٤/٥ . الديابوذ ثوب ينسج على نيرين : المظلم :
 نوع من الشجر يخضب به .

(٥) المغرب ٧٢ والقاموس المحيط مادة بربط . النأى نرم والصنج من آلات الملاهى .

« تخرجكم الروم منها كفراً كُفراً إلى سنبك (١) من الأرض » وقال

العباس بن مرداس :

شهدن مع النبي مَسُومَاتٍ حُنَيْنًا وهى دامية الحوامي

ووقعه خالد شهدت وحكَّتْ سنبكها على البلد الحرام (٢)

والدرياقة : الخمر ، قال حسان بن ثابت :

من خمر بَيْسَانَ تَخَيَّرْتُهَا دِرْيَاقَةً توشكُ فترَ العظام (٣)

والطرز والطرز النموذج ، قال حسان فى مدح بنى غسان :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شُمُ الأنوف من الطراز الأول (٤)

وتقول العرب : طَرَزُ فلان طَرَزٌ حسن ، أى زيه وهيشته .

وقابوس اسم فارسى ، وكان النعمان بن المنذر قد سمى ابنا من

أبنائه قابوس ، فكان يكنى أبا قابوس ، قال النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زار من الأسد (٥)

وقال أيضاً :

فلان يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام (٦)

(١) المغرب ١٧٧ .

الكفر : الأرض البعيدة عن الناس ، والمراد القرية . سنبك من الأرض : شبه الأرض التى يخرجون إليها بسنبك الدابة فى الفلظ .

(٢) المغرب ١٧٨ .

مسومات : مملكات . وقفة خالد : المراد دخوله مكة يوم الفتح على الخيل ، أى إن الخيل وطلت أرض مكة .

(٣) المغرب ١٤٢ .

(٤) المغرب ٢٢٣ .

(٥) ديوان النابغة ٣٦ وشعراء النصرانية ٦٥٨ والمغرب ٢٥٩ .

(٦) المغرب ٢٥٩ وشرح الحاشية ١٨٥/٣ .

الكلمة بالفارسية كاهوس وكاوس وكى كاوس ، ومعناها كلها الحبيب الشريف العادل

وَدُخْتُوْسُ كلمةٌ فارسيةٌ معناها الجميلة اللطيفة أو بنت المناعة .
وقد سَمَّى لقيط بن زُرارة التميمي بنته دختوس ، وهي التي عَالَهَا
بقوله لَمَّا قَتَلَ :

يَأْلَيْتُ شَعْرَى عَنْكَ دُخْتُتُوسُ إِذَا أَتَاهَا الْخَبِيرُ الْمَرْمُوسُ
أَتَحْلِقُ الْقُـسْرُونَ أَمْ تَمِيسُ لَا بَلْ تَمِيسُ لَهَا عُرُوسُ (١)

قال المحارث بن الحلزة في تذكير قبيلة بكر بما كان بينها وبين
قبيلته تغلب من معاهدة وكفلاء (٢) :

وَاذْكُرُوا حَيْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا
حَسَلَ الْجُورِ وَالتَّعْدِي وَلَنْ
يُنْقُضَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ (٣)



ويعد :

فتلك طائفة من الكلمات الفارسية الكثيرة التي عربها العرب في العصر الجاهلي ، ثم ورد بعضها في القرآن الكريم (٤) .
ولا شك أن ورود بعضها في القرآن الكريم أعظم دليل على أن العرب عرفوها وعربوها وألفوها قبل نزول القرآن ، فصارت من صميم لغتهم .

على أن العرب في نقلهم كلمات فارسية سلخوا عدة اتجاهات .

(١) السكامل لأبن الأثير ٢١٣/١

(۲) جمع عمرو بن هند قبيلة بكر وتغلب وأصلح بينهما ، وأخذ من الحيين رهنا من كل حي مئة غلام فسكف بعضهم عن بعض (شرح القصائد العشر ۲۵۱) .

(٣) شرح القصائد العشر ٢٦٩ ، والبيان والتبيين ٦/٣ المهارق: جمع مهرق وهو الصحيفة

(٤) الإتيان للسيوطي: ١٣٥ - ١٤١ .

- ١- نقلوا الكلمات على صورتها الفارسية كما نرى في بعض النصوص السابقة ، مثل مرزجوس ، وسمسار ، وزنجبيل ومهرجان وديابوذ .
- ٢- تصرفوا فيها بعض التصريف ، كما نرى في آذريون للدلالة على الورد الأحمر الورق أو الأصفر ، مع سواد الوسط فيه ، وأصلها الفارسي آذر كون ، وكلمة نيروز معرب ، نوروز ، وإستار معرب جهاز ، وتاج معرب ثار ، وبوصى معرب بوزى ، وأرندج معرب رنبد ، والونج أصله ونه ، ومُستق صيني أصله مُشته صيني .
- ٣- تصرفوا في بعض الكلمات الفارسية نطقاً ودلالة ، مثل بربط أصله بالفارسية بربط أى صدر الإوز أو البط ، فدل العرب به على آلة الطرب التي تشبه العود لأنها مثل صدر البط

(٤) أثر الفرس في القصص والخيال

- ١- عرف العرب بعض أخبار الفرس وقصصهم ، كقصة رسم واسفنديار (١) ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، ومن يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص إلى البحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وقصة رسم واسفنديار (٢) .

وذكر ابن أبي أصيبعة أن النضر رحل إلى فارس وتعلم (٣) بها ،

(١) قصة فارسية قديمة ، أعادها الفردوسي في الشاهنامة ، تدور حول الحرب التي نشبت بين رسم بطل إيران القديم الذي كفّل لها النصر على أعدائها أكثر من ثلاث مئة سنة وبين أسفنديار البطل الناشئ ، بطل دين وزادشت ، وقد دارت الحرب بينهما زمناً ، وأظهر اسفنديار بطولته تشبه بطولته رسم ، لكن المباراة بينهما انتهت بمقتل اسفنديار .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١١٣/١ .

فكان الرسول إذا جلس منجلساً وذكّر فيه بالله ، وحذر قومه ماأصاب الطغاة من قبلهم خلفه النضر في مجلسه إذا قام ، وقال يامعشر قريش أنا والله أحسن منه حديثاً ، فلهم إلى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن رسنم واسفنديار ، وهو الذى قال سأنزل مثل ماأنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١) » وروى أنه اشترى كتب الفرس ليحدث منها ، وأنه المقصود بقوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين » (٢) .

٢- وأثر اتصال العرب بالفرس في خيال الشعراء ، فجاءوا بصور شتى من علاقتهم بالفرس .

فالمرقش الأكبر يشبه البقر الوحشى التى ترعى في الأطلال مثمهلة مطمئنة مختالة برجال من الفرس يمشون مختالين في قلائسهم :
 أمست خلاء بعد سكانها مقفرة ما إن بها من أرم
 إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم (٣)
 والخنساء تشبه أخاها صخراً بالرمح ، ثم تشبه اختياله في مشيته
 بخيلاء قائد من قواد الفرس :

مثل الرديني لم تنفسد شبيبته كأنه تحت طي البرد أسوار (٤)

(١) سورة القلم ١٥ وسيرة ابن هشام ١/٣٢٠ .

(٢) سورة لقمان ٦

(٣) المفصليات ٤٩/٢ . أرم : أحد . الكمم : القلائس .

(٤) ديوان الخنساء ٧٢ .

وقد ذكر شارح الديوان أنها شبهت أبحارها بسوار من الذهب أو
الفضة في حسنه وضموره ، ولكنى أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى .
والمخبّل السعدى يشبه وجه حبيته بالصحيفة ملامسة ولينا ، ويقول
إنه ليس ضامرا ولا مكنتزا ، وهو كالذرة النادرة التي أضواء بها
العجم صدر مجلس عزيزهم ، وقد اشتراها العزيز بثمن غال ، لأنها
نادرة . جهد الغواص في العثور عليها ، إذ جاء بها من أعماق البحر الهائج
المتاوج الواسع غواص دقيق العظام ، كأنه سهم في سرعته ونحوه ،
وقد دهن جسمه بالزيت ليقيه ملوحة البحر :

وتريك وجها كالصحيفة ، لا ظمآن مختلج ولا جهنم
كعقيلة الصدر استضاء بها محراب عرش عزيزها العجم
أعلى بها ثمنا وجاء بها شخت العظام كأنه سهم
بلبانه زيت وأخرجها من ذى غوارب وسطه اللعجم (١)
والثقّب العبدى يصف ناقته بعد إجهادها بأنها ضخمة الهيكل ،
تشبه ذكة البواب :

فأبقى باطلى والمجد منها كد كان الدرابنة المطين (٢)
وعلقمة بن عبدة شبه ناقته الصلبة الضامرة بغمد السيف الفارسى
المحكم :

(١) المفضليات ٣/١ . مختلج . هزيل . جهنم : كثير اللحم . أعلى بها ثمنا : اشتراها
بثمن غال . شخت : دقيق . لبانه : صدره . غوارب : أمواج . اللحم : السمك الكبير .
(٢) المعرب ١٤٠ ، ولسان العرب ١١/١٨ ، والمفضليات ٩٢/٢ . باطلى : ركوبى في
حلب الدهر والغزل . جهدا : اجتهدا في السير . الدكان : الدكة المبيتة للجلوس عليها . الدرابنة :
جمع دربان وهو البواب مثلثة الدال . والدكان والدربان كلمتان فارسيتان معربتان . مطين :
مطلى بالطين .

— ٦٠ —

وقد أقطع الخَرْقَ المخوفَ به الردى بعنس كجفن الفارسيَّ المسرد^(١)،
 وخفاف بن ندبة يصف المرقبة التي راقب منها أعداءه بالارتفاع
 الشاهق ، وية قول إن جوارح الطير تببت في أعاليها فتبدو كناصرية في
 بيت فارسي على مرتفع :

ومرقبة طيرت عنها حمامها نعامتها منها بضاح مُزَّق
 تببت عتاقُ الطير في رقباتها كطرة بيت الفارسي المعلق^(٢)
 ربأت . . .

وقد شبه الحارث بن جِلْزَة آثار الديار بالمهارق ، وهي الورق.
 الفارسي الذي كانوا يكتبون فيه :

لمن الديار عفون بالعجس آياتها كمهارق الفرس^(٣)
 وكذلك شبهها البُعَيْثُ بن حُرَيْثُ العنقي :

لمن طللُ بروضات السَّخَالِ تآبَدَ كالمهاريق البوالي^(٤)
 وشبه أوس بن حَجَرٍ ممدوحه فضالة بالمرزيان - حاكم إقليم من.
 فارس - في قوله :

ليث عليه من البردي هسبرية كالمرزباني عيال بأوصال^(٥)

(١) شعراء النصرانية ٥٠٦ الخرق : الخرقاء وهي الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح ..
 عنس : فاقة صلبة : الجفن : غمد السيف . الفارسي : المراد السيف . المسرد : المحكم ضم.
 الطرفين .

(٢) الأصمعيات ١٣ . المرقبة : موضع المراقبة . النعام : كل بناء على الجبل كالظلة .
 الضاحي : البارز للشمس . المزلق : الأملس لا تثبت عليه قدم . عتاق الطير : جوارحها
 رقباتها : أعاليها . الطرة : الناصية . ربأت : صارت ربيبة وظليمة وعينا .

(٣) المفصليات ١٣٠/١ .

(٤) معجم البلدان ٣١٧/٤ . السخال : موضع .

(٥) البردي : نبات ذو هبرة وزغب . عيال : متبختر . الأوصال : أعضاء الجسم .

(٥) أثر الفرس في الملاحى والتريف

١- يتردد ذكر القيان كثيرا في الشعر الجاهلى ، وفيما بعده ، ولان نجد ذكرا في الشعر الجاهلى لرجل يتغنى .

وأغاب الظن أن مرجع هذا إلى أن النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن في الغالب أندى صوتاً ، وأحلى ترجيعاً ، وأرق نغماً ، ولأن أنوثتهن وجمالهن ورقةتهن تضاعف الطرب لهن . لهذا رأى الجاحظ أن « الغناء المطرب في الشعر الغزلى من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبيب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول في التشبيب . وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشبهى أن تقبله ، وبين فم تشبهى أن تصرف وجهك عنه .

على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد فأنما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كضيف الارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان معضن الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينه ، أو كأنها خرطت من ياقوته أو من فضة مجلوة (١) ؟ » .

وإذا كان الجاحظ قد عقد موازنة بين الجارية الحسناء والرجل القبيح لينتهى إلى إيثار الجارية ، فإن النتيجة لا تختلف كثيراً إذا عقدنا مثل هذه الموازنة بين مغنية جميلة ومغن جميل :

وشبيه بهذا ما حدث به ثعامة بن أشرس في قوله : كنت عند
المأمون يوماً ، فاستأذن المغنى عمير ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال
المأمون : مابك يا ثعامة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إذا غنى عمير ذكرت
مواطن الإبل وكتبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى
جكلى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والوالدين ، كم بين أن
تغنيك غادة كأنها غصن بان ، ترنو بمقلة وسان ، كأنما خلقت من
يافوثة ، أو قرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كثر اللحية ،
غليظ الأصابع ، خشن الكف ؟

فتبسّم المأمون ، وقال : الفرق بينهما واضح ، يا غلام لاتأذن
لعمير ، وأمر بأن تحضر أطيّب قيناته (١) .

أما القينة فهي الأمة المغنية ، من الثقيين وهو التزين ، ومنه قيل
للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء ، وقيل القينة هي الأمة مغنية
أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك
من عمل الإماء دون الحرائر (٢) .

٢- ولقد عرف العزب القيان منذ زمن بعيد ، وإن أخبارهن لتردد
كثيراً في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي .

وكان من الطبيعي أن يكن في الحواضر أكثر منه في البوادي ،
وأن يكن من أجناس شتى .

وحسبنا أن نسوق بضعة أمثلة للدلالة على ذلك .

فهن في قصور الحيرة كثيرات العدد ، يدل على هذا أن هرام

(١) زهر الآداب ٢٧/٣ .

(٢) اللسان مادة قين .

جور أرسله أبوه يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالأيثم ليعيش
 زمنا في الحيرة عند ملكها النعمان الأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) وليتر
 تربية عربية ، فاقترح على النعمان أن يكمل مسراته ، فيقسم له حظا
 من الجوارى والقيان ليكمل له بهن طيب المقام ، فكانت أيامه بين
 لهو وطرب وصيد ولعب ، وأراد يوما أن يجمع لذات الصيد والسماع
 والشراب والعشق ، فامتنى ناقة كريمة ، وأردف جازيته آذازورا ومعها
 صنجها ، واصطحب دنا من الخمر وكأسا من الذهب ، وخرج إلى
 الصيد (١) .

وجاء في رواية أخرى أن الملك العربي كان المنذر بن النعمان (٢) ،
 ولكن هذه الرواية لا تتفق مع سنوات حكم يزدجرد وسنوات حكم
 المنذر بن النعمان ، إذ أن المنذر حكم من سنة ٤١٢ إلى ٤٧٣ م ، وكان
 يزدجرد قد توفي قبل ولاية المنذر .

ويقال إن الغريين (٣) بنهما المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة على
 قيثتين كانتا جاريتين له ، فماتتا ، فأمر بدفنهما ، وبني عليهما الغريين
 تكريما لهما (٤) .

وكن كذلك في قصور الشام ، فإن حسان بن ثابت وصف مجلسا
 من مجالسه في قصر جيلة بن الأيهم ، وجاء في وصفه أنه رأى
 عشر قيان ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء
 أهل الحيرة أهدهن إلى جيلة إياس بن قبيصة ، وهؤلاء سوى من

(١) الأغاني ١٥٧/٥ والطبري ٧٢/٢

(٢) الطبري ٧٤/٢

(٣) بنهان أسطوانييان بظاهر الحيرة .

(٤) نهاية الأرب ٣٨٧/١ .

أكان يفقد إلى جبلية من مكة وغيرها للغناء (١) .

ولم يكن عددهم قليلا بمكة ، فإن كثيرا من قريش وغيرها كان لهم قيان ملك أيمانهم ، فمثلا كان لعبد الله بن خطل قينتان هما فرقتني وصاحبتهما (٢) . وكان لعبد الله بن جُدعان قينتان (٣) ، وكان لحمزة ابن عبد المطلب قينة تغنيه (٤) ، وكانت قريش قد اعتادت أن تغنيها قيانها في الأعياد والمواسم ، ولهذا أبي أبو جهل أن يرجع ومن معه من النفير إلى مكة بعد أن أرسل إليهم أبو سفيان أن العير قد نجت - في غزوة بدر - قبل أن تبلغ قريش بدرا ، فتقيم به ثلاثا ، تندحر العجز ، وتطعم الطعام ، وتسقى الخمر ، وتعزف عليها قيانها ، وتسمع العرب بقريش ، فتهاجها أبد الدهر (٥) .

وعلى هذه الشاكلة كانت القيان في يثرب - المدينة - يدبل على هذا قول حسان بن ثابت في وصف مجلس شراب عند صالح بن علات :

ربِّ لهو شهدته أمَّ عمرو	بين بيض نواعم في الرباط
مخ نداحي بيض الوجوه كرام	نُبَّهوا بعد خَفَقَة الأشراف
وكُميت كسائها دم جوف	عُتِّقَتْ من سُلَافَة الأنباط
فبأضواها فتي يهين لها المباح	لَ وَنَادِمَتْ صالح بن علات
ظل حولي قيسائه عازفات	مِثْلَ أدم كوانس وعَوَاط

١ (١) الأغاني ١٤/١٦

٢ (٢) سيرة ابن هشام ٥٢/٤ تحقيق الأستاذ السقا وزميليه .

٣ (٣) الأغاني ٢/٨

٤ (٤) الفائق للزخشرى ٦٥٠/١

٥ (٥) سيرة ابن هشام ٢٧٠/٢

طفن بالكاس بين شرب كرام مَهْدُوا حُرْ صالح الأَمَاط (١)
ويدل عليه أيضا أن أهل يثرب أراحوا أن ينبهوا النابغة الذبياني
على الإقواء في قوله :

أمن آل ميسة رائح أو مُتَّعِدِ عَجَلَانِ ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود
وفي قوله :

سقط النصيف ولم تُرِدْ إسقاطه فتناولتْهُ واتقتنا باليد
مَعْضُوب رَخْصٍ كَسَانِ بنانه عَنَّمْ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ
فدعوا قينة وأوعزوا إليها أن تغني بهذا الشعر ، فلما سمعها النابغة
أدرك ما في قوله من إقواء ، فلم يعد إليه ، وقال قدمت الحجاز وفي
شعري ضعة ، ورحلت عنه وأنا أشعر الناس (٢) .

فلذا ماعدونا شرقا إلى اليمامة وجدنا الإمام كثيرات ، وحسبنا أن
بشر بن عمرو بن مِرثد وصف مجلسا من مجالس الخمر والغناء ، وجاء
في وصفه أن القينة كانت تجاوب قينة أخرى بغنائها :

وتَبَّيتُ داجنةً تجاوب مِثْلَهَا خَوْدًا منعمةً وتضرب مَعْجَسَا
في إخوة جمعوا نَدَى وساحةً هُضْمٌ إذا أَرَمُ الشتاء تَزَعَّبَا (٣)

ولم تكن البوادي مقفرة من القيان ، فإن الشعراء البادين كثيرا
ماتحلثوا عنهن ، وكثيرا ما وصفوهن ، فهذا لقيط بن زُرارة يقول
في يوم شُعب جَبَلَة ، وكان لقيط زعيم قومه الرِّباب في ذلك اليوم :

(١) ديوان حسان بن ثابت ٤١

(٢) الموشح ٣٨ وطبقات الشعراء ٥٥ والأغاني ١٥٧/٩

(٣) المفضليات ٧٦/٢ داجنة : قينة . معتب : عود . هضم : ضامرون . تزعب :

اتسع وكثر

(تعاريف ثقافية)

إنَّ النَّشِيلَ وَالشَّوَاءَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالْكَأْسَ الْأَنْفَ
وَصَفْوَةَ الْقَدْرِ وَتَعْجِيلَ اللَّقْفَ لِلطَّاعِنِينَ الْخَيْلَ وَالْخَيْلُ قُطِفَ (١).

وهذا عبد يغوث بن وقاص الحارثي يقول في أسره :

وقد كنت نَحَّارَ الْجَزُورِ وَمَعْمِلَ الْمَطْيِ وَأَمْضَى حَيْثُ لَاحَى مَاضِيَا
وَأَنْحَرَ لِلشَّرْبِ الْكَرَامَ مَطْيِي وَأَصْدَعُ بَيْنَ الْقَيْنَتَيْنِ رَدَائِيَا (٢).
على أَنَّ بعض الشعراء كان لهم قِيَانٌ يَتَغَنَّيْنَ بِشِعْرِهِمْ خَاصَّةً ، فكان
لعبد الله بن جُدْعَانَ قَيْنَتَانِ (٣) ، ولبشر بن عمرو بن مِرْثَدٍ قَيْنَتَانِ (٤) ،
ولسلامة بن جَنْدَلٍ قَيْنَةٌ (٥) ، ولطرفة بن العبد قَيْنَةٌ (٦) ، وكذلك
لعمر بن الإِطْنَابَةِ (٧) ، ولعبدَةَ بن الطبيب (٨) ، ولعبد يغوث (٩) ،
وكان لأمير القيس قِيَانٌ يَغْنِيْنُهُ فِي رَحَلَاتِهِ وَهُوَ (١٠) .

وكان كثير من الشعراء الحاضرين والباديين يعجبون بالقِيَانِ أَيْمًا
لِعَجَابٍ ، وكان بعضهم يَكْلِفُ مِنْهُنَّ وَيَتَعَشَّقُهُنَّ ، فكان ينبوع حب
وغزل ووصف جميل . من هؤلاء الشعراء أَحْيَحَةُ بْنُ الْجُلَاحِ ، فهو
يتغزل بقينته مَلِيكَةً ، ويشتاقي إليها في قوله :

(١) الأغاني ٣٧/١٠

(٢) الأغاني ٧٢/١٥

(٣) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغاني ٣/٨

(٤) الأغاني ٧٧/٨

(٥) المفضليات ١١٨/١

(٦) ديوان طرفة ٢٨

(٧) الأغاني ١٦٤/٩

(٨) المفضليات ١٤٣/١

(٩) المفضليات ١٥٦/١

(١٠) الأغاني ٦٥/٨ والديوان ١٨٧

يشتاق قلبي إلى مُلَيِّكة لو أَمَسْتُ قريبا ممن يطالبها
 ما أحسن الجيد من مليكة واللـبـات إذ زانها ترائبها
 ياليتني ليلة إذا هجع الذاسُ ونام السكلاب صاحبها
 في ليلة لا يُرى بها أحدٌ يَسْعَى علينا إلا كواكبها
 ومنهم طرفة بن العبد ، فقد عرض للذات الشباب ، وفصل القول
 في وصف القينة ، فقال :

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُردٍ ومُجسّد
 رحيب قطابُ العيب منها رفيقة بجسّ النداي بضّة المتجرّد
 إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطرفة لم تشدّد
 إذا رجعت في صوتها خلّت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (١)
 والأعشى يبدأ مطولته بذكر القينة هريرة فيقول :

ودّع هريرة إن الركب مُرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
 غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كمايمشى الوجى الرجل
 ويقول في غزله بالقينة قتيلة :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى جملها من جملنا فتصرّما (٢)
 وله فيهما شعر كثير ، وأنخبار شتى .

ويقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيّا

(١) ديوان طرفة ٢٩ مجسّد : ثوب مصبوغ بالفساد وهو الزعفران . بضّة : رخصة .
 مطروقة : حبيبة . أظآر : مرضعات . ربع ردى : وليد صغير ضعيف .

(٢) ديوان الأعشى القصيدة ٦

(٣) الديوان القصيدة ٥٥

يتبارين في النعم ويصيب
لنمسا. همهن أن يتحليـ ن سُموطا وسُنبلًا فارسيًا
من سُموط المرجان فصل بالسد ر فأحسن بَحْلِيهِن حليا (١)
٣- فهل كان في هؤلاء القيان فارسيات ؟

نعم كان كثير منهن فارسيات ، إذ كان اتصال العرب بالفرس
في العصر الجاهلي أسرع وأوسع وأعمق من اتصالهم بغير الفرس ،
وكانت الحيرة جسرا بين العرب والفرس تعبره ألوان من المعارف
والثقافات ، وكان العرب يترددون كثيرا على فارس ، والفرس يترددون
كثيرا على بلاد العرب ، وكان الفرس قد حكموا حكما مباشرا حينما
وغير مباشر حينما أجزاء من جزيرة العرب ، كاليمن والبحرين ،
وكانت الحيرة نفسها كثيرا ماتخضع للفرس وتستظل بسطانهم .

وقد مر بنا وصف حسان لمجلس في قصر الأمير الغساني جبلة
ابن الأيهم ، وأنه سمع فيه خمس قيان يتغنين بغناء أهل الحيرة .

ونزيد على هذا أن النضر بن الحارث كان يحدث قريشا بقصص
الفرس ، وكان يشتري القيان الفارسيات ، فإذا ظفر بأحد يريد
الإسلام أخذته إلى قينته وقال لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فإذا ما فعلت
ذلك قال له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من صلاة وصيام وقتال (٢)

وكان عبد الله بن جُدعان قد أتى كسرى ملك آل ساسان ، وسمع
عنده غناء الحسان ، وشدا بجانبهما سمع ، وكانت لعبد الله بن جدعان
قيان بغنين له ولأصدهائه ولمن يقصد داره ، وكان يتاجر فيهن ، وله
نخاس يتولى هذا ، وهو ضاحب القينتين اللتين سماهما بجراذقي غاد ،

(٢) الكشف . سورة لقمان .

ووهبهما لأمية بن الصلت الثقفي (١) .

وإننا لنجد في الشعر الجاهلي نصوصا كثيرة تدل على أن بعض

القيان كن من الفرس ، مثل قول عمرو بن الإطنابة في وصفهن :

إنما همهن أن يتحلّين
من سموط المرجان فُصل بالذ
ن سموطا وسنبلا فارسيّا
ر فأحسن بحليهن حُلّيا (٢)

وقول عبد المسيح بن عسلة :

وسماع مُدجّنة تُعلّلنا
حتى نثوب تناسوم العجم

وقول الأعشى يصف مجلس شراب وهو وغناء :

ومُستق سِينين وَوْنٌ وِبَرَبَطٌ
يُجَاوبُه صَنْجٌ إِذَا مَاتَرْنَمَا (٣)
وكثيرا ماتغزل الأعشى بهريرة وقتيلة ، وهما أو هريرة وخليفة .
كانتا قيزيتين فارسيّتين لبشر بن عمرو بن مِرثد قدم بهما إلى اليمامة
لما هرب من النعمان ملك الحيرة (٤) .

لكن الذي أستبعده احترام النساء العربيات بالغناء في العصر
الجاهلي ، لأنهن مكفولات الرزق برجالهن أو بأعمال غير الغناء ، إذ أن
الغناء كان يقتضى المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تكشف عن
بعض مفاتنها ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع أشتهاثهم - كما
تحدث الشعراء - ولا يرضى رجل عربي أن تكون كذلك امرأة
تصلها به قرابة ، ولا ترضى امرأة عربية لنفسها أن تبدو بهذه

(١) الأغاني ٢/٨ والمهجر ١٣٨ والأغاني ١٠/٩

(٢) الأغاني ١٦٤/٩ سموط : قلائد . سنبلا فارسي : نوع من الحلل .

(٣) ديوان الأعشى ٢٩٣

(٤) الأغاني ٧٧/٨

الصورة ، ولا تجرؤ على أن تشد عن بنات جنسها ، فتحتل هذا الموضع المخصص للإماء .

ولهذا أرجح أن القيان كن غير عربيات ، فارسيات وروميات وحشييات .

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال ، فقال إن القيان كن فارسيات أو يونانيات من سورية ، وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية (١) ، وهو في هذا يتفق مع فون كريم ، وإن ذهب فون كريم إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليوناني (٢) أو الفارسي .

أما الأدلة على غناء بعضهن بالشعر العربي فكثيرة سبق بعضها ، ومنها قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبحتُ كُتَيْتًا قَرَقَفًا أَنْفًا من طَيِّبِ الرّاح ، واللذاتُ تعليلُ
صِرْفًا مِزَاجًا ، وأحيانًا يعللنا شِعْرُ كُثْلِهِ السَّيْمَانُ محمول
تَلْدُرِي حَوَاشِيَهُ جَيْدَاءَ آنَسَةٍ في صَوْتِهَا لِسَمَاعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ
تَغْسِدُو عَلَيْنَا تُلْهِنُنَا وَنُصَفِّدُهَا تُلْقَى البرودُ عليها والسَّرابِيلُ (٣)

كذلك كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٤) .

(١) الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية ٥٤

(٢) Farmer. A. History of Arabian Must. p. 17.

(٣) الفضليات ١ - ١٤٣ كيت : خرفي لونها سواد وخرة . قرقف : تصيب شارها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجا : خالصة وكأنها مزوجة بالماء لطيفا . يعللنا : يلهينا . السمان : وثنى أو أصباغ . محمول : مروي ذائع لحنه . تلدري : ترفع أو تسقط . حواشي غنائها تطريبا وترجيا . حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة متحدة . نصفدها تغطيها .

(٤) الأغاني ١٩/١٥٨

والأمثلة على غنائهم بالشعر العربي كثيرة جدا (١) .

على أنه لا عجب في أن يتغنى بعضهم بغير اللغة العربية ، فيطرب سامعوهن ، لأنهم يطربون للصوت واللحن ويعجبون بالجمال ، فقد روى أن أبا تمام سمع بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ماهو ، غير أنه أشجاه ، فقال :

أقام سُهادُها ومضى كرها	حمدتك ليلةً شُرُفتُ وطابت
بأن يقتاد نفسى من عَناها	سمعتُ بها غناء كان أولى
ولم تُصمِمْه لا يُصمِّمَ صَداها	وُسْمِعةٌ يحسار السمع فيها
فلو يَسْطِيع سامعها فداها	مَرَّتْ أوتارها فشجَّتْ وشاقت
وَرَّتْ كبدى فلم أجعل شجاها	ولم أفهم معانيها ولكن
يُحبُّ الغانيات ولا يراها (٢)	فكنت كائننى أغمى معنى

ويظهر أن عدد القيان والإماء الفارسيات كان كثيراً ، وأن العرب استولوا بعضهم ، لأن على بن محمد المدائني ألف كتاباً ذكر فيه أسماء الذين تزوجوا فارسيات سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٣)) وأرجح أن ذلك الزواج كان قبل الإسلام ، لأن الإسلام لا يحل زواج المجوسية ، إذ أن المجوس يؤمنون بنبوة زرادشت ، ويكذبون سائر الأنبياء (٤) .

٤- هذا الغناء كان يقتضى الموسيقى ، ولقد يعزز أن بعض القيان

(١) الأغاني ٧٨/٨ و ٣/٨ و ٧/١٠ و ١٤/١٦ و إنسان العيون ٣/٣٨ والطيرى ٣/١١٩ والإصابة ١٦٦/٨ و ٤/٨ والمقد الفريد ٤/٢٣١ .
 (٢) الأغاني ٦٥/٨ والديوان .
 (٣) معجم الأدباء ١٤/١٣٣
 (٤) الفصل ١/١١٣

كن فارسيات أننا نحد في الشعر العربي القديم أسماء فارسية لآلات الطرب والموسيقى .

من ذلك الطنبور كلمة فارسية معناها إلية الحمل (١) .

والبربط هو العود ، فارسي معرب ، معناه صدر البط أو الإوز (٢) لأنه يشبهه .

والونج هو المعزف أو المزهري أو العود ، وقيل نوع من الصنج فارسي معرب ، أصله ونه ، ونطقه العرب الون (٣) .

ومشتق صيني آلة يضرب عليها ، ذكر الضبي أن الكلمة فارسية أصلها ومشتق صيني أي يؤخذ باليدين (٤) . وفي القاموس مشتقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه معرى (٥) .

وبحسبنا أن نسوق من شعر الأعشى ما يدل على معرفتهم بعض هذه الآلات الفارسية قال الأعشى :

وَيَرْبِطُنَا دَاعِمًا مُعْمَلٌ فَأَيُّ الثَّلَاثَةِ أَزْرَى بِهَا ؟
تَرَى الصَّنَجَ يَبْكِي لَهُ شَجْوَهُ مَخَافَةَ أَنْ سَوْفَ يُدْعَى (٦) بِهَا

وقال :

وَمُسْتَقٌ صِينِيٌّ وَوَنٌّ وَبَرْبُطٌ يَجَاوِبُهُ صَنْجٌ إِذَا مَاتَرْنَمَا (٧)

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة طنبور وفر هنك نفيس Steingass

(٢) اللسان والقاموس مادة بربط .

(٣) اللسان والقاموس مادة ونج .

(٤) الملاحى للقى ٢١ مخطوط .

(٥) مادة ستوق .

(٦) الديوان ١٧٢ والملاحى الكبير لأبن فتيبة ٤٦٨/١ واللسان مادة صنج .

(٧) الملاحى للقى ٢١ مخطوط .

أما الدف والكران والعود والمزهر فعربية الأصل ، نقلها الفرس عن العرب فيما بعد (١) .

وقد بقيت هذه الآلات إلى العصر الأموي ، وعزفت القيان عليها مثل سيرين وسلمى وجميلة ورائقة وعزة الميلاء (٢) .

٥- على أن الذى يتتبع أخبار ملوك الحيرة يجدهم يحاكون ملوك فارس في كثير من ضروب الأبهة ومظاهر الترف .

فقد حجبوا أنفسهم عن الشعراء بأستار كما كان يفعل ملوك الفرس ، نستدل على هذا من أن الحارث بن جلة أنشد عمرو بن هند قصيدته التى مطلعها :

آذَنْتُكَ بِبَيْنِهِ أَسْمَاءَ رَبِّ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر الملك برفع الستور ، استحسانا لما سمع ، وأدنى الشاعر وقربه (٣) .

٦- وإذا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء ، لأسماء الآلات الموسيقية الأجنبية قبل أن يبرز الإسلام ، ومن أن الغناء الفارسى والرومى كان معروفا لهم في الشام كما سمعه حسان بن ثابت ، لهذا رجحت أن بعض القيان كن فارسيات .

على أن التاريخ يحدثنا بأن الحارث بن كلفة قد تعلم العزف على

(١) المعاجم العربية و Steingass

(٢) الأثنان ٢/١٦

(٣) المدة ٢١/١ والشعر والشعراء ٥٣

العود بفارس واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلها (١) ، ثم سافر ابنه
النضر إلى فارس كما سافر أبوه ، وتعلم هناك أشياء جليلة القدر (٢) .

٤٢
أفمن حقنا إذًا أن نصحيح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب في فهمه
مذهبها آخر ، ذلك أنه ذكر أن ابن مُحَرِّز الفارسي الأصل شخص إلى
فارس وإلى الشام ، وتعلم الألحان ، وألف منها الأغاني التي صنعها في
أشعار العرب ، وهو الذي ابتكر غناء الرَّمَل ، وكان العرب والفرس
لا يعرفونه قبله ، لأن ابن سَلَمَك أول من غنى رملا بالفارسية أيام
الرشيد محاكيا لأستاذه ابن مُحَرِّز (٣) .

ثم ذكر أن سعيد بن مِسْجَع المكي الأسود أول من نقل غناء
الفرس إلى العرب ، لأنه تعلم هناك الغناء والضرب ، وتعلم بالشام
ألحان الروم ، ثم قدم الحجاز فعلم الناس محاسن تلك النغم (٤) .

وذكر في رواية ثالثة أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام
فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن
سُرَيْج والغريص (٥) .

أ وذكر في رواية رابعة : أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم
يبنون دوراً لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربي ثم صاغ
على نحوها (٦) .

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١

(٢) عيون الأنباء ١١٣/١

(٣) الأغاني ١٤٥/١

(٤) الأغاني ١٨/٣

(٥) الأغاني ٨١/٣

(٦) الأغاني ٨٤/٣

وهذه الروايات وإن اختلفت في ظروف نقل ابن مسجح للغناء الفارسي تتفق على أنه أول من نقله إلى الغناء العربي .

ويذهب في موضع آخر إلى أن سائب خاثر الفارسي الأصل أول من صنع مثل الغناء الفارسي في العربية ، وأنه أستاذ ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم (١) .

ثم يقف بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فيذهب بخدا بعض إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب في الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أقواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناي والعود والطنبور (٢) .

لكننا نلاحظ أن روايات أبي الفرج لا تلتقي على شخص معين يصح أن ينسب إليه السبق في إدخال الغناء الفارسي أو الرومي إلى العرب ، فهو مرة ابن مسجح ، ومرة ابن مخرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نُشَيْط ، وخامسة طويس (٣) .

ولست أنكر أثر الغناء الفارسي أو الرومي في العربي ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء الذين ذكرهم أبو الفرج كان لهم الفضل في تجديد ورده بالاناء الأجنبي ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما سبق — عرفوا الغناء الفارسي ، وعرفوا الغناء الرومي من قبل ، وأطربتهم به قيانهم ، ورددوا في لغتهم وشعرهم أسماء آلات وسيقية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

(١) الأغاني ١٧٩/٧

(٢) مقدمة خدا بخدا لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريم ٢٥ .

(٣) الأغاني ٣٨/٤

٧- كانت الخمر المعتقة ترد إلى العرب من جهات شتى ، ومن أهمها بابل ، لهذا نسبوا الخمر إليها ، قال لبيد في غزله :
 كَأَنَّ الشَّمُولَ خَالَطَتْ فِي كَلَامِهَا جَنِيًّا مِنَ الرُّمَانِ لَدُنَّا وَذَابِلَا
 لَدِيدًا وَمَنْقُوفًا بِصَافِي مُخِيلَةٍ مِنَ النَّاصِعِ الْمُخْتَوَمِ مِنْ خَمْرِ بَابِلَا (١)
 وكانت تأتيهم من عانة ، قال زهير :

كَأَنَّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ خَمْرِ عَانَةٍ لَمَّا يَعْدُ أَنْ عَتَقَا (٢)

ونسبها مالك بن جريم (حريم) الهمداني إلى فارس :
 كَأَنَّ جَنَا الْكَافُورِ وَالْمَسْكَ خَالِصًا وَبَرَدَ النَّدَى وَالْأَقْحَوَانِ الْمَنْزَعَا
 وَقُلْتُمَا قَرَّتْ فِيهِ السَّحَابَةُ مَاءَهَا بِأَنْبِيَاهَا وَالْفَارِسِيُّ الْمَشْعُشَا (٣)
 وكانت ترد من بيسان ، ذكر قيس بن عاصم التميمي أن تاجر
 الخمر كان يهجيء بها من بيسان فيبيع له ، وما يزال الخمر في جواره
 يبيع له حتى يستهلك ماله :

وَتَاجِرٍ فَاجِرٍ جَاءَ إِلَهُهُ بِهِ كَأَنَّ عُثُونَهُ أَذْنَابُ أَجْمَالٍ
 جَاءَ الْعُخْبِيثُ بِبَيْسَانِيَةٍ تَرَكْتُ صَحْبِي وَأَهْلِي بِلَا عَمَلٍ وَلَا مَالٍ (٤)
 ونسبها الأعشى إلى الفرس في قوله :

وِطْلَاءُ خُسْرَوَانِيٍّ إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغْنًى وَارْجَمَنَ (٥)

(١) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوف : مزوج مصق . مخيلة : صحابة مطرة .

(٢) اللسان ١٧/١٧٥ عانة : بلد على الفرات تلسب إليه الخمر العانية . اغتبتت : شربت الخمر بالعشى .

(٣) الأصمعيات ٥٨ الحنا : كل ما يجي . الأقحوان : نبت له نور أبيض . المنزع : المنزوع . القلت : النقرة في الجبل تمسك المساء . قرت : جمعت : الفارسي : المنسوب إلى فارس والمراد الخمر . المشعشة : الممزوجة بالماء . بأنبيائها : خبر كان

(٤) الأغاني ١٢/١٤٥ والأشربة ٥٨ مخطوط ، والمقد الفريد ٣/٣١٣ . العثون : الحية

(٥) الديوان ٣٥٩ . طلاء : خمر . خسرواني : نسبة إلى خسرو شاه . ارجمن : اهتز وتمايل .

ولهم فنون من الإيداع في وصف الخمر ومجالسها ونداماتها وسقاتها
وأثرها في النفس ، يهمننا منه قول الأسود بن يعْفَر النَّهْشَلِيّ إن الخمر
كان يسعى بها غلام مقرط مُنْطَق ، وإنهم كانوا يشترونها بديراهم
فارسية :

ولقد هوت - وللشباب للذاذة - بسلافة مزجت بماء غَوَادِي
من خمر ذى نطفٍ آغَنَ مُنْطَق وافي بها للراهم الإِسْجَاد
يَسْعَى بها ذو ثُومَتَيْنِ مَشْمَرٌ قَنَاتٌ أَنامله من الفِرْصَاد (١)

٨- وكان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس في الترف ومظاهر
النعمة والعظمة ، فقصورهم مؤثثة بأثمن الأثاث ، وحداثتها مستورة
بأعز الأزهار ، وقواربهم الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلا ،
حاملة أغنى الأمراء وأمهر الموسيقيين ، لهذا أطلق العرب لأنفسهم عنان
الخيال ، فقصوا علينا أبناء القصور الساحرة العجيبة التي أصبحت
أجمل مساكن الشرق وأطيبها (٢) .

وكان القصر الملكي في الحيرة ينطق بالثراء والرفاهية ، كما
كما يبدو في مدائح الشعراء .

وقد بقى القصران العظيمان الخَوْرَنْق والسَّيْدِر يستعملان بعض
الاستعمال ، وكانت بقايا الخورنق مأوى الراحلين للصيد إلى أوائل

(١) المفضليات ١٨/٢ الفوادي : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع نقطة بفتححتين
وهي القرط. منطوق : غلام عليه نطاق . الإِسْجَاد : السجود . وديراهم الإِسْجَاد هي دراهم الأكاسرة
كانت عليها صور يسجدون لها . ثومتين . لؤلؤتين . قنات : اشتدت حرمتها حتى مالت إلى
السواد . الفِرْصَاد : التوت .

(٢) حضارة العرب ١١٦ جوستاف لويون .

العصر العباسي (١) .

ونسب العرب إلى الفرس أنواعاً من الملابس ووسائل التجميل.

والزينة ، كقول عمرو بن الإطنابة في وصف قباهم :

إما همهن أن يتحلين ن سموطا وسنبلاً فارسية (٢)

وقول أبي دؤاد الأيادي :

لمن الظعن بالضحا واردات جدول الماء ثم رخن عشيته

مظاهرات رقما ثمال له العيد ن وعقلا وعقمة فارسية (٣)

وقوله أيضاً :

ويصنّ الوجوه في الميسناني كما صان قرن شمس عمام (٤).

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ٢٨٤ أوليري .

(٢) الأغاني ١٦٤/٩

(٣) معجم البلدان ١٥٠/٤ الرقم : ضرب من الخنز أو من الوشي مخطط . العقل : ثوب.

أجر يجلل به الهودج أو ضرب من الوشي . العقمة . يفتح العين وكسرها المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر .

(٤) الأصمعيات ٢١٤ الميسناني : نوع من الثياب منسوب على غير قياس إلى ميسان وهي.

كورة بين واسط والبصرة .

الفصل الثالث

أثر العرب في الفرس

ليس من الطبيعي أن تجتمع عوامل اتصال العرب بالفرس أحقاباً أطولاً ، فيتأثر العرب بالفرس هذا التأثير الذي أسبقته ، ثم لا يتأثر الفرس بالعرب .

لكن مظاهر تأثير عرب الجاهلية في الفرس لا يستطيع توضيحها ؛ لأن أدب الفرس قبل أن يسلموا مجهول ، وأدبهم بعد هو المذوّب المدرّس .

لهذا يبطلو عظمياً تأثير العرب وآثار الإسلام في لغة الفرس وآدابهم وثقافتهم ، كما سيوضح في فصل خاص .
على أننا نجد أثارة تللنا على أن العرب قبل الإسلام كان لهم في الفرس بعض التأثير .

(١)

ذلك أننا نقرأ في بعض كتب التاريخ العربية ما يدل على إعجاب الفرس بعرب الحيرة ، إذ يروون أن يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بهرام جُور إلى النعمان الأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، ويذكرون أن النعمان بنى الخورنق مسكناً لبهرام ،

وأنه كان يخرج إلى البادية (١) . وفي رواية أخرى أن الذي تعهد تربية بهرام هو المنذر بن النعمان (٢) ، لكن هذه الرواية لا تتمشى مع سنوات حكم المنذر (٤٣١ - ٤٧٣ م) وحكم يزدجرد ، إذ كان قد توفى قبل ولاية المنذر .

ويزيد بعضهم الأمر تفصيلاً ، فيذكر أن بهرام رضع من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلم على أساتذة من الفرس والروم ومن العرب ، ويقولون إنه أجاد اللغة العربية ، وقرض الشعر العربي . والفارسي (٣) . ثم يرتبون على هذه العلاقة الوثيقة نتيجتين تلامحاً :
أولاهما أن بهرام جور استعان بالعرب على أن يخلف أباه على عرشه فأعانوه ، إذ كان كثير من أشراف الفرس تعاقبوا - بعد وفاة يزدجرد - على ألا يملكوا أحداً من أشراف ذرية يزدجرد ، لسوء سيرته ، وقالوا إنه لم يخلف ولداً غير بهرام ، وإن بهرام لم يتول ولاية يختبر بها ، ولم يتأدب بأدب العجم ، وإنما أدبه العرب فصار أشبه بهم في أخلاقه ، واتفقوا على صرف الملك عنه إلى آخر (٤) .

ثانيتهما أن خصوم بهرام خشوا - بعد انتصاره عليهم ، وبعد توليه الملك - أن ينكل بهم ، فتوسطوا بالعرب ، ليتجاوز عن مسألتهم إليه ، فاستجاب بهرام ، وعفا عنهم (٥) .

ولقد يعزز ما ذكره مؤرخو العرب ، ويدفع الشك عنه ، ما ذكره محمد حوق وشمس الدين محمد الرازي .

(١) الطبري ٧٢/٢

(٢) الطبري ٧٤/٢

(٣) مروج الذهب ١٢٦/١ والتلخيص والإشراف ٨٨

(٥) الطبري ٨٧/٢

(٤) الطبري ٧٤/٢

أما محمد عوفى فقد ذكر فى (لباب الألباب) وهو أول كتاب فى تاريخ الأدب الفارسى أن بهرام جور أول من أنشأ شعراً بالفارسية ، وأنه تعلم الشعر من العرب ؛ إذ نشأ بينهم ، وعرف دقائق لغتهم ، وكان له شعر عربى بليغ .

ويضيف عوفى إلى ذلك أنه رأى ديوانه فى خزانة كتب فى بخارى ، وأنه قرأه ونقل بعضه ، وكانت به أبيات نظمها حينما رجع من الحيرة إلى فارس ، واستقر على سرير الملك بتأييد من العرب (١) .

وأما شمس الدين الرازى فيذكر فى كتابه (المُعْجَم فى معايير أشعار العجم) أن بهرام جور تربى فى الحيرة ، وتأدب بآداب العرب ، ويقول إن حماد بن أبى ليلى - الراوية - روى عن أهل الحيرة قطعاً من الشعر العربى لبهرام ، ثم يروى بيت بهرام الذى يزعم أن أول شعر فارسى ، ويقول : ورأيت فى بعض كتب الفرس أن علماء عصر بهرام لم ينكروا شيئاً من أخلاقه وأحواله إلا قول الشعر ، فلما بلغت إليه نوبة الملك ، واستقر له الأمر ، وتقدم إليه الحكيم آذرباد ونصحه قائلاً : أيها الملك اعلم أن قول الشعر من كبار معائب الملوك ، ودنى عاداتهم ؛ لأن أساسه على الكذب والزور ، وبناءه على المبالغة الفاحشة والغلو المفرط ، ولذلك أعرض عن الشعر العظماء من علماء الدين ، وذموه وعدلوا مهاجاة الشعراء من أسباب هلاك الممالك السالفة والأُمم الماضية ، فارعوى بهرام ، ولم يقل شعراً بعد ، ولا سمعه ، ونهى عنه أولاده وأقاربه (٢) .

(١) الأدب الفارسى الإسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب فى العالم ١/٤٨

(٢) المرجع السابق ١/٤٥٠

(٢)

وكان مؤرخو الفرس قد دوّنوا تاريخ العرب ، ثم استقى منه كثير من أرنخوا للعرب ، فالطبرى مثلاً يقول : « وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاية ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة منبعا لما كان. مثبتاً عندهم في كنائسهم وأشعارهم . وقد حُدِّثْتُ عن هشام بن محمد الكلبي أنه قال : إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم ، من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها (١) .

الكتاب الثاني في الإسلام الفصل الأول عوامل الاتصال

ما كادت أشعة الإسلام تنير جزيرة العرب حتى تخطتها إلى ما حولها ، فتعددت عوامل اتصال العرب بالفرس ، كما تعددت أسباب اتصالهم بغير الفرس .

ولإذا كان العرب قد اتصلوا بالفرس قبل الإسلام وتأثروا بهم أكثر مما أثَّروا فيهم ، فإن الصلات المتبادلة كانت في الإسلام أكثر أسباباً ، وأعظم آثاراً ، وأبقى دلائل ومظاهر ، لأنها كانت في العصر الجاهلي فردية وشبه فردية ، وكانت عاجلة وسطحية ، وكانت من جانب العرب وحدهم في الأعم الأغلب ، أما في الإسلام فإن الاتصال كان من العرب ومن الفرس معاً ، وكان الخلط جماعياً لا فردياً ، وعميقاً لا سطحيّاً ، وثابتاً طويلاً الأجل لا عابراً ولا قصير الزمن ، وقد كان منبع هذا كله فتح العرب بلاد الفرس .

(١) في مشرق النبوة

على أن الاتصال قد بدأ منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلمان الصحابي الجليل كان فارسياً من مدينة بناحية أصبهان ، وكان

أبوه دِهْقَانُ الْمَدِينَةِ (١) ، وكان سلمان مجوسياً يوقد النار ، ثم ارتحل إلى المدينة وأسلم ، وآخى رسول الله بينه وبين أبي الدرداء عويمر بن ثعلبة الخزرجي ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق بعد أن ساعده النبي والمسلمون على التحرر من الرق ، ثم لم يفته مشهد بعد (٢) .

ويقال إنه أشار على رسول الله بحضر الخندق حول المدينة لما هجم عليها الأحزاب ، وإن المهاجرين قالوا يوم الخندق : سلمان منا ، وإن الأنصار قالوا : سلمان منا ، فقال رسول الله : سلمان منا أهل البيت (٣)

وكان سلمان عالماً زاهداً روى عنه أنس وكعب بن عُجْرَة وعبد الله بن عباس وأبو سعيد وغيرهم من الصحابة ، وروى عنه من التابعين أبو عثمان ، وفي أخباره أنه تزوج امرأة من كِنْدَة ، وأنه كان يتصدق بعطائه ، وينسج الخوص ، ويأكل من عمل يده (٤) .

وفي السنة السادسة من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى كسرى بن هرمز ملك فارس مع عبد الله بن خُذافة بن قيس السهمي بدعوه فيه إلى الإسلام هذا نصه :

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ،

(١) الدهقان : الشيخ المارف بالفلاحة .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢٨/١

(٣) السيرة ٣٣٥/٣

(٤) الإصابة ١١٤/٣

يأتى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين .

فَأَسْلِمَ تَسْلَمًا ، فَإِنْ إِثْمَ الْمُجُوسِ عَلَيْكَ .

فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه ، وقال : أَيْكُتَبُ إِلَى هَذَا وَهُوَ عَبْدِي ؟
فلما علم رسول الله قال : مزق الله ملكه .

ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جُلْدَيْنِ ، وأرسله إلى .

فبعث باذان رجلين من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما على رسول الله وأعلماه بما يريدان ، وهلداه إن لم يستجب ، قال لهما إن الله قد سلط على كسرى ابنه — شيرويه — فقتله ليلة كذا من شهر كذا (١) ، فعادا إلى باذان فأخبراه ، فقال : ما هذا بكلام ملك ، وإني لأرى الرجل نبيا كما يقول ، فلننتظر ، فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره أنه قتل أباه غضباً للفرس ، ويأمره ألا يعرض بسوء للرجل الذى كان كسرى قد طلبه من الحجاز ، فأيقن باذان أن محمداً رسول الله حقاً ، وأسلم ، وأسلم الفرس الذين باليمن (٢) .

(٢) فتوح فارس

ضعف الفرس قبيل الفتح :

{ تفاقمت عوامل الضعف في فارس حتى استعصت على الإصلاح
منذ أواخر القرن الخامس الميلادى .

(١) قال الواقدي إنه قتلته ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع .

(٢) تاريخ الطبري ٩٠/٣ وسيرة ابن هشام ٦٤/١

فقد كان الشعب ينوء بالانقسام الدينى ، بين زرادشتية هى الدين
الرسمى للدولة ، رجالها يضطهدون الديانات الأخرى ، ومانوية تدعو
إلى الكسل والزهد والرهينة وترك الزواج ، ليفنى العالم المادى ،
ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، ومزدكية تحض على الشيوخ فى
الأموال والنساء ، ونصرانية يصطرع مذهبها النسطورى واليعقوبى ،
على حين أن الحكومة الفارسية تضطهد النساطرة واليعاقبة فى كل حرب.
تنشب بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية ، وكان هناك يهود وصابئة.
يقاسون ألواناً من الاضطهاد والتنكيل .

وكانت الحكومة قد أنهكتها الحروب المتوالية مع جيرانها وبخاصة
الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب ، والقبائل التركية فى الشرق ، وهذه
الحروب اقتضت ضرائب باهظة أثقلت الشعب .

ولم يستطع الشعب أن يعبر عن سخطه فى جو الحكم المطلق ، فنظام
الملك وراثى قائم على أن كسرى يملك بتفويض من الله ، والأكاسرة
منقطعون - أو شبه منقطعين - عن الرعية ، والشعب يدين بأن ملوكه
مختارون من الله ليتولوا سياسته ، ولهم على الناس السمع والطاعة ،
وليس عليهم حق لأحد من الناس .

يقول نولدكه : « إن الملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وحدهم
أصحاب الحق فى لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى » .
ويقول برؤن : « إن نظرية الحق الإلهى لم تعتنق كما اعتنقت فى
فارس فى عهد الملوك الساسانية » . ويوافقهما فى هذا الوصف دوزى.
وملر وغيرهما (١) .

(١) راجع أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ٣٤ .

وكان من نتائج ضعف الفرس أن انتصرت بعض القبائل العربية على جيشهم في موقعة ذي قار حوالى ٦١٠ م ، كما قدمنا في علاقة العرب بالفرس في الجاهلية ، وأن تعاقب على العرش الفارسى اثنا عشر ملكاً من رجال ونساء وصبيان وغاصبين للملك ، في عشر السنوات التى سبقت الفتح الإسلامى .

لكن العرب مازلوا يظنون بالفرس القوة التى عهدوها وسمعوا بها ، فلما آن لهم أن يفتحوا بلادهم تهيؤوا ؛ إذ جعل عمر بن الخطاب يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس ، « وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم » (١) . ثم استجابوا لعمر ومضوا إلى بلاد الفرس سراة .

سير الفتح

لما فرع خالد بن الوليد من إخماد ثورة المرتدين وجهه أبو بكر ومعه المشنى بن حارثة إلى العراق ، فأخضع القبائل العربية بجنوبي القرات ، ثم استولى على الحيرة والأنبار سنة ١٢ هـ . وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية ، فصمموا على الحرب . ثم توجه خالد إلى الشام ، فحدثت بين العرب والفرس وقائع انتصر المسلمون في بعضها ، وانهزموا في موقعة الجسر سنة ١٣ هـ ، ثم انتصروا في يوم البويب .

ولما دهم الفرس مآدهم ، اجتمع عظماءهم وأصلحوا ما بين رستم ومنافسه الفيرزان ، وأجمعوا على تولية يزيدجرد الثالث ، وتبارى المرازبة في طاعته ، وأعدوا العدة لطرد المسلمين من العراق .

حينئذ همَّ عمر أن يشخص إليهم بنفسه ، واستشار أصحابه . فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث إليهم الصحابة واحداً بعد آخر ، ويمدّه بالجنود ، فقبل مشورتهم ، واختار سعد بن أبي وقّاص ، وفدّه بعجيش بلغ نحو ثمانية آلاف ، والتقى الجيشان في القادسية (١) ، فانتصر المسلمون على الفرس بعد جهاد وجلاد ومصابرة . وقتل رستم سنة ١٦هـ (٦٣٧ م) وبعد ذلك فتح المسلمون المدائن عاصمة الفرس ، وهزموا الفرس مرة أخرى عند جلولاء ، فصار العراق ملكاً لهم .

ثم انساحوا في بلاد الفرس . وهزموهم في موقعة نهاوند ، سنة ٢١هـ وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح ؛ لأنها الموقعة الفاصلة التي كفلت للمسلمين الاستيلاء على فارس . وما زال المسلمون يطاردون يزيدجرد الثالث ، ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار ، إلى أن قتل سنة ٣١هـ في عهد عثمان بن عفان ، وبموته انقرضت دولة آل ساسان . كان من نتائج هذا الفتح أن انفسح المجال لتيارات اتصال الشعبين ، فصارت الخيوط التي كانت تصلهما في الجاهلية طرقاً فسيحة ممهدة ، وصارت العلائق الفردية روابط جماعية ، وأصبحت الصلات الموقوتة عرى دائمة .

آثار الفتح

حسبنا أن نذكر من نتائجه ونتائج الاتصال عدة مظاهر :

١ — مدن جديدة :

أسس العرب بين جزيرتهم وبلاد الفرس مدينتي البصرة والكوفة .

(١) موضع حل حافة البادية بالقرب من الكوفة .

ثم أسسوا فيما بعد مدينة بغداد (١) على نهر دجلة بالقرب من فارس ، وسرعان ما امتلأت هذه المدن وغيرها بمهاجري العرب من يمنية ونزارية ، وشريقية بالوافدين عليها من الفرس ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدن ، وصارت من مراكز الثقافة العربية والإسلامية .

كذلك انتشر الفرس في بلاد الجزيرة وما حولها ، واندمجوا بالعرب واستعربوا .

٢ — إقبال الفرس على الإسلام :

أقبل كثير من الفرس على اعتناق الإسلام أحراراً مختارين ، في غير ما إجبار ، أو اضطراب ، لأن المظالم التي اصطَلوا بنيرانها قبل الإسلام حُببت إليهم أن يقبلوا سراعاً على اعتناقه فكفل لهم المسلمون حريتهم الدينية ، وعاملوا أتباع الزرادشتية معاملة أهل الكتاب ، فقبلوا منهم أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

٣ — إقبالهم على اللغة العربية :

وإذ كانت اللغة العربية لغة الدين الذي آمن به كثير منهم ، ولغة الفاتحين الذين يتصلون بهم ، تسابق كثير منهم إلى تعلمها ، وسرعان ما أجادها بعضهم ، وكانوا قلوباً لمن بعدهم ، حتى صار كثير من مشهورى الشعراء والكتاب والعلماء باللغة والدين من أبناء الفرس .

٤ — خضوعهم للحكم العربى :

اتسعت دائرة الخلافة الإسلامية ، وكثرت خيواتها ، إذ ضم

(١) اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم سنة ١٣٢ هـ . وكانوا يقيمون أحياناً بالهاشمية شمال الكوفة ، وأحياناً بالأنبار ، فلما أنشأ المنصور بغداد سنة ١٤٩ هـ وجعلها العاصمة بدأت الكوفة تفقد مركزها السياسى ، لكنها بقيت مدة طويلة مركزاً للثقافة . وكانت البصرة مملوكة بالأعاجم من فرس وهنود ويونان ، يعملون في التجارة والملاحة ، ولهذا هو السبب في أنها كانت المنبع الأول للاحتكاك الدينى في العقائد ، حيث نشأت الفرق الدينية كالمعتزلة .

لورد على أصحاب الملل القديمة الذين تهجموا على الإسلام .

للمسلمون مملكة كبيرة كثيرة الخيرات إلى حوزتهم ، وملكوا كنوز الفرس ، وما أعظمها ، فصار هذا الثراء من روافد الترف الذى سنتحدث عنه .

٥ - التمازج :

جعل الخلاط يقوى شيئاً فشيئاً منذ الفتح إلى آخر العصر الأموى ، فلما قامت الدولة العباسية - وكان للفرس ضلع فى إقامتها - توثقت الصلات بالمخالطة والمجاورة والمعاشرة والمصاهرة ، فكثرت من أبناء العرب من أمه فارسية ، ومن أبناء الفرس من أمه عربية .

وزاحم الفرس العرب فى الوزارة والحجابه وقيادة الجيوش وجباية الأموال وولاية الأقاليم ومنادمة الخلفاء ، ثم غلبوهم عليها .

وكان من ثمرات هذا كله أن تأثر العرب بالفرس فى كثير من أساليب الحكم ومظاهر الحياة ، حتى إن خلفاء بنى العباس كانوا حراساً على معرفة تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، وكان بعضهم يصطحب معه من يقص عليه تاريخهم ، كما كان السفاح يصطحب أباً بكر الهذلى ويستمع إليه ، وكما طلب المنصور - حينما هم بقتل أبى مسلم ، وتردد بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق ليلته - من إسحاق بن مسلم العُقيلي أن يحدثه حديث الملك الفارسى سابور الأكبر الذى قتل وزيره (١) .

٦ - مؤازرة الفرس العباسيين :

لما هبَّ محمد بن عبد الله بن العباس يدعو لآل العباس ، ويقوض دعائهم الملك الأموى اتخذ خراسان مجالا لبث دعوته ، وكان اختياره موفقاً ، لأن أكثر من بالشام والعراق وجزيرة العرب كان هواهم أمويّاً ،

ولأن في خراسان - كما قال محمد العباسي - « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنزعها النحل ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ... وإلى آتفاعل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح المخلق » .

ولما وجه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان سنة ١٢٨ هـ قال له : « يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فإتهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ، وإن استطعت ألا تدع في خراسان لساناً عربياً فافعل ، فأما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله (١) » .

ومعنى هذا أنه يعتمد على الفرس وعلى من بها من العرب اليمنية ، وينظر إلى العرب الآخرين هناك نظرتهم إلى العدو ، ويود أن يقضى عليهم ليباغ ما يريد .

ثم إن الفرس كانوا حانقين على العرب عامة ، وعلى بني أمية خاصة .

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأي من أبناء الفرس قد تطلعوا في أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تقربهم وترفع من أقدارهم ، فقد كان الفرس يتخللون التشيع لعل وآل بيته لوناً سياسياً ، إذ كانوا

قد وثقوا بأنه من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي وحريتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن بد من أن يصلوا إلى السلطان من طريق الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد أيام بني أمية ، فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفًا سياسية خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني علي ، فلان الفرس ومرنوا وآزرُوا بني العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم في مذهبهم العلوي قوم لقوا في سبيل هذا المذهب منايهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً (١) .

ولم يكن ذلك الأمل الذي راود الموالى بخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر بن سيار - والى خراسان في عهد هشام الثاني - يدعو الغرب إلى الوحدة ، ويهيب بالنزاريين والبانين أن يتآخوا ، ليتقوا الهلاك الذي يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفلتهم عن أولئك الأعداء :
أبلغ ربيعة في مَرِّهِ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
وليتصبوا للحرب إن القوم قد نصبوا حرباً يُحرق في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجاج عن رأيكم عزب (٢)
وتتبركون عدواً قد أظلمكم ممن تآشب ، لا دين ولا حسب (٣)

(١) حديث الأربعماء للكتور طه حسين ٢٢٧/٢ .

(٢) تلقحون : المراد تكثر ونولدون . الحجا : العقل . عزب : جمع أعزب وهو البعيد جداً .

(٣) تآشب : تجميع .

قوما يدينون ديننا ماسمعتُ به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب
ويظهر أن نذير الخطر نبه العرب المتعادين إلى أن يتحدوا ليدفعوا
الهلاك النازل بهم ، فقد توادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن
على التعاضد وقتال أبي مسلم الخراساني ، لكن أبا مسلم وأعوانه فوتوا
عليهم هذه الوحدة ، وأشعلوا نار الفتنة من جديد (١) .

والعجب أن كان في أعوان أبي مسلم اليمنيون والرَّيْعِيُّونَ ، وأن كان
في النقباء كثير من العرب كقحطبة الطائي ، وقد رويت له خطبة في
أهل خراسان يحسمهم فيها على الثورة ، ويذكرهم بعظمتهم السابقة ،
ويحقر من شأن العرب ، كقوله : « هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين .
وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لعلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلموا ،
فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة
كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ... ثم بدّلوا وغيروا وأخافوا
أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم الله
عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم
بالشار (٢) » .

ولما كانت زعامة الشيعة قد آلت إلى محمد بن علي بن عبد الله
ابن العباس . نشط إلى ترويج الدعوة السرية ، إذ عين للشيعة نقباء
ودعاة ، وأوصاهم ببث الدعوة سرا ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة
من غير تعيين لفرد .

(١) تاريخ ابن خلدون ١١٩/٢ ، ١٤١/٣

(٢) الطبري ٩٨/٩ - ١٠٦ .

وكان للدعوة مركزان : أحدهما الكوفة ، وهي ملأى بالموالى من
الفرس ، وملأى بالشيعة ، وكانت عاصمة الخلافة زمن عليّ ، والآخر
خراسان ، وهي ساخطة على بنى أمية كما تقدم .

وقد جاب الدعاة البلاد منذ أوائل القرن الثاني ، يمارسون التجارة
في الظاهر ، ويبشون الدعوة في السر ، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين
عاماً .

وكان ولاية بنى أمية في خراسان يطاردونهم وينكلون بهم ؛ حتى إن
أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان كان إذا ظفر بأحدهم قطع يديه
ورجليه ، وصلبه ، لكنهم مضوا في دعوتهم على الرغم مما ينصبّ عليهم
من حثوف .

وكان البيت المرواني قد أصيب بالتفكك والضعف ، وجعل كثير
من الأمراء وولاة العهود يكيد بعضهم لبعض ، وكانت الفتن والثورات
تتفاقم ، حتى إن عهد آخر بنى أمية - وهو مروان بن محمد - زلزلته
ثورات الولاة عليه في أنحاء اللولة ، وزلزلته دعوة الشيعة في كل مكان ،
وهزته ثورة بقايا الخوارج بزعامة الضحّاك الشيباني .

وبدل مروان جهوداً في إخماد هذه الثورات ، فانتصر على كثير
منها ، لكنه شغل عما كان يحدث في خراسان ، فاتسع المجال هناك
للشيعة ، واستطاع دعاة بزعامة أبي مسلم الخراساني أن ينتزعوها من
بنى أمية ، مستندين إلى العصبية القومية والحزبية الشيعية ، ومنتهزين
الشقاق بين القبائل العربية ومؤازرة اليمنية لهم ، ثم اتجهوا إلى العراق .
واستولوا عليه ، وأعلنوا الدعوة لبنى العباس ، وبويح أبو العباس
عبد الله الملقب بالسفاح سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) بالكوفة ، ثم انتصر

على مروان بن محمد في العام نفسه ، فهرب مروان إلى مصر ، فتعقبه صالح بن علي ، وقتله في قرية بوضير آخر سنة ١٣٢ هـ . وبقتله تقوضت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية .

إشادة العباسيين بهم :

لم يَغْمِظْ بنو العباس فضل الفرس في قيام دولتهم ، بل جاهدوا به مرات . قال داود بن علي في خطبته يوم بويع السفاح بالخلافة : « يا أهل الكوفة ، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجبتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبَيَّضَ به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وعز الإسلام .. إن لكل أهل بيت مِصْرًا ، وإنكم مِصْرُنَا (١) . »

وخطب أبو جعفر المنصور في أهل خراسان فقال : « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا » ، وبعد أن عدد مالاقي العلويون وبنو هاشم من اضطهاد قال : « حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فَقَرَّ الحق مَقَرَّهُ ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

ولم ينس أن يوصي ابنه وهو شاخص إلى الحج سنة ١٥٨ هـ بأهل خراسان في قوله : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ؛ فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ، ومن لا يخرج

(١) تاريخ الطبري ١٢٧/٩ أفلج حجبتنا : وضعتها وقواها

محببتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن سيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده (١) .

فإذا ذهبنا نستشهد بأقوال المؤرخين وجدنا كثيراً من نوع هذا الاعتراف ، فالمسعودي يذكر أنهم كانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة ، لأن الدولة العباسية أقبلت من خراسان (٢) .

والجاحظ يقول : دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية .

٧ — مؤازرتهم للمأمون على الأمين :

ثم ناصرُوا المأمون على أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد قد عهد بولاية العهد إلى أبنائه الثلاثة معاً : الأمين والمأمون والقاسم ، ثم قسم البلاد بينهم ، فجعل الشرق للمأمون — خراسان والرى إلى همدان — وجعل الغرب للأمين — المغرب ومصر والشام — وجعل للقاسم الذي سماه المؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم .

وهو بذلك ألقى بأسهم بينهم ، وغرس شجرة الشر بيده ، فتمحقق ما قاله الشاعر (٣) :

رأى الملك المهدبُ شرَّ رأيٍ لقسمته الخلافة والبلاد
نقد غرسَ العداوة غير آل وأورث شملَ ألفتهم بدادا (٤)
وألقَحَ بينهم حرباً عواناً وصلَّسَ لاجتنابهم القيادا

(١) الطبري ٣١٩/٩ .

(٢) مروج الذهب ١٨١/٢ .

(٣) الطبري ٧٣/١٠ .

(٤) البداد يفتح الباء المباشرة والمراد هنا الضلوة .

فَوِزُّ بِلَاهِم أَبدا عليه أَعْيَا كان ذلك أم رشادا
 لكن الأَمِين أراد أن ينحى أخاه المأمون فعزز المأمون مركزه بخراسان ،
 وقرب إليه الأشراف ورؤساء العشائر ، فسرب به أهل خراسان وعاضدوه
 وناصروه وقالوا : ابن أختنا - إذ كانت أمه فارسية الأصل - وابن عم نبينا .
 وتواترت كتبه إلى أخيه محمد الأَمِين بالتعظيم والهدايا ، لكن
 البطانة أشعلت جلوة الحقد بين الأخوين ، فأعلن الأَمِين خلع أخيه ،
 فكان ردّ المأمون أن أعلن نفسه خليفة ، وقامت الحرب بينهما ،
 وانتهت بانتصار المأمون وقتل الأَمِين سنة ١٩٨ هـ .
 يرى موير أن انتصار المأمون على الأَمِين يماثل انتصار العباسيين
 على الأمويين ، لأن كليهما انتصار للفرس على العرب .
 ثم ازداد نفوذهم في عهد المأمون إذ كانوا أعوانه على الأَمِين ،
 وكان يجهز بإيثارهم ، فقد تعرض رجل له بالشام مراراً فقال له :
 يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ،
 فقال : « أكثرت عليّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل
 إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد . وأما اليمن فوالله
 ما أحببتها ولا أحببني قط ، وأما قضاة فسادها تنتظر السُّقْيَانِي وخروجه
 فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ،
 ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً ، اعزّب فعل الله بك (١) » ١١ .
 ثم لم يلبث الترك أن سيطروا على شؤون الخلافة في عهد المعتصم ، إذ
 استكثر من الترك ، وآثرهم على الفرس ، فنكل الترك بالفرس والعرب معاً .
 (١) الطبري ٢٩٦/١٠ الشاربي : الخارجي . السفياي مثل المهدي المنتظر الذي تنتظره الشيعة
 (راجع أدب السياسة في العصر الأموي) .

(تيارات ثقافية)

الفصل البشاني

آثار الفرس في الإدارة السياسية

غلبة الصيغة العربية أول الأمر :

قامت الدولة العباسية مستندة إلى عصبيتها من الموالى الذين آزروها واصطفتهم ، وكان منهم أكفاء في شؤون الإدارة والسياسة ، لا يعيب كثيراً منهم إلا طموحهم إلى استعادة مجد الفرس وحكمهم . على أن الدولة العباسية لم تتغافل عن عروبيتها في إبان قوتها . بل اعتمدت عليها لتتقن بها أولئك الفرس المتطلعين إلى إعادة ملكهم ، فاصطنعت كثيراً من رجال العرب من ربيعة ومُضَر واليمن ، لكن بنى العباس لم ينتبهوا إلى ما بين القبائل العربية من بغضاء وقَرْتها نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولعلمهم انتبهوا إلى هذه البغضاء ، لكنهم ارتضوها ليستعينوا بفريق على فريق ، ولو أنهم جدُّوا في إزالة ما بين القبائل العربية الموالية لهم من خصومة وحزاة لوجدوا فيها ملجأهم الأمين ، ودرعهم التي تقيهم هجمات الموالى من فرس ومن ترك .

حقاً إن الفرس كانوا أصحاب نفوذ عظيم في العصر العباسي الأول ، لكنه لم يَطغَ على سلطان الخلفاء كما حدث من الفرس ومن الترك في العصر العباسي الثاني ، فقد كان خلفاء بنى العباس في العصر الأول ما زالوا يعتزون بعروبيتهم ، ويحرصون على سلطتهم ، لهذا لم يتوانوا في التنكيل بالفرس إذا ما تخوفوهم على الخلافة أو على الخليفة ، فالسفاح قتل وزيره الفارسي أبا سلمة الخلال ، والمنصور قتل قائده الفارسي

الكبير أبا مسلم الخراساني ، ثم جاء الرشيد ففتك بالبرامكة ، وجاء المأمون فقتل وزيره الفارسي الفضل بن سهل .

كان الوزراء في العصر العباسي الأول أكثرهم من الفرس ، وكان القواد من العرب ومن الفرس ، وكذلك ولاية الأقاليم ، وكان جند المنصور من أربع فرق : ثلاث من العرب ورابعة من الفرس (١) .

ومعنى هذا أن العرب مازالوا يحتفظون بكثير من نفوذهم ، وأن الحكم لم يصنطغ بالصبغة الفارسية التي لونه في العصر العباسي الثاني ، وإلا ما اشتهر أمثال القواد من العرب : معن بن زائدة الشيباني ، وسعيد بن مسلم الباهلي ، والمهلب بن أبي صفرة ، وأبو دؤلف العجلي ، وروح بن حاتم بن قبيصة ، وثمامة بن أشرس .

(١) الوزراء

كان العرب في الجاهلية وفي العصر الإسلامي يعرفون كلمة وزير ، لكنهم لم يريدوا بها المعنى الاصطلاحي الذي عرفوه في العصر العباسي والذي نعرفه اليوم ، وإنما أرادوا بها النصير والمشير ، فكان للنبي وللخلفاء الراشدين ولبنى أمية أعوان ومستشارون يقومون بأعمال الوزراء ، ولم يُطلق على واحد منهم لقب وزير .

وهي بهذا المعنى وردت في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام في قوله تعالى : « واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخى ، أشدُّ به أزرى ، وأشرَّه في أمرى » . (٢)

(١) الطبري ٢٨٢/٩

(٢) سورة طه ٢٩ - ٣٢

أما في العصر العباسي فعرفوا المعنى السياسي للوزير ، كما كان الفرس يعرفونه ، إذ أطلقوه على من يقوم مقام الملك أو الخليفة في تصريف شؤون الدولة ، يقول ابن خلكان (١) إن أبا سلمة الخلال أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يُعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها .

وقد كان أبو سلمة وزيراً لأبي العباس السفاح ، وهو أول من اتخذ لنفسه وزيراً من الفرس ، فلما قتله استوزر فارسياً آخر هو خالد البرمكي ، وما زال خالد وزيره حتى مات السفاح وتولى أبو جعفر المنصور ، فعينه والياً على إقليم فارس ثم الموصل .

وكان للمنصور وزيران أحدهما عربي هو ابن عطية الباهلي ، والاخر فارسي هو أبو أيوب المورياني الخوزي ، ثم جاء المهدي فاستوزر يعقوب ابن داود .

وأما الرشيد فقد استوزر يحيى بن خالد البرامكي ، وفوض إليه تفويضاً كاملاً أن يُصَرِّفَ شؤون الدولة قائلاً : « قد قلدتك أمر الرعية » ، وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى (٢) . ولم يلبث أن دفع إليه خاتم الخلافة ، فاجتمعت له الوزارتان ، فصار هما وبكرمه موئل القاصدين .

وكان أولاده الخمسة وبنوهم رؤساء بالدولة في عهد الرشيد ، ثم

(١) وفيات الأعيان ١/١٢٩

(٢) الوزارة والكتاب الجهشيارى ١٣٤

تنازل يحيى عن الوزارة لابنه جعفر ، ولم يأفل نجم البرامكة إلا حينما أوقع بهم الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

ثم استوزر المأمون الفضل والحسن ابني سهل ، وثابت بن يحيى .
الرازي ، وكان كل وزير من هؤلاء وغيرهم يحشد في الدواوين من يستطيع حشده من بنى جنسه .

وتجلى هذا منذ عهد المنصور، إذ بدأ الفرس يكثررون في الوظائف ، ويحلون في مناصب يجب أن يحل فيها العرب ، حتى يقال إنه أول خليفة استعمل مواليه وغلماؤه وصرفهم في شؤونهم ، وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده . فزالت رئاسة العرب ، وضاع بأسها ، وذهبت مراتبها (١) ، حتى إن شيخاً أعرابياً استأذن ليدخل على أبي جعفر المنصور فلم يؤذن له ، على حين أن الخراسانية تدخل وتخرج فتسخر به ، فقال له رجل يعرفه : كيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة ؟ فقال الأعرابي (٢) :
أَكْثَرُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ لَا يُدْرَى مِنْ أَى خَلْقِ اللَّهِ حِينَ يُلْقَى .
وَحَلَّةٌ تُنْشَرُ ثُمَّ تُطَوَّى وَطِيلَسَانٌ يُشْتَرَى فَيُغْلَى
لِعَبْدٍ عَبْدٍ ، أَوْ لِمَوْلَى مَوْلَى يَا وَبِحَ بَيْتِ الْمَالِ مَاذَا يُلْقَى .

كان الوزير ينوب عن الخليفة في تصريف شؤون الدولة كلها دون توجيه منه ، أو ينفذ ما يملكه الخليفة عليه ، وذلك أن الوزارة في العصر العباسي كانت نوعين : النوع الأول وزارة التنفيذ ، وهي التي يقتصر فيها الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة ، فهو إذن وسيط بينه وبين الموظفين والشعب ، والنوع الثاني وزارة التفويض ، وهي التي يعهد فيها

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٣٩ - ١٥٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٠٠

ومروج الذهب ٤٠١/٢

(٢) الأغاني ١٤٨/١٨

«الخليفة إلى الوزير بالنظر في شؤون الدولة والتصرف فيها بغير رجوع إليه ، وليس للخليفة إلا تولية العهد ، وعزل من يوليهم الوزير ، وكان يحيى بن خالد البرمكى وزير تفويض الرشيد ، ثم خلفه ابنه جعفر . وإذ كان منصب الوزارة منقولا عن الفرس اتسم بعدة مظاهر فارسية ، فكان الذى يختار للوزارة يرتدى زيا خاصاً ، ثم يمثل بين يدي الخليفة فى حفل رسمى ، كما كان الفرس يفعلون .

وكان الوزراء الفرس يحاكون سلفهم فى بعض المظاهر التى لا عهد للعرب بها ، فالفضل بن سهل يقعد على كرسى مُجَنَّح ، ويحمل فيه عند دخوله على المأمون ، فإذا اقترب من المأمون وقعت عينه عليه وُضع الكرسى ، وترجل الفضل ، وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود إلى كرسيه فيقعد عليه ، وهو فى ذلك يذهب ملهـب الأكامرة (١) .

وهو الذى أقنع المأمون بأن يستبدل بالسواد — شعار العباسيين — المخضرة ، ويكتب إلى عماله أن يجعلوا أعلامهم وقلانسهم خضرا ، وقد كانت المخضرة شعار كسرى والمجوس (٢) .

وإذا كان خلفاء بنى العباس قد حرصوا على عربيتهم واستندوا إليها فى أول أمرهم ، فقتل بعضهم وزراءهم من الفرس ، فإن هذا يدل على أمر آخر هو سريان النفوذ الفارسى والخوف من عواقبه ، وحسبنا أن نوجز البواعث التى حملت الرشيد على الفتك بالبرامكة ، لنستبين الدلائل على نفوذهم ، وعلى حنقه من سلطانهم .

(١) الوزراء والكتاب ٤٠١

(٢) انظر السابق ٣٩٦ .

ونعجن نستبعد من هذه البواعث ما زعمه بعضهم من علاقة العباسية بنت المهدي أخت الرشيد بجعفر البرمكي وزواجه بها سرا ، لأنها قصة بينة الاختراع والاختلاق ، ونرى أن أقرب تعليل إلى الصواب هو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، فقد فُتد قصة العباسية ونفاها ، وانتهى إلى أن الفتك بالبرامكة كان نتيجة لأسباب شتى ، من الممكن حصرها في استئثارهم بالسلطة والنفوذ واستمالة الناس واجتذاب الأشراف ، واغترارهم بما نالوا من ثراء وجاه ، وإسرافهم في العطايا والهبات ، وتغافلهم أو غفلتهم عما للخليفة من حقوق وسلطان ومظهر واجب المراجعة .

يقول ابن خلدون : إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ، يقال إنه كان بدار الرشيد ن ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة . . . فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقُصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وصيرت إلى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية .

وأفاضوا العطاء في رجال الشيعة وعظماء القراية ، وطوقوهم المنن ،
وكسوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومُدِّحوا بما لم يمدح
به خليفاتهم ، وأسنوا الجوائز لعُفَاتِهِمْ (١) ، واستولوا على القرى
والضياع ، حتى آسفوا البطانة ، وأحققوا الخاصة ، وأغضبوا أهل
الولاية ، فكُشِفَتْ لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير
عقارب السعاية

ولقد رويت أخبار شتى عن سرفهم وثرانهم وسفههم في العطاء فيها
مبالغات ، منها قول معاصري خالد البرمكي : لم يكن يُرى لجلس خالد
ابن يحيى البرمكي دار إلاً وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلاً وخالد ابتاعها
له ، ولا ولد إلاً وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت
حرة ، ولا دابة إلاً وخالد حملة عليها إما من نتاجه أو من غير نتاجه (٢)
وقال الرشيد وهو يسمع ضجة في مجلس يحيى بن خالد : ما هذا ؟
ف قيل : يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به
وفعل ، يذمه ويسبه ، استبد بالأمور دولي ، وأمضاها على غير رأيي ،
وعمل بما أحبه دون محبتي . وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته
أكثر مما يثلبه أحد (٣) .

(٢) بيوت للذن

لم يعرف في صدر الإسلام والدولة الأموية نظام البيوت الخاصة
بالاستئذان على الخلفاء ، وكان بنو أمية يقيمون في قصورهم ، ويقف
الناس على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو ينصرفوا .

(١) المغاة : جمع عاف وهو طالب العطاء

(٢) الوزراء والكتاب ١٧٣ .

(٣) الوزراء والكتاب ١٧٨

فلما تولى بنو العباس ، وبَنَى المنصور قصره جعل فيه بيوتاً
للأذن ، فجرى خلفاؤه على سنته .

(٣) المنجمون

كذلك جَدَّ المَنَجِّمون ، وكان لهم شأنٌ في الدولة العباسية ورأى .
أحياناً في توجيه السياسة وفي الحروب ، وهم الذين أشاروا على المعتصم
بتأجيل فتح عَمُورِيَّة إلى أن ينضج التين والعنب ، لكنه خالفهم ،
وانتصر ، فسخرهم أبو تمام في قوله (١) :

السيف أصدق أنباء من الكتبِ في حَدِّ الحدِّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائح لا سودُ الصفائح في
متونهن جلاء الشكِّ والريبِ (٢) .
والعلم في شُهَب الأرماح لامة

بين الخميسين لافي السبعة الشهبِ (٣) .
أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب
تَخَرَّصاً وأحاديثاً مَلْفَعةً ليست بنبعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ (٤) .
ثم هزىء بتكهنهم قبل ذلك فقال :

وخوَّفوا الناس من دهيةٍ مُظلمةٍ إذا بدا الكواكب الغربي ذوالدَّنبِ (٥) .

(١) الديوان ٤٥/١

(٢) بيض الصفائح : المراد السيف .

(٣) شهب الأرماح : أسننها . السبعة الشهب : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة
وعطارد والقمر . الخميس : الجيش .

(٤) التخرص : السكذب . النبع : شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال تتخذ منه القسي .

الغرب : شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة .

(٥) دهية : داهية . كانوا قد زعموا أن طلوع ذلك الكوكب فتنة عظيمة وتغير وملاك .

«وصيِّروا الأبرجَ العليا مُرتَّبَةً ما كان منقلباً أو غير منقلَب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة مادار فى فَلَكَ منها وفى قُطْب
الو بَيَّنَّتْ قُطْ أمرا قبل موقعه لم تُخَفِ ماحلَّ بالأوثان والصلْب

(٤) نظام البريد

كلمة البريد لها عدة معان :

أولها الرسول أو الشخص الذى يحمل الرسائل ، جمعه بُرْد ، وفى
الحديث الشريف : لا أَخْبِسُ بالعهد ، ولا أَخْبِسُ البُرْد ، أى لا أحبس
الرسول الواردين إلى ، وقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أبردتم إلى بريد
فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم .

وثانيها الدابة التى تحمل البريد .

وثالثها مسافة معينة بين سكتين أو منزلتين من منازل البريد قدرها
أربعة فراسخ أو فرسخان ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف
ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ظهر إحداها لبطن الأخرى ،
فالبريد إذن ثمانية وأربعون ألف ذراع .

ورابعها الرسالة نفسها .

فأصل هذه الكلمة :

١ — ذهب الزمخشري إلى أن كلمة بريد فارسية أصلها (بريده دم)
أى محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت عند الفرس محذوفة

(١) مرتبة . بكسر التاء أى مدبرة . الأبرج العليا : بروج السماء التى أولها الحمل
وآخرها الحوت .

(٢) لسان العرب وتاج العروس مادة برد

الأذنان علامة لها ، ثم سمي الرسول الذي يركبها بريدا ، وسميت المسافة التي بين السكتين (١) بريدا (٢) .

لكنني لم أجِد في أساس البلاغة للزمخشري هذا النص .
وذهب إلى مثل هذا ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث) (٣) .

كذلك يذكر (المعجم في اللغة الفارسية) أن البريد هو القاصد أو حامل الخطاب ، وأنه نقل إلى العربية (٤) .

٢- لكنني أرجح أنها عربية الأصل لأن مادة (برد) قديمة متنوعة في المعاجم العربية ، ولأنها دلت على الرسول بين اثنين منذ العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، قبل أن يتصل العرب بالفرس ذلك الاتصال الذي مكنهم من نقل نظام البريد المرتب على البغال

وحسبنا قول امرئ القيس :

على كل مقصوص الدُّنَابيَ معاودٍ بريدَ السُّرَى بالليل من خيل بَرَبْرَا
فهو يذكر هنا الحصان أو البغل المقصوص الدليل المستخدم في سُرى الليل من خيل البربر .

وقول مُزَرَّد بن ضِرار يمدح عَراة الأوسى :

فهرتك عرابَ اليوم أُمى وخالتي وناقتي الناجى إليك بريده
أى فدتك أُمى وخالتي وناقتي المسرعة إليك سيرا في البريد .

(١) السكة موضع يقيم به أشخاص مرتبون معهم بغال .

(٢) تاج العروس ولسان العرب مادة برد .

(٣) صبح الأعشى ٣٦٧/١٤

(٤) المعجم في اللغة الفارسية الدكتور محمد موسى هندأوى .

نظام البريد :

كان للفرس نظام معين للبريد هو تقسيم المسافات إلى مراكز ، وفي كل مركز أشخاص وبغال ، فيحمل الشخص رسالة ويركب بغلا من بغال البريد ، ويسرع به ، فإذا ما وصل إلى الموضع الخاص بالبريد في طريقه سلم له الرسالة وعاد ، وينقلها هذا إلى ثالث ، وهكذا .

وقد نقل العرب عن الفرس هذا النظام ، وذكر أبو هلال العسكري في كتابه (الأوائل) أن أول من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ، وعرفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد .

وقيل إن هذا حدث في زمن عبد الملك بن مروان بعد أن انتصر على خصومه .

لكن أبا هلال العسكري ذكر أن عبد الملك أحكمه .

وقد روى عنه قوله لابن الدغيدغة : وليتك ماحضر باني إلا أربعة : المؤذن فإنة داعى الله تعالى ، فلا حجاب عليه ، وطارق الليل ، فشر ما أتى به ، ولو وجد خيرا لنام ، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة ، والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب ، وارفع الحجاب ، ونخل بين الناس والدخول (١) فلما جاءت الدولة العباسية كان للبريد ديوان في بغداد ، وله محطات كثيرة على طول الطرق ، لنقل الرسائل بين الخليفة وعماله في الأقاليم .

ثم صار صاحب البريد يراقب الولاية ويتجسس على الأعداء ،
وينقل الأخبار إلى الخليفة ، فهو عينه التي يبصر بها ما بعد عنه .

قال أبو جعفر المنصور : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى
أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، فقليل له : من هم يا أمير
المؤمنين ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح إلا بهم ، كما أن السرير
لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، أما أحدهم فقاوض لا تأخذه في الله لومة
الائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث
صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غنى ، والرابع
(ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة آه آه ،
قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىي يخبر
هؤلاء على الصحة » (١) .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر
الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى الوالى : « ثكلتك أمك ، وعدمتك
عشيرتك ، ماهذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟
إننا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ،
سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان ابن فلان ، والحق بأهلك مذموما
مدحوراً » (٢) .

وكتب صاحب البريد إلى هارون الرشيد يذكر له أن الفضل بن
يحيى البرمكى واليه على خراسان تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في
أمور الرعية ، فلما قرأ الرشيد الكتاب رمى به إلى يحيى البرمكى ليقراه .

(١) تاريخ الطبرى ٢٩٧/٩ ، ٣٤١

(٢) مروج الذهب ٢٣٢/٢

— ١١٠ —

وليكتب إلى ابنه الفضل كتابا يردعه عما هو فيه (١) .
وفي كتاب صبح الأعشى للقلقشندي تفصيل لأطوار البريد
وأحواله في مختلف العصور (٢) .

(٥) السيف

لم يكن العرب يعرفون هذه الوظيفة أيام النبي والخلفاء الراشدين
أو بني أمية ، فلما اتصلوا بالفرس نقلوها عنهم ، لأنها وظيفة فارسية .
قدمة .

(١) معجم الأدباء ٨/٢٠

(٢) صبح الأعشى ٣٦٦/١٤ - ٣٨٨

الفصل الثالث

آثار الفرس في العادات

حرص الأمويون وولاتهم على الصبغة العربية ؛ فكان تأثرهم بالفرس بالروم إلى الحد الذي لا ينقلهم إلى أن يكونوا أشبه بهم ، فقد أولم الحجاج في ختان بعض ولده ، فسأل بعض الدهاقين عن ولائم الفرس ، فقال له الدهقان : شهدتُ بعض مَرَاذِبَ كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صحاف الذهب على أخوثة الفضة ، أربعاً على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا مُنَحُوا المائدة بصحافها ووصائفها (١) .

فلم يعجب الحجاج هذا النظام الفارسي ، وقال : يا غلام ، انحر الجزر ، وأطعم الناس .

وهذا يدلنا على أنه أراد أن يولم على طريقة العرب التي ألفها وألفوها ، وأن يبتعد عن هذا السرف الفارسي .

لكن العرب جعلوا يتأثرون بالعادات الفارسية شيئاً بعد شيء ، حتى جاء العصر العباسي ، فعظم تأثرهم ، ونقلوا عن الفرس كثيراً من عاداتهم ووسائل ترفهم ولهوهم ومجونهم .

(١) النيوز والمهرجان

١ - النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد ، وموعده الأيام الستة

الأوائل من أول شهر في سنتهم الشمسية ، وهو يوافق ٢٤ من آذار ، ويوافق شهر بابه القبطى ، أى أنه يوافق أول الربيع .

واليوم السادس من أيام النيروز يسمى النيروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع خاصتهم.

والنيروز أعظم أعياد الفرس وأجلها ، ويتميز على عيد المهرجان بأنه استقبال السنة ، وافتتاح جباية الخراج ، وزمن تولية العمال واستبدالهم وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران ، ورش الناس بعضهم بعضا بالماء ، وتقريب القربان ، وإشادة البنيان ، وما أشبه ذلك (١) .

وقد كان للملك الفرس نظام معيّن في النيروز ، يجلس الملك في اليوم الأول فيقابل الناس ويحسن إليهم ، ويجلس في اليوم الثانى لمن هم أرفع مرتبة ، وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، ويجلس في اليوم الثالث لأساورته . . . ثم يختص ولده وصنائه باليوم الخامس ، فيصل إلى كل واحد منهم ما يستحقه من رتبة وتكريم ، فإذا كان اليوم السادس نُوزز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته (٢) .

أما المهرجان فهو الأيام الستة الأوائل من أول شهرهم مهرجان ، وهو يوافق أول الخريف ، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال الربيع ، والمهرجان استقبال الخريف .

(١) التاج في أعلام الملوك ١٤٦ .

(٢) الآثار الباقية للبيرونى ٢١٨ .

كان ملوك الفرس يأمرُون بإخراج مافي خرائنهم في النيروز والمهرجان من ملابس ، فتفرق كلها على بطانة الملك وخاصته ، ثم على بطانة البطانة ، ثم على سائر الناس على مراتبهم ... (١) وكانوا يتقبلون الهدايا في العيدين من طبقات شتى ، « والسنة في ذلك أن يُهدى الرجل ما يحب من ملّكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يحب مسكا أهدي مسكا لا غيره ، وإن كان يحب عنبرا أهدي عنبرا ، وإن كان صاحب بزّة ولبسة أهدي كسوة وثيابا ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى نَشَابا ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وكان الشاعر يهدى الشعر ، والخطيب الخطبة ، والتنديم التحفة والطرفة.. وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إليه مايؤثرنه (٢) » .

٢- بدأ اتصال العرب بالنيروز والمهرجان في آخر صدر الإسلام ، فقد كانت تُحمّل إلى معاوية ومَنْ بعده هدايا النيروز والمهرجان ، كما كانت تقدم إلى الأكاسرة ، وقد أنكرها على بن أبي طالب ، ثم أبطلها عمر بن عبد العزيز .

وسواء أكانت هذه الهدايا قد ابتدأت أيام معاوية ، أم أن الحجاج ابن يوسف أول من رسمها في الإسلام حينما كان والياً على العراق ، فإن عمر بن عبد العزيز أبطلها إلى أن أعادها أحمد بن يوسف الكاتب في العصر العباسي الأول .

وفي هذا العصر شاع الاحتفال بالعيدين ، حتى إن الخلفاء والولاة كانوا يجلسون فيهما لتقبل التهنئات ، واستماع مدائح الشعراء ، وكان

(١) التاج في أخلاق الملوك ١٤٦ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك ١٤٩ .

عبد الله بن طاهر يفرق مافي خزائنه من ملابس على بطانته ثم على سائر الناس ، كما كان يفعل الأكاسرة ، حتى لا يترك في خزائنه ثوباً واحداً ، وهذا من أحسن ما يذكر من فضائله (١) .

وصار من الشائع في قصائد الشعراء التعبير عن الربيع بالنيروز ، قال البحتري في مدح المهيثم الغنوي :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحُسن حتى كاد أن يتكلمها
وقد نبّه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً (٢)

وقال عبد الصمد بن بابك للصاحب بن عباد :

لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سبق المزن نشره فجاد برشاش من الويل ساجم

وقال ابن الرومي في تهنئة عبيد الله بن عبد الله بيوم المهرجان (٣) :

ما رأت مثل مهرجانك عينا أزدشير ولا أنو شروان
مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مخيرات الأماني
وأدبيل السرور واللهوفيه من جميع الموم والأحزان
لبست فيه حلّى حفلتها الد نيا وزافت في منظر فتان (٤)

ثم جعل يصف الاحتفال والغناء والقيان .

(٢) الترف

حاكى الخلفاء العباسيون أكاسرة الفرس في الترف والسرف ، ووردت أخبار شتى تصور هذا السرف تصويراً لم يسلم من المبالغة . قالوا

(١) التاج ١٤٩ .

(٢) ديوان البحتري ٢٣٤ .

(٣) ديوان ابن الرومي ٨٢ .

(٤) زافت : إغثت وتبخرت .

إن عرش المهدي يوم بيعته كان مكللاً بأنواع اللؤلؤ والياقوت ، وعلى رأسه قبة من الدياتاج ، وحوله غلامان ملتحفان بالذهب يحملان مظلتين من الريش مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب ، يتدلى منهما الياقوت والزبرجد والفيروز ، وعلى يمين العرش منبر مزخرف بالجواهر والدياتاج .

وقيل إن الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم ، ويقدم على مائدته ثلاثون صنفاً من الطعام .
ولما تزوج زبيدة كانت هباته آواني من الذهب مملوءة بالفضة ، وآواني من الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك .

ووصفوا عرس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل بأنه كان مظهرًا صارخاً للسرف والترف ، قالوا إن المأمون أعطاها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مئة من رطل وثلثان - ، وبسط لها فرشاً كان الحصىرة منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت . . .

وذكر المسعودي (١) أن مجلس الخليفة المتوكل جمع مرة بين الشعراء والمغنين ، وقد مدح البحترى هذا الخليفة بقصيدته التي يقول فيها :

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف نحتكم
حسن يضيء بحسنه والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم

أما الرعية فهي من أمانات عدلك في حرم
فلما انتهى سار القهقري لينصرف ، فوثب أبو العنيس الصيمري
الشاعر فقال : يا أمير المؤمنين تأمر برده ، فقد عارضته في قصيدته
هذه ، فأمر المتوكل برده ، فجعل الصيمري ينشد قصيدة له على مثل
قصيدة البحتري وزنا وقافية ، أولها :

من أي سَلَح ترتطم وبأي كف تَلْتَلِم

ونال من البحتري .

فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص الأرض برجله ،
وقال : يُدْفَعُ إلى أبي العنيس عشرة آلاف درهم .

فقال الفتح بن خاقان : ياسيدي : البحتري الذي هُجِيَ وأُسمع
المكروه ينصرف خائباً ؟ .

قال المتوكل : ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم .

قال الفتح : ياسيدي ، فهذا البصري الذي أشخصناه من بلده ،
لا يشركهم فيما حصلوه ؟ .

قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم .

فانصرفوا كلهم بعشرات الألوف بسبب الهزل .

وقالوا إنه كان في أثاث أم الخليفة المستعين بساط كلفهم صنعه
مئة وثلاثين مليوناً من الدراهم ، به نقوش للحيوانات والطيور .
وذكروا أن شاعراً مدح إحدى الأميرات فملأت فمه بدرُّ باعه
بعشرين ألف دينار .

وروا أن قصر الخليفة المقتدر بالله كانت به شجرة من الفضة وزنها خمس مئة ألف درهم ، تقوم ، وسط بركة مستديرة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن فروع صغار كثيرة عليها طيور من كل نوع مفضضة ومذهبة ، وبعض قضبان الشجرة من ذهب وبعضها من فضة ، ولها ورق مختلف الألوان ، يهتز مع النسيم ، وإذا ما هبَّ النسيم صفرت الطيور المذهبة والمفضضة . وقالوا إن قصر المقتدر كان به أحد عشر ألف خصي .

ويتصل بهذه المبالغات أن الوزراء - ولا سيما البرامكة - كانوا يتغالون في الترف ومظاهر النعمة والثراء ، فقد نثر الحسن بن سهل على الطبقة الأولى من حاشية المأمون ليلة زفاف بنته بُوران بنادق المسك ، مملوثة على الرقاع بالضياع والعقار ، مسوغة لمن تقع في يده أن يمتلك ما كتب بها ، وفرق على الطبقة الثانية بدرّ الدنانير في كل بكرة عشرة آلاف ، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك (١) . . .

وقد حكوا عن خالد بن يحيى أنه لم يكن له جليس إلا وقد بنى له داره ، أو اشترى له ضيعة ، أو وهب له أمة ، أو أدى عنه مهر زوجته ، أو منحه دابة (٢) .

وذكروا أن الوزير المهلبى كان لا يأكل إلا بملاعق الذهب ، ولا يأكل بالمعلقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على مائدته زهاء ثلاثين ملعقة ، وكان يحب الورد ، فاشترى له منه في ثلاثة أيام بألف دينار ، فألقاه في بركة كبيرة بداره ، وللبركة فوارات تنفض الورد فيتساقط على رموس الجالسين مع الوزير في مجلسه .

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٨٩ . (٢) الوزراء والكتاب ١٧٣ .

وإذا كانت هذه الأخبار كلها لم تسلم من المبالغة فإنها صورة للحياة المترفة التي كان يحيها الموسرون .

وليس أدل على أن الانطلاق في ميدان السرف كان من نتائج الحضارة والتأثر بالفرس وغيرهم من العجم ، من أن العرب بالبادية عاشوا وهم يجهلون هذه المظاهر .

يدل على ذلك هذه القصة التي لا تخلو من مبالغة أيضا ، وهي أن ناهض بن ثومة الكلبي - وهو شاعر بدوي كان يحيا في العصر العباسي - تحدث أنه وفد على حلب ، فمر بقرية رأى بها دوراً متباينة ، وناسا يقبلون ويدبرون عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر ، فقال في نفسه : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ، ثم ثاب ماعزب عن عقله ، ثم أتاه رجل فأخذه بيده ، وأدخله داراً قوراء ، بها شاب يتدلى شعره على منكبيه ، والناس حوله سباطان ، فقال في نفسه : هذا الأمير الذي حكى لنا جلوسه للناس وجلوسهم بين يديه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، ف جذب رجل يده ، وقال : اجلس ، فإن هذا ليس بأمر . قال : فمن هو ؟ قال له : عروس . فقال ناهض : واكُل أماء ، رب عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من أحقر شيء (١) .

ثم دخل رجال يحملون هَنَات مُدَوَّرات ، وضعوها أمامنا ، وتحلق القوم عليها حلَقاً ، ثم جاءوا بخرق بيض ألَقوها بين أيدينا ، فظننتها ثياباً ، وهممت أن أسأل القوم منها خرقة أقطعها قميصاً ، فلما بسطها

(١) أحقر شيء عوض عن التعبير الأصلي الذي أثرت إغفاله .

القوم بين أيديهم إذا هي تتمزق سريعا ، وإذا هي فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه .

ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض وحر وبارد ، فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التُّخْم والبَشَم (١) ، ثم أتينا بشراب أحمر فقلت لأحاجة لي فيه ، فأني أخاف أن يقتلني . .

ثم هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علق في عنقه جعبة فارسية مُسَنَّجَة الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبعا منكرا ، ثم بَدَرَ الثاني فاستخرج من كفه هَنَّة سوداء وضعها في فمه وحرك أصابعه على أحجرة فيها ، فأخرج منها أصواتا عجيبة ، ثم بدا ثالث يصفق بمرأتين معه ، فخالط بصوته مايفعله الرجلان ، ثم جعل الرابع يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ورأيت القوم يَحْدِفونه بالدراهم . . .

ثم جاء شاب بخشبة عيناها في صدرها بها خيوط أربعة ، استخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في يده ، فنطقت ، وإذا هي أحسن قينة رأيته ، وغنى عليها فأطربني ، حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه ، وقلت : بأبي أنت وأمي ماهذه الدابة فلست أعرفها للأعراب ؟ وما أراها خلقت إلا قريبا ؟

فقال : هذا البربط ، فقلت : بأبي أنت وأمي ، فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزُّير ، قلت : فما الذي يليه ؟ قال : المُنْثَى ، قيلت خالثلث ؟ قال : المثلث ، قلت : فالأعلى ؟ قال : البَم ، فقلت : آمنت

(١) التخم : جمع تخمة . البشم : التخمعة .

بِاللهِ أولاً ، وبك ثانياً ، وبالبريط ثالثاً ، وبالم رابعاً (١) .

(٣) كثرة الجوارى

شَرِقتُ القصور بالجوارى من أجناس شتى . كان العنصر الفارسي أكثرها عدداً ، ونَسَلَتْ هؤلاء الجوارى للعرب ، وكثر نسلهن ، حتى إن أكثر خلفاء بني العباس من أمهات غير عربيات ، وتناسى العرب في العصر العباسي ماجرى عليه بنو أمية من زراية بأبناء الإماء .

ولا شك أن نظام التسرى كان عظيم الآثار في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة ، وقد سبق أن الفرس عاضدوا المأمون على أخيه الأمين لعدة بواعث ، منها أن أمه أمة فارسية .

(٤) نظام الغناء والقيان

سبق أن العرب عرفوا في جاهليتهم الغناء الفارسي ، وبعض آلات الموسيقى ، لكن هذه المعرفة كانت سطحية محدودة .

أما في العصر العباسي فقد تنوعت المعرفة واتسعت وعمقت ، فازدهر الغناء ، وتطور ، وارتقت الموسيقى ، وتنوعت الآلات ، وتزعم المغنين في أول الدولة العباسية فارسيان هما إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وكانا يجمعان إلى غنائهما المطرب الشعر والظرف وتعليم الجوارى الغناء ، واقتدى بهما من بعدهما من المغنين .

١ - وكان ملوك الفرس يحتجبون عن الندماء في مجالس الغناء بستارة ، فحاكاهم من بنى أمية معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، فكان بينهم وبين الندماء ستارة ،

وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، سوى خواص جواريه .

فأما الباكون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يحتجبون عن المغنين والندماء ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه ما طن في سمعه غناء منذ أفضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل .

وأما في الدولة العباسية فإن أبا العباس السفاح كان يظهر للندماء في أول خلافته ، ثم احتجب عنهم ، وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة ، ويقول للمغني : أحسنت والله ، أعد هذا الصوت ، يبعاد له مراراً .

كذلك كان أبو جعفر المنصور لا يظهر لنديم قط ، بل يجلس وراء الستارة ويسمع الغناء .

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء ، متشبهاً بالمنصور فحواً من سنة ، ثم ظهر لهم .

٢ - وقد كان للمغنين شأن رفيع في الدولة ، لأن الخلفاء والأمراء مشغوفون بالغناء ، ولأنهم حاكوا الأكاسرة في تقريبتهم ، فجعلهم هارون الرشيد طبقات ، كما جعلهم أردشير بن بابك وأنوشروان ، فكان إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وزكزل في الطبقة الأولى ، وكان سليم بن سلام الكوفي وعمرو الغزال في الطبقة الثانية ، وكان العازفون في الطبقة الثالثة (١) .

يقول الجاحظ في حديثه عن طبقات الندماء والمغنين في مجلس ملوك الفرس : « وكان الذى يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهل الحداقة بالموسيقىات والأغاني ، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقىات .

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب الونج والمعازف والطنابير .

وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك راجعه واحتج عليه (١) .

٣ - قد كان الخليفة المعتمد مشغولاً بالطرب والغناء والموسيقى ، دخل عليه جماعة من ندمائه ، فسأل عبد الله بن خرداذبة (والد الجغرافى أبى القاسم عبيد مؤلف المسالك والممالك) عن نشأة الموسيقى والغناء وتطورهما ، فأجاد فى وصف حالهما بالبلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قلت فأحسن وتوصفت فأطنبت ، وأقمت فى هذا اليوم سوقاً للغناء وعيداً للملاهى .

ثم سأله عن الصفات التى يجب أن تتوفر فى المغنى الحاذق فقال عبد الله :

المغنى الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه ، ولطف فى اختلاسه (٢) ، وتفرع فى أجناسه .

(١) التاج ٢٣ الونج : العود أو ضرب من الأوتار .

(٢) تمكن من أنفاسه : جمع نفسه .

ثم سأله عن أنواع الطرب ، فقال : الطرب على ثلاثة أوجه
يا أمير المؤمنين وهى : طرب مُحَرَّكٌ مستخفٌ للآريحية ، يحرك النفس
ودواعى الشيم عند السماع ، وطرب شَجَنٌ وحزن ، ولا سيما إذا كان الشعر
فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمرأى لمن عُدِمَ من الأحباب ،
وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس ، ولا سيما عند سماع جودة
التأليف وإحكام الصنعة .

ثم شبه الذى لا يعرف الطرب ويتشاغل عنه بالحجر الصلد ،
وقال : قد قال جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام
اليونانيين : من عرضت له آفة فى حاسة الشم كره رائحة الطيب ،
ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه .

قال المعتمد : فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟

قال عبد الله : قد قال فى ذلك من تقدم : إن منزلة الإيقاع من
الغناء بمنزلة العروض من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ،
ولقبوه بألقاب ، وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل
الثانى وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والهزج وخفيفه .

وجعل يفيض فى وصف الإيقاع ، ففرح المعتمد فى هذا اليوم ،
ونخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضروا من ندمائه (١) .

٤ - ومن الطبيعى أن يقتضى ازدهار الغناء كثرة المغنيات والقيان ،
ولهذا كثرت بالكوفة وبغداد وغيرهما ، وأعدت كثيرات منهن بيوتهن
لرؤاد العبت والمجون والخلاعة ، فتوافدوا عليها ، ليستمتعوا باللذات ،

متأثرين بالآراء الإباحية التي تزين التحلل من سلطان الدين ، والجرأة على حرمانه ، وتصور الاستمتاع باللذات المحرمة صورة مباحة لا إثم فيها .
وغلا بعض الأثرياء في تقدير أثمانهم ؛ حتى إن جعفر بن سليمان اشتري جارية بمئة ألف درهم ، وصالح بن علي اشتري أخرى بتسعين ألفا (١) .

وما من شك في أن الغناء والموسيقى والخمر والقيان كان أثرها عميقا في الأدب ، وفي أخيلة الشعراء ، وحسبنا أن كثيرا من الشعراء أغرموا بالمغنيات أو تغزلوا بهن ، كما قال ابن الرومي في وحيد المغنية (٢) :

يا خليلي تيمنى وحيد	ففؤادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد	ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد	ين ذاك السواد والتوريد
فهى برد بخدها وسلام	وهى للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها	غير ترشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال : صفيها	قلت : أمران : هين وشديد
يسهل القول أنها أحسن الأشياء طرا ، ويصعب التحديد	
تتجلى للناظرين إليها	فشقى بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا	ها ، وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الأوصال وهى تجيد
طاب فوها وما ترجع فيه	كل شيء لها بذاك شهيد
في هوى مثلها يخف حليم	راجح حلمه ويغوى رشيد

(١) الأغاني ١٣/١٢٨ .

(٢) الديوان ٩٨ .

وحسان عرضن لى قلت مهلاً^١ عن وحيد فحقها التوحيد
حسُنُها فى العيون حسنٌ جديد فلها فى القلوب حبٌ جديد

(٥) الكلف بالخمير

اتسعت الحضارة ، واستفاض الثراء ، واشتدت مخالطة العرب
للفرس وغيرهم ، وكانت الخمير بالعراق خاصة كثيرة متنوعة ، وكانت
حاناتها متعددة ، فاشتهر بها كثير من الناس ، وكلف بها بعض الشعراء
كأبى نواس ، حتى قال فيها آلاف الأبيات ، وحتى افتتح بالخمريات
كثيراً من قصائده بدلاً من الغزل وبكاء الأطلال ، وسنتبين هذا من
الفصل الخاص بتأثير الفرس فى موضوعات الشعر العربى ، وإن كنا
لا ننسى أن الخمير كانت شائعة بين العرب فى العصر الجاهلى .

(٦) الكلف بالغلما ن

كان الفرس يستكثرون من الغلمان فى قصورهم وودورهم ويستخدموهم
فى أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث ، فحاكاهم العرب
فى ذلك .

ومن الغلمان طائفة مُخَنَّثَة انتشروا فى الكوفة أول الأمر مند
امتلات بجند خراسان الذين ناصرُوا بنى العباس ، إذ كان الجند قد
استقدموا معهم المخنثين لاستخدامهم ، جرياً على تقليد فارسى قديم ،
لأن كل مانوى كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه فى شؤونه .

وكان للمخنثين بالكوفة مظهران ينافيان الأخلاق العربية : أحدهما
التشبه بالنساء فى الملبس والخضاب وتزجيج الحواجب والعيون وإطالة

الشعر والتحلّى بالذهب ، والآخر تغنيهم بالشعر الفاجر الماجن في غير
نحرج أو استحياء من الناس (١) .

(٧) تنوع الأزياء

كان من النظم الفارسية أن يلبس أهل كل طبقة لبسة خاصة بهم
لا يلبسها غيرهم ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف من زيه صناعته
وطبقته ، وكان الكتاب يلبسون زيهم المقصور عليهم (٢) .

وفي العصر العباسي تعددت الأزياء مشاكلة للوظائف والطبقات ،
كما كان الفرس يفعلون ، وتزّيا بعضهم بملابس فارسية .

لبس الخلفاء العمائم على القلانس ، ولبس القضاة القلانس
الكبار ، ونوع الكبراء العمامة ، وجعلوا لها أحجاما تطابق مكانتهم
الاجتماعية كما كان الفرس يفعلون ، فللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ،
وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة ، وللروم والنصارى عمة ، ولأصحاب
التشاجى عمة . ولكل قوم زى ، فللقضاة وللشرطة ولأصحاب القضاة زى ،
وللشرطة زى ، وللكتاب زى ولكل طبقة من أصحاب السلطان
زى ... (٣) .

وقيل إن المنصور كان أول من لبس القلنسوة ، وتدل بعض النقود
التي ضربت في عهد المتوكل أنه كان يرتدى الملابس الفارسية .

(١) الأغانى ٤/ ١٦٩ .

(٢) الوزراء والكتاب ٣ ، ٤ .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ١١٤ التشاجى : التحازن

الفصل الرابع

آثار الفرس في الزندقة

١ - دخل الفرس في دين الله ، وحذقوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وتفوقوا فيها ، لكن آثار دينهم القديم وعاداتهم الأولى لم تزل عالقة بنفوسهم ، فأثرت أحياناً كثيرة في عقائدهم وعاداتهم الجديدة دون قصد منهم ، وبقيت آثار لغتهم وآدابهم كامنة في صدورهم ، أو مدونة في بعض كتبهم ، أو متداولة فيما بينهم في خلواتهم ، فلما قامت قائمتهم ، وتآلق نجمهم ظهر ما كان خافياً ، وحاولوا إعادة مجدهم وإحياء علومهم وآدابهم (١) .

ذلك أن كبارهم ومثقيفهم لم يقنعوا بانتقال الملك من بني مروان إلى بني العباس ، ولم يكفهم ما نالوا من نفوذ سياسي في الدولة الجديدة ، فطمعوا في أن يكون لهم ملك فارسي في مظهره وفي حقيقته ، ملك يستردون فيه سلطانهم ولغتهم ودينهم ، وكانت وسائلهم إلى تحقيق أملهم تعتمد على الأقلام تارة ، وعلى الألسن تارة ، وعلى الثورات والحروب تارة ثالثة .

من هذه الوسائل محاولة بعضهم لإضعاف الإسلام بنشر الزندقة ، المستمدة من ديانات الفرس القديمة زرادشتية ومانوية ومزدكية .

(١) قصة الأدب الفارسي ١٠١ حامد عبد القادر .

وأغلب الظن أن المانوية كانت أكثرها تأثيراً في عقول بعض الناس وقلوبهم في العصر العباسي ، وقد سبق في التعريف بالمانوية أنهم دعاة إلى الشك في الدين والتواني في العمل ، والامتناع عن الزواج والنسل ، لأن العالم شر ما دام الظلام ممتزجاً بالنور ، فيجب أن يفنى هذا العالم ، ليعود النور إلى صفائه . ومن تعاليمهم الكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، وهم جبرية يدينون بأن أفعال البشر صادرة من إله الخير أو من إله الشر ، أو عن النور والظلمة (١) .

وإذا كان بهرام بن هرمز قد قتل مائى وصلبه في القرن الرابع الميلادي ، وتعقب أتباعه بالقتل ، فإن بعضهم فروا إلى بلاد الترك ، وما زالوا هناك إلى أن فتح العرب فارس ، فعادوا إلى إيران ، وظهروا في عهد الدولة الأموية بالعراق وبالكوفة خاصة ، يدل على هذا أن والي الكوفة خالد القسري (١٠٥ - ١٢٠ هـ) كان يتعقب المانوية والزنادقة والمجّان ، حتى إنه حرم الغناء ، لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ثم أحابه بعد أن اشترط ألا يحضره سفيه أو عربية (٢) .

ثم تكاثروا في العصر العباسي بأماكن شتى ، حتى إنه كان في بغداد وحدها حوالي ثلاث مئة من المانوية في عصر ابن النديم (٣) (القرن الرابع) ، وجعلوا ينشرون مذهبهم ، ويصوبون إلى الإسلام سهامهم . لكن خلفاء بني العباس جدّوا في تعقبهم ، وجدّوا في التنكيل بهم ، وشجعوا العلماء على مجادلتهم والردود عليهم ، كالمنصور والمهدي

(١) الفهرست ٤٧٢ والحيوان ٤/٤٤١ .

(٢) الأغاني ٢/١١٩ .

(٣) الفهرست .

والهادى والرشيد والمأمون والمعتمد ، وكانوا لا يترددون فى الفتك من تثبت إدانته منهم .

ولقد استحدث الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ) منصباً جديداً لمطاردتهم هو منصب (صاحب الزنادقة (١)) ولم ينس أن يوصى ابنه موسى الهادى بقوله :

« يا بنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعنى أصحاب مالى - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنقلهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فرفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فلما تولى موسى الهادى ومضت من حكمه عشرة أشهر قال : « أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عيناً نظرف (٢) » .

لكنه مات بعد شهرين من قوله هذا ، فلم ينكل بالمانوية كما أراد . روى أن أحد المانوية وهو يزدان بن باذان حجج ، فنظر المسلمين يهرولون فى الطواف ، فقال : ما أشبههم إلا ببقر تدوس فى البئدر - الجرن - فقال العلاء بن خداد للخليفة الهادى :

(١) الطبرى ١٠/١٠ .

(٢) الطبرى ١٠/٤٣ .

لما أبا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر
 ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة نالبيدر
 ويجعل الناس إذا ماسعوا حُمرا تدوس البر والنَّوَسْر (١)
 فقتله الهادي وصلبه سنة ١٦٩ هـ .

وكان المأمون يمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا
 عليها ويبرأوا منه ، فمن أبى قتله ، وفي أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله
 (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) لحق المانوية بخراسان ، خوفاً على أنفسهم ، ومن
 بقى منهم بالعراق ستر أمره .

٢ - أما كلمة زندقة فقد اختلف كثير من الباحثين في أصلها
 وفي دلالتها الأولى ، ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أنه كان بين طبقات
 المانوية طبقة تسمى طبقة السماعين ، وهم الأحرار الذين لم يلتزموا
 تعاليم المانوية القاسية من زهد وتبشّف ورهينة ، وطبقة تسمى
 الصديقين - المخلصين المؤمنين - وهم الذين يلتزمون تعاليم المانوية ،
 ويؤثرون الزهادة والصيام والتغلب على الشهوات ، ويتركون اللحم
 والخمر والزواج ، وكلمة (صديق) العربية تستعمل في العبرية بلفظها
 ومعناها ، وهي بالآرامية والسريانية زَدِيقُ .

ومن الثابت أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالآرامية ، وحرفوها
 بعض التحريف ، فنطقوها زَنْدِيقُ ، ثم نقل العرب الكلمة عن الفرس
 وكسروا زايها لتنسجم مع كسرة الدال .

كانت كلمة (زنديق) تطلق أول الأمر على المؤمن المخلص من

أتباع مائى ، لكن الزرادشتيين نظروا إلى المانوية على أنهم ملاحدة خوارج على الزرادشتية فأطلقوا الكلمة على كل الملاحدة ، وهذا هو المعنى الذى مازال يفهم من الكلمة فى العصور الإسلامية ، كالذى روى عن أبى يوسف : ثلاثة لا يسلامون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ، ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (١) .

٣ - ولقد ظهرت الزندقة فى العصر العباسى فى مظهرين : أحدهما الزندقة فى العقيدة ، والآخر الزندقة فى المظهر والسلوك .

(١) الزندقة فى العقيدة

أما الزنادقة الحقيقيون فهم الذين كانوا يدينون بإله النور وإله الظلام ، متأثرين بالمانوية خاصة وبالزرداشتية والمزدكية عامة .

وكانوا ينشرون عقيدتهم فى أول الأمر سراً ، ثم جعلوا يذيعونها جهراً فى كتب يترجمونها ، وكتب يؤلفونها ، وآراء يزجونها فى الشعر العربى الذى يُروى ، وأحاديث يفترونها على رسول الله .

وفى أوقات الحرج كانوا يعتصمون بالتقية ، فيتظاهرون بالإسلام أو النصرانية أو المجوسية ليسلموا من العقاب .

أما فى فترات التسامح أو خفاء أمرهم على الدولة واطمئنانهم على أنفسهم ، فإنهم كانوا يترجمون كتباً فى الزندقة من الفارسية إلى العربية ، كما فعل ابن المقفع وأبان اللاحق ، أو يجهرون بملذبتهم ، ويعملون فرادى وجماعات مثل بشار وابن المقفع وعبد الكريم بن أبى

(١) قصة الأدب الفارسى ٥٩ وفجر الإسلام ١٢٧ والفهرست ٤٧٩

العَوْجَاء وابن مُنَادِز وصالح بن عبد القلوس وَحَمَاد الراوية وحماد عَجْرَد وحماد بن الزُّبْرَقَان ويحيى بن زياد ومُطِيع بن إِيَّاس .

من هؤلاء المترجمين لكتب الزندقة عبد الله بن المقفع وأَبَان اللاحق ، ترجم الأول كتاب مَزْدَك وغيره من كتب المانوية ، ويقال إن زندقته كانت سبب قتله ، قال له والى البصرة : والله يا ابن الزندقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة (١) ، وقال الخليفة : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع (٢) ، وترجم الثانى عدة كتب منها كتاب مزدك وكتاب عن بوذا .

ومن الذين جهروا بعقيدتهم فى الشعر بشار بن بُرْد ، فقد روى أنه كان على مذهب المجوس ، وهذا هو السبب فى تفضيله النار على التراب وتفضيله إبليس على آدم فى قوله :

الأرض سافلةٌ سوداء مظلمةٌ والنار معبودةٌ مُدٌ كانت النار (٣)
وقوله :

إبليس أفضلٌ من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار
النار عنصره وادم طينةٌ والطين لا يسمو سمو النار
ورد عليه صَفْوَان الأَنْصَارِي بقصيدة منها :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند (٤)
وتُخلَقُ فى أرحامها وأرومها أعاجيبٌ لا تُحصى بخط ولا عقد (٥)

(١) الوزراء والكتاب ١٧٠

(٢) وفيات الأعيان ١٨٧

(٣) الأغاني ٢٠/٣ والبيان والتبيين ١٦/١

(٤) يعنى أن النار كامنة فى الحجارة والزند

(٥) الأروم : جمع أرومة وهى الأصل . العقد : ضرب من الحساب .

— ١٣٣ —

كذلك سِرُّ الأَرْضِ في البحر كله وفي الغَيْضَةِ الغَنَاءُ والجبل الصَّدَدُ
ولا بد من أرض لكل مُطِيرٍ وكل سُبُوح في الغمائر من جُدٍّ (١)
إلى أن يقول :

مفاحِرُ اللطِين الذي كان أَضَلَّنَا ونحن بنوه غَيْرَ شك ولا جَحَدُ
فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ وأوضحُ برهان على الواحد الفرد (٢)
ونرجح أن تقيتهم كانت أحياناً تخفى حقيقة بعضهم على بعض ،
يدل على هذا قول أبي نواس :

كنت أتوهم أن حماد عَجَزَدَ إنما يُرْمَى بالزندقة لمجونه في شعره ،
حتى حُبِسْتُ معه في حبس الزنادقة ، فإذا هو إمام من أئمتهم ، وإذا له
شعر مزاج بيتين بيتين يقرأونه في صلاتهم (٣) ، ويدل عليه أن
بشاراً هجا حماد عجرد بقوله :

يابن نِهْيَا رأسٌ على ثَقِيلٍ واحتمال الرعوس خطب جليلٍ
فادعُ غيري إلى عبادة رَبِّي من فإني بواحد مشغول

فقال حماد : ما يغيظني من بشار إلا تجاهله بالزندقة ، يوهم
الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ، ليظن الجهلة أنه لا يعرف
الزندقة ، لأن العامة تقول مثل ذلك ؛ وهو لا حقيقة له ، وبشار أعلم
بالزندقة من ماني (٤) .

(٤) الفأثر : جمع غير وهو الماء الكثير . الجلد : يضم الجيم وفتحها شاطئ . النهر .
أى لابد لسكل سابح من شاطئ .
(٥) البيان والتبيين ٢٧/١
(١) الأغاني ٧٤/١٣ وما بعدها
(٢) الأغاني ٧٦/١٣ .

ويظهر أن الشعراء الزنادقة أحسوا بحاجتهم إلى الاتحاد والتآخي ،
لأن العقيدة الشاذة تجمعهم ، ولأن في تآخيهم نوعاً من الأُنس
والاطمئنان ، فكانوا يجتمعون على الشراب للمنادمة وقرض الشعر ،
ويكادون لا يفترقون ، وكانوا يتهاجون جادين وهازلين ، ويطرب بعضهم
لهجاء بعض ، وأحياناً يتقاسمون مآلهم ، فلا يستأثر أحدهم على صاحبه
بمال ، هكذا كان يفعل مطيع بن إلياس ويحيى بن زياد الحارثي وابن
المقفع واللبة بن الحُبَاب (١) .

وكان حديثهم لا يخلو من مجون وخلاعة وتجريح للأعراض ،
مر مطيع بن إلياس بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحادثان ،
فقال لهما : فيم أنتما ؟ قالوا : في قلف المحصّنات . قال : وهل في الأرض
مُحَصَّنَةٌ نَقْدَفَانِهَا ؟ !

على أنه كان من الزنادقة من أسلم فخلّف دينه القديم وراءه ،
وكان منهم من تاب وأناب وصح دينه وتقاه .

يمثل النوع الأول عبد الله بن المقفع ، أسلم في أواخر حياته ، وكان
إلى ليلة إسلامه حريضاً على أن يبیت ليلته على دين ، ذلك أنه قضى
حياته إلا بضع سنوات على دين آباءه المجوس ، فلما اعتزم على
الإسلام قال له عيسى بن علي عم الخليفة المنصور : ليكن إسلامك
في مجتمع من القواد ووجوه الناس ، فاحضر غداً .

وفي عشية اليوم نفسه حضر طعام عيسى ، فجلس يأكل ويزمزم
على عمادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت تعتزم الإسلام
في الغد ؟ فقال : أكره أن أبیت على غير دين .

وما من شك في أنه قبل أن يسلم كان مجوسياً ، وكان يبتث المجوسية فيما يترجم وبؤلف من كتب ، لكنه بعد إسلامه لم يعرف عنه شيء من هذا القبيل ، ففعل التهمة جائزة أريد بها التنكيل به ، لأن لها سنداً من ماضيه الذي انفصل عنه ، ومن شأن التهم ألا تفرق بين ماض وحاضر ، وألا تتبين أو تتحرى .

ويمثل النوع الثاني أبو العتاهية في حياته الأولى ، فقد كان زنديق العقيدة في أول أمره ، ثم ندم على ما فرط منه ، وصار من أعلام الداعين إلى التقوى والزهد والخوف من الله ، لكن رواسب من مذهبه القديم مازالت تطفو على تعبيره ، كقوله :

الخير والشر مزدادٌ ومُنْتَقَصٌ فالخير مُنْتَقَصٌ والشر مُزْدَادٌ
فالخير ليس بمولود له ولد لكن له من بنات الشر أولاد
ومعنى هذا أن العالم كله شر ، لأن الخير دائماً في نقص ، ولا يلد خيراً ، على حين أن الشر دائماً في نماء ، لأنه يلد شراً ، ثم إن الخير له من بنات الشر أولاد ، وهذه فكرة مانوية .

وقال :

الخير والشر عاداتٌ وأهواءٌ وقد يكون من الأحباب أعداءُ
كل له سعيه والسعي مختلفٌ وكل نفس لها في سعيها شاء
لم تفتح في دواعي النفس معضية إلا وبيني وبين النور ظُلُماءُ
وهذا صريح في أن أفعال الخير صادرة من النور ، وأفعال الشر صادرة من الظلمة .

ويبدو أن أبا العلاء المعري - على أنه لم يتزندق - متأثر في بعض آرائه بالمانوية وفيها عناصر بوذية كما تقدم ، كما أخذ نفسه بالزهد

والعزوبة ، ودعوته إلى ترك الزواج والتناسل ، وامتناعه عن أكل
الحيوان وما ينتج منه ، ونظريته إلى العالم على أنه شر يجب الخلاص
منه ، من هذا قوله إن العالم مجبول على الأذى والشر :

وفائدة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مَجْبُولُ

وقوله ليت الناس لم يخلقوا :

خير لآدم والخلق الذى خلقوا من ظهري أن يكونوا قبل ما خلُقوا

وسخطه على الحياة وتحقيرها فى قوله :

أصاح هى الدنيا تشابه مَيْتَةً ونحن حوالىها الكلابُ النوابحُ

فمن ظل منها آكلا فهو خاسرُ ومن راح عنها ساغباً فهو رابح

ونصحه بترك الزواج والنسل :

نصحتك لاتنكح فإن خفت مائماً فأعرس ولا تنسل فذلك أحزمُ

ونبهه عن أكل السمك واللحم والبيض والطيور وعسل النحل وشرب

اللبن ، لأن ذبح الحيوان ظلم ، واغتصاب نتاجه ظلم :

لا أفجع الأم فى الرضيع ولا أشرك هذا الغريب فى اللبن

واعتناقه الجبر فى قوله :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياى ، فهل لى بعد تخيير؟

(٢) الزندقة الشككية

وكان من أثر الزنادقة أن كثر المجان والخلعاء ومن لا يراعون

حرمات الدين ، وإن لم يتزندقوا ، وأطلق عليهم اسم الزنادقة ، كإبراهيم

ابن سيار ، فإنه كان يُرمى بالزندقة ، ولم يعرف عنه قول فى الدين ،

— ١٣٧ —

ولما رى بها لخلاعته ومجونه ، وكادم حفيد عمر بن عبد العزيز ،
كان ماجنا سكيما ، يروى عنه قول :

اسقني واسق غصينا لا تبغ بالنقد ديننا
اسقنيها مزة الطعسم تريك الشين زيننا

فضربه المهدي ثلاث مئة سوط على أن يقر بزندقته ، فقال : والله
ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ؟ لكنه طرب
غلبني ، وشعر طفح على قلبي ، وأناقتي من قریش ، أشرب النبيل ،
وأقول ما قلت على سبيل المجون ، ثم هجر الشرب والمجون (١) .
ومن هؤلاء أبو نواس ، وله في الجرأة على الدين شهرة وضروب ،
كقوله :

بكرت على تلومني فأجبتها إلى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملام فقد أطعت غوايتي وصرفت معرفتي إلى الإنكار
ورأيت إتياني اللذابة والهوى وتعجلاً من طيب هذى الدار
أخرى وأحزم من تنظر آجل علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أوفى النار !

كذلك من آثارها أن اتخذ بعض الناس من التظاهر بهذه الخلاعة
وسيلة لوسمهم بالظرف ، وإن لم يكونوا من الزندقة الدينية في شيء ،
كمحمد بن زياد ، فقد كان يتظاهر بالزندقة نظرفا ، فقال فيه
الشاعر (٢) :

(١) الأغاني ١٤/١٠

(٢) الأغاني ١٧/١٥

يابن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديننا غير ماتخفى
مُرْنَدَق الظاهر باللفظ في باطن إسلام فتى عَفَّ
لستَ برنديق ولكنما أردتَ أن توسم بالظرف

تعقيب

على أن المجون لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تسكد لتقرب من
أن تكون مرضاً شبه عام ، وإنما كان المجون محدوداً في دائرة خاصة ،
وكانت الزندقة في العقيدة سمة آحاد أو بضعة عشرات من الناس ،
ولولا قلة عدد المجان والزنادقة ما سجلت الكتب أسماءهم وأحداثهم ،
فمن الخطأ أن نصمم العراق في العصر العباسي بأن المجون طابعه ، أو بأن
الزندقة شعاره .

١ - وكيف نخفل عن جمهرة الشعب ، وهم مؤمنون حراس على دينهم ؟
وهل من الإنصاف أن نتناسى تعقب الدولة لإياهم وتقتيلها من
ثبث زندقته ؟

٢ - ثم كيف نتغاضى عن جمهور العلماء وهم أصحاب جِد وورع
سواء منهم علماء الدين أو علماء اللغة والأدب ؟

٣ - وهل من المعقول أن نتناسى المعتزلة وهم الذين وقفوا للزندقة
والملاحدة بالمرصاد ، يفسدون عليهم تدبيرهم ، ويردون إليهم أضاليلهم ،
ويدفعون عن الإسلام بأفلامهم وألسنتهم ؟

وللمعتزلة مؤلفات شتى في إبطال ما كانت ترجف به الجهمية
والرافضة والثنوية والدهرية ، وطالما ناظروا الزنادقة وأبطلوا دعاوهم ،
كما يحدث التاريخ عن واصل بن عطاء ، فيروى عمر الباهلي أنه اطلع

على الجزء الأول من كتاب (ألف مسألة) الذى ألفه واصل للرد على المانوية (١) ، وكقول زوجة واصل إنه كان إذا جن الليل صفّ قدميه للصلاة وأمامه لوح ودواة ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ، ثم عاد إلى صلاته (٢) ، وكان أبو الهذيل العلاف قد ألف ستين كتاباً فى الرد على الزنادقة (٣) .

كذلك حمل عليهم الجاحظ وناقشهم وفنّد مزاعمهم فى كثير من كتبه ورسائله .

ولم يكتف المتدينون من العلماء بالمناقشة والرد وإبطال أراجيف الزنادقة ، بل حرصوا على قتلهم ، فهذا واصل بن عطاء يغرى بقتل بشار فى قوله :

أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف المكنى بأبى مُعَاذٍ من يقتله ؟

أما والله لولا أن الغيلة سَجِيّة من سجايا الغالية للستت إليه من يَبْعُجُ بطنه فى جوف منزله (٤) .

٤ - كذلك عرف العصر العباسى كثيراً من المتصوفة ، وكان للتصوف فيه شأن عظيم ، والمتصوفة أبعد الناس عن المجون وعن الزندقة . على أن العراق وبخاصة بغداد والكوفة والبصرة كانت عامرة بالأحناف والحنابلة ، وهم تقاة حماة للدين ، وكان الحنابلة يتشدّدون فى مقاومتهم للمنكر ، وينسكلون بالخارجيين على الإسلام .

(١) المنية والأمل ٢٠

(٢) المنية والأمل ١٩

(٣) المنية والأمل ٢٥

(٤) البيان والتبيين ١٦/١

٥ - وليس من الحق أن نصف عصرا ما بالجد المطلق ، ولا أن نصم عصرا ما باللهو المطلق ، ولا من الحق أن نصور مجتمعا ما بصيغة نفير منه ، لأن هذا تعميم لا يصح أن يتجاوز نطاق التخصيص .

وهؤلاء النفير الذين اشتهروا في العراق بالزندقة سواء أكانت في العقيدة أم في المظهر ما هم إلا قلة في مجتمع كبير ، قلة منحرفة في كثرة لا تشاكلهم في الدين والأخلاق والنزعات .

وهل من الصواب أن نصف مجتمعنا العربي المعاصر بالمجون والخلاعة لأن نفرا من الناس يشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويمخدون ويراقصون ويرتكبون ما ياباه الدين ؟

كذلك من الظلم للمجتمع العراقي في العصر العباسي أن نصوره مجتمعا منحلا ، إباحيا مستهينا بالدين ، حتى في بغداد نفسها ، كما صورته الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعاء .

الحق أن العصر العباسي كان ذا ألوان ونزعات شتى ، وفي بغداد نفسها كان الإلحاد والمجون والزندقة أنصلها لونا ، وأقلها عددا ، ولكن شذوذها كان السبب في شهرتها ومعرفة أصحابها ، لأنها خرج على المألوف ، ومصادمة للمجتمع ، ومن شأن الشاذ أن تليح أخباره ويتناقضها الناس .

٦ - على أن هذا الغلو في التحلل من العقيدة ومن المثل العليا اقتضى نزوعا آخر يقاومه ، فنشأت جماعة من العلماء والأنقياء تصد الناس عن الاستجابة للزندقة ، وتحجب إليهم التدين ، وترغبهم في

الآخرة ونعيمها ، وتزهدهم في متع الحياة الدنيا ، وتحذرهم عقاب الله في الآخرة .

ولقد استطاعت هذه الطائفة بما أُوتيت من قوة الإيمان ونصاعة البيان أن تعوق تيار الإلحاد ، وأن تهدي الناس إلى الحق والخير .
ولا ننكر أن الخلفاء والولاة ساعدوا دعاة التدين ، وقربوهم إليهم ، فكان في هذا وفي ذلك تشجيع لهم وتزكية لأقوالهم .

ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن بعض الشعراء قاوموا نزعة الزندقة والإباحة والخلاعة ، وزعيمهم في هذا أبو العتاهية النبطي الأصل .

والحق أنه لم يمتنع الشعر الزهدي ، لأن الأدب العربي عرفه قبله ، ولكنه زاد على ما سبق به ، وفصل تفصيلا ، وأكثر إكثارا ، وألح على الناس في التنفير من اللذة وفي الترغيب في الطاعة والاستقامة وفي التخويف من الموت والعذاب ، كقوله (١) :

طلبتك يا دنيا فاعلرت في الطلب فما نلت إلا الغم والهم والنصب
فلما بدا لي أنني لست وأصلا إلى لذة إلا بأضعافها تعب
وأسرعت في ديني ولم أقض بُغيتي هربت بديني منك إن نفع الهرب

ولما استنشده الخليفة المأمون أجود ما قاله في الموت أنشده قوله (٢) :

أنساك مَحْيَاكَ المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا
أو ثقت بالدنيا وأنست ترى جماعتها شَتاتا ؟

(١) ديوان أبي العتاهية ٢٥

(٢) الديوان ٥٣

وعزمت منك على الحياة وطولها عزما بتاتا ؟
 يا من رأى أبويه فيمن قد رأى كانا فماتا
 هل فيهما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا ؟
 ومن الذى طلب التفلسف من منيته ففاتا ؟
 كل تصبحه المنية أو تبيتته بياتا

على أن التزهيد فى الدنيا ، ومقاومة الإلحاد ، والدعوة إلى التقوى
 صدرت عن بعض الدين قضا ردها من حياتهم فى خلاعة ومجون ،
 ثم تابوا إلى الرشاد ، مثل أبى نواس فى قوله :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لاتظن الموت حقا
 ألا يابن الدين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
 ومالك - فاعلمن - فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا
 وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

الفصل الخامس

أبشار الفرس في الشعوبية

تمهيد :

أقبل الفرس على اعتناق الإسلام ، وجعل إقبالهم يتزايد عاماً بعد عام ، حتى جاء العصر الأموي وأكثرهم مسلمون ، وكانوا يعيشون مع العرب ويخالطونهم ويرتبطون بهم برابطة الولاية (١) .

وكان عددهم كبيراً منذ القرن الأول للهجرة ، يدل على هذا أن الموالى بالكوفة كانوا أكثر عدداً من العرب ، وكان أكثرهم من الفرس ، قدموا إلى الكوفة أسرى حرب ، ودخلوا في الإسلام ، ثم أعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، ويدل على هذا أن عدد القتلى في موقعة الحرة من الموالى - فرس وروم وغيرهم - بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمسمائة ، وقتلى قريش كذلك (٢) ، هؤلاء الموالى وبخاصة الفرس حنقوا على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة .

أما حنقهم على العرب فراجع إلى أن العرب قوضوا دولتهم ،

(١) قد يكون الولاء نتيجة للعتق فينسب العبد إلى سيده الذي أعتقه أو إلى قبيلته ، وقد يكون نتيجة لإسلام أعجمي على يد عربي عاهده على أن يكون مولى له ، وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمي مطلقاً سواء أكان عبداً لعربي أم لا ، وسواء أسلم على يد عربي أم لا ، لهذا سمي بالأعاجم بالموالى ، لأن العرب فتحوا بلادهم عنوة ، وكان لهم استرقاقهم ، فإذا تركوهم أحراراً فكانهم أعتقوهم ، فالموالى إذن هم المعتقون .

(٢) أدب السياسة في العصر الأموي ٤٣٦ .

واحتلوا بلادهم ، وجعلوهم أتباعاً لهم ، ثم استعلى بعض العرب عليهم - وهم لم يطبقوا هذا الاستعلاء .

وكانت أبرز ضروب الاستعلاء واضحة في أعمال بعض الحكام والساسة وبعض العرب الذين مازالوا متسمين بطابع الجاهلية .

وقد تعددت مظاهر هذا الاستعلاء ، فمنها ترفع العرب عن تزويج بناتهم للذين أسلموا من فرس وروم ، خطب أحد الموالى بنتاً من أعراب بنى سُلَيْم وتزوجها ، فغضب محمد بن بشير الخارجي ، ورأى أن هذا عار لحق بالعرب ، فركب إلى والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم يكتف بهذا ، بل ضربه مثنى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، وطابت نفس محمد بن بشير بهذا العقاب فقال (١) :

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد
وفى المثنين للمولى نكالاً وفى سلب الحواجب والمخلود
إذا كافأهم ببينات كسرى فهل يعبد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى من اضهار العبيد إلى العبيد ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الإمام ، فكانوا يصفون ابن الأمة من عربى بأنه هَجِين ، ومعنى هذا أنه مشوب النسب معيب ، لأن الهُجْنَة هى الكلام الذى يعيب قائله ، والهَجِين اللثيم ، والعربى المولود من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (٢) .

وكان بنو أمية - والدولة قوية - لا يستخلفونهم ، بدعوى أن العرب لا ترضى أن تخضع لهم (٣) .

(١) الأغاني ١٤/١٥٠ . (٢) اللسان والقاموس مادة هجن . (٣) العقد الفريد ٣/٢٩٧ .

فلما ضعفت الدولة ، وهدأت النعرة ، تولى بعضهم كيزيد ابن الوليد وأخيه إبراهيم ، ومروان بن محمد .

ومن عجب أن جهر بتحقيق أبناء الإمام عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مسلمة - أمه أمة - وتمثل بشعر يغض من شأنهم ، فرد عليه مسلمة بشعر يرفع من أقدارهم ، فسرَّ عبد الملك ، وقبل رأسه ، وأمر له بمئة ألف (١) .

وبلغ التعصب بنافع بن جُبَيْر أنه كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا : عربي ، قال : وابلدتاه ، وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله ، يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء .

ويدكرون عن نافع هذا أنه قدَّم مؤلى ليصلى به ، فسئل عن ذلك . فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وفي العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشاكلة ، كنداء العرب لهم بالأسماء والألقاب ، لا بالكُنى ، وكتنحيثهم عن محاذاة العرب في الصف وهم يمشون ، وإبعادهم عن الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه (٢) .

وأما حنقهم على بنى أمية بخاصة فمرجه إلى أسباب عدة .

١ - أنهم الحكام الذين يمثلون العرب العاديين على مُلك الفرس والروم ، وأنهم يؤثرون العرب بالولايات والوظائف ، ويختصونهم بالتقريب والإيثار ، ويقصون الموالي عن الحكم والتكريم .

٢ - ثم إن بعض ولاية بنى أمية أساءوا معاملة الموالي ، فالحجاج

(١) راجع المرأة في الشعر الجاهل للمؤلف ١٣٩ ، ٤٠٨ .

(٢) العقد الفريد ٤ / ٣٦٣ - ٣٦٨ .

أمر بئلا يؤم الناس في الصلاة بالكوفة إلا عربى (١) ، وتقى النبط من واسط لما نزل هناك .

٣ - على أن الموالي خشوا على مكانتهم وأرزاقهم لما عربت دواوين الخراج ، والذي يعنيننا هنا ما يتصل بتعريب ديوان فارس ، فإن المحجاج لما أمر بتعريبه ضاق كتاب الفرس ، كما ضاق من قبلهم كتاب الروم ، وخشوا أن ينضب معين رزقهم ، وأن يفقدوا مظهراً من مظاهر حاجة العرب إليهم ، فقالوا لصالح بن عبد الرحمن - وهو الذى عرب الديوان ، وكان يعرف العربية والفارسية - كيف تصنع بدهوئيه وششويته ؟ فقال : أكتب عُسرا ونصف عشر . فقالوا له : وماذا تصنع بويث ؟ قال : أكتب أيضا . فقال بعضهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، ثم بذلوا له مئة ألف درهم ، على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى ، لهذا قال عبد الحميد ابن : يحيى « لله در صالح ، ما أعظم منته على الكتاب » يريد الكتاب العرب .

٤ - وقد كان من أسباب كراهيتهم لبنى أمية أن كثيراً منهم كانوا متشيعين منذ عهد على بن أبى طالب ، وأخذ عددهم يتزايد ويتضاعف (٢) . فهم يكرهون الأمويين ، لأنهم مغتصبون للخلافة وهى في نظرهم حق العلويين ، ولعل هذا كان من حوافزهم إلى مؤازرة الثورات والثائرين ، ولعل كثيراً منهم اصطنع التشيع ليتخذوه وسيلة إلى تقويض الحكم العربى .

(١) المقد الفريد ١٠٧/١

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموى للمؤلف ص ٣٤

لكن جمهرة العرب لم يقيموا علاقاتهم بالعجم من فرس وغيرهم على هذه النعرة ، بل كانوا يرون في العجم الذين خفق على بلادهم لواء الإسلام إخوة لهم في الدين ، ولعلمهم وجدوا في هذه النظرة قرينة إلى الله ومثوبة ، ووجدوا فيها امتثالا لقوله تعالى :

« إنما المؤمنون إخوة (١) » وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

ولقد كان لهم أعظم أسوة في معاملة النبي وكبار الصحابة للموالى وتسويتهم بالعرب ، وهم يعلمون أن عمر تمى في آخر لحظة من حياته أن سالما مولى حذيفة حتى ليعهد إليه بالخلافة ، ويعلمون أن جماعة من أصحاب عليّ مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستعمل من تخاف خلافه من الناس . فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصر بالجرور (٣) ؟

ذلك أنهم رأوا معاوية يختص أشراف العرب بعطائه ، فأرادوه من عليّ أن يصنع مثله ، ولم يكن عليّ يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل ، فكان هذا من أقوى الأسباب في تقاعدهم عنه (٤) .

وكان أكثر المسلمين لا يحتقرون الموالى ، ولا يترددون في أخذ

(١) سورة الحجرات ١٠

(٢) سورة الحجرات ١٣

(٣) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد ١ / ٨٢

(٤) المرجع السابق ١ / ١٨٠ .

العلم عنهم ، كما أخذوا عن الحسن البصرى ، وسعيد بن جبّير ، وابن جُرّيج ، وابن سيرين ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم ، وكلهم موال ، ويذكر ابن خلّكان أن الحسن البصرى كان ينتقد خلفاء بني أمية ، ويعيب يزيد بن المهلب ، فجاءه يزيد في رهط من قومه ، وهمّ أحدهم بقتل الحسن ، فغضب يزيد وقال : أغمد سيفك ، فوالله لو فعلت لانقلب منّ معنا علينا (١) .

أصدائها في العصر الأموى

حنق الفرس على الدولة الأموية ، لأنّها عربية تكلّ شؤونها إلى العرب ، ولأنّها لم تنظر إلى الفرس نظرة التقريب والتقدير ، ونقموا من العرب أن بعضهم تعالوا عليهم ، وعدوهم أتباعا وأقلّ منهم شأنًا وأدنى أصلا وحسبًا ، مخالفين ما يدعو إليه الإسلام من إخاء ومساواة . لكنّ الفرس لم يستطيعوا في العصر الأموى أن يجهروا بشعوبيتهم ، إذ كان بعضهم يدين للعرب بالسيادة والفضل ، لأنهم أهل الدين ، وكان بعضهم يداجي ويكتم ما بنفسه خشية من العرب ، وإن لم يدن لهم بفضل .

وكان من الطبيعي أن ينادى بعض الفرس بتحقيق المساواة التي شرعها الإسلام وحققها النبي وخلفاؤه الراشدون .

ثم شرعت أصوات فارسية ترتفع ، فتقابل تعالى العرب بمثله . وتباهى بماضى الفرس وسعة ملكهم وعظمة حضارتهم وثراء بلادهم ، وتميّز بعض هذه الأصوات بالجرأة على العرب والتنديد بهم في رمز ومواربة .

ويظهر أن شعراء العرب هم الذين بداوا بالتهجم على الموالى في العصر الأموى ، فقد مرت أبيات لمحمد بن بشير في تحقيرهم وأنفته من إصهارهم إلى عربى ، وفي شعر جرير والفرزدق جرح لهم وزراية بهم (١) فلما مضى من عمر الدولة الأموية نحو نصفه ، بدأ نجم الأعاجم يتألق وبخاصة منذ عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان لهذا التألق عدة أسباب ، إذ اشتهر بالعلم والورع كثير ممن ولدتهم أمهات غير عربيات ، وكان بعض أمراء بنى أمية من أمهات فارسيات كيزيد بن المهلب وأخيه إبراهيم ، ويزيد هو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان
ومن هؤلاء الأمراء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان بنو أمية قد بدأوا يخففون من زرايتهم بالموالى ، لأنهم كثرة يحشون منهم على الدولة ، ولا سيما أنهم ضالعون مع الشيعة ، والدعوة الشيعية تنتشر في خراسان ، والفرس يهشون لها .

وفي هذا الوقت كان بعض الموالى من الفرس قد أجادوا الشعر العربى كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبى العباس الأعمى مولى بنى الدليل ، ويزيد بن ضبة مولى ثقيف ، وإسماعيل بن يسار .

وليس من الطبيعى أن يطيق هؤلاء مايلقون من تحقير وإبعاد ، فشرعوا ينفسون عن أنفسهم ، فيباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، وينددون بالعرب تنديداً مستورا ، ويتهجمون عليهم فى ملح خاطف . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها أن هشام بن عبد الملك دعا لإسماعيل

ابن يسار لينشده ، وكان لا يتوقع منه غير المدح ، فإذا به يسمع مباحاة بالفرس كقوله :

أصلى كريمٌ ومجدى لا يُقاسُ به ولى لسان كحذُ السيف مسمومٍ
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قَرْمٍ بتاج الملك معموم
مَنْ مثْلُ كسرى وسابور الجنود معا والهُرْمُزَانِ لفخر أو لتعظيم
هناك إن تَسْأَلِ تُنَبِّئَ بَأَن لَنَا جرثومةٌ قهرت عِزَّ الجرائم
فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى في بركة حتى كاد نفسه
تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز (١) .

ولم يكن لإسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر وما يماثله ، بل جعل يتهجم على العرب كقوله :

فاتركى الفخر يا أَمَامَ علينا واتركى الجَوْرَ وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب
إِذْ نربى بنائنا وتلدسو ن سفاها بناتكم فى التراب (٢)
وكان أشعب فى السامعين ، فقال له : صدقت والله ، أراد العرب
بناتهم لغير ما أردتموهن له . قال إسماعيل : وما ذاك ؟ قال أشعب : دفن
العرب بناتهم خوفاً من العار ، ورييتموهن لتنكحوهن ، فضحك القوم ،
ونخجل إسماعيل .

كذلك كان يزيد بن ضَبَّةٍ يفاخر بالفرس ، كقوله :

ألم تر أننا لما ولينا أموراً خرقتْ فدهتْ سدَدُنَا
وليناس الناسَ أزمانا طوالا وسُنْناهم ودُسْناهم وقُدْنَا
ألم تر مَنْ ولدنا كيف أشبى وأشبَيْنَا وما بهُمُ قعدنا (٣)

(١) الأغاني ٤ / ٤٠٨ قرم : سيد . معموم : معتم والمراد متوج .

(٢) الإغاني ٤ / ١٢٠ . (٣) أشبى : ولد له ولد كيس .

وفد أنشد أمام الوليد بن عبد الملك شعرا يفخر فيه بالفرس ، فلم يذكره عليه .

ونلاحظ أنهم كانوا في العصر الأموي كثيراً ما يكتفون بالفخر ، وإذا ما أرادوا التعرض للعرب اعتمدوا على الكناية والرمز بهند وأمامة ونحوهما .

أصدائها في العصر العباسي

انتهى العصر الأموي ، وصوت الموالى خافت ، فلما جاء العصر العباسي علا صوتهم ودوى ، إذ اتسع المجال أمامهم ، واطمأنوا إلى حريتهم المكفولة ، واستباحوا تسامح الدولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم في قصور الخلفاء ودواوين الحكام ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة على الفرس .

وإذا كان قليل جداً من الموالى قد تولوا بعض أعمال عامة في عهد بنى أمية ، فإن توليتهم في عهد بنى العباس صارت القاعدة والأساس ، فأكثر من ولأهم المنصور موالٍ ، ثم حاكاه من جاءوا بعده ، وقد كان المأمون يؤثر الفرس جَهرةً ، ويشك في ولاء العرب له كما تقدم .

لهذا شَرِقتْ قصور الخلفاء بالموالى من رجال ونساء ، وغص الجيش بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكى اتخذ جنوداً من خراسان سماهم العباسية ، جعل ولائهم للعباسيين ، بلغ عددهم خمس مئة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفاً ، ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك ، وآثرهم على الفرس ، فتنافس الترك والفرس على السلطان ، وصار بأسهم بينهم

شديداً ، لكن الترك انتصروا ، ففقد الفرس والعرب مكانتهم ونفوذهم (١) .

كانت الحالة السياسية والاجتماعية مواتية للفرس في العصر العباسي . فجهروا بشعوبيتهم في غير تعريض ولا كناية كما سنبين . على أن بعض أبناء الفرس مازالوا يشعرون بحاجتهم في العصر العباسي إلى الاحتماء بالولاء وبالانتساب إلى العرب ، كان لعلي بن الخليل الكوفي صديق من الدهاقين يعاشره ويبره ، فغاب عنه مدة طويلة ، ثم عاد إلى الكوفة وقد أصاب مالا ورفعة ، وقويت أحواله ، فادعى أنه من تميم ، فجاهه علي بن الخليل ، فلم يأذن له ، ولقيه فلم يسلم عليه ، فقال بهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا

إلى أن يقول :

جمحت أباك نسبته وأرجو أن تُفيد أبا (٢)

وكذلك هجا أبو العتاهية والبة بن الحُباب لما ادعى نسبه في

العرب ، ودعاه إلى أن يعتصم بنسبه في الموالى مثله :

أو الب أنت في العُرب كمثل الشَّيص في الرُّطب
هلم إلى الموالى الصَّيد مد في سعة وفي رَحَب
فأنت بنا لَعَمْرُ الد ه أشبه منك بالعرب (٣)

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ٤٩٠ .

(٢) الأغاني ١٣/١٨ .

(٣) الأغاني ١٦/١٤٩ .

١ — فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب

علت أصوات فارسية تفخر بمجد الفرس وعظمتهم ، وتجهر
بتحقير العرب ، وتعيهم الفقر والجذب وشظف العيش والجهل
والفوضى ووآد البنات ، وتذكرهم بأنهم كانوا عملاء كسرى أو حراسا
على قوافله التجارية القادمة إلى بلادهم .

من فخرهم قول بشار بن بُرْد :

وُنُبِّتُ قوما بهم جِنَّةٌ يقولون : مَنْ ذا ؟ وكنت العَلَمُ
ألا. أيها السائلى جاهدا ليعرفنى أنا أنف الكَرَمِ
نَمَتْ فى السكرام بنى عامر فُروعى ، وأصلى قريشُ العَجَمِ
ويسأله المهدي : من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى
الفرسان ، وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان .

ويقول أيضاً :

وهجانى معشر كلهم حُمى دام لهم ذاك الحمق
ليس من جُرم ولكن غاظم شرى العارض قد سدَّ الأفق
من خراسان وبيتى فى اللُرى ولدى المسعاة فرعى قد سَمَق
وكان يتبرأ من ولاته للعرب ، ويحض الموالى على نبذ ولاهم فى قوله :
أصبحت مولى ذى الجلال ، وبعضهم مولى العُرب ، فجلد بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفَعال ومن قريش المَشْعَرِ
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحة مولاك الأجل الأكبر

وقد لامة شريف من بنى زيد على دعوته الفرس لنبذ ولاهم ،
وقال له : قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم
فى الرجوع إلى أصولهم ، وإلى ترك الولاء ، وأنت غير معروف الأصل .

فقال له بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل
الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن يستبدل نسبه بنسبك (١) .

كذلك قال المتوكلي (٢) وهو من شعراء الخليفة المتوكل وندمه :

أنا ابن الأكارم من نَسْلِ جَمٍّ وحائزِ إرثِ ملوك العجم (٣)
ومحيى الذى باد من عزهم وعقَى عليه طوال القنم
وطالب أوتارهم جَهْرَةً فمن نام عن حقهم لم أنم
معى عَلمُ السكايبان الذى به أرتجى أن أسود الأمم (٤)
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخَلْع قبل الندم
ملكناكم عَنَوَةً بالرما ح طعناً وضرباً بسيف خذم
وأولاكمُ الملكَ آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعى الغنم
فلئن سألوا سرير الملوك بحد الحسام وجرف القلم
ولما أنعم الله على مهيأر الديلمى الفارسى بنعمة الإسلام سنة ٣٩٤ هـ

قال قصيدة يشيد فيها بالإسلام ، ويهجن قومه بعبادة النار :
تبدلتُ من ناركم رَبِّها ونُجبتُ مواعدها الخُلْد طيبا
لكنه كان يفاخر بنسبه الفارسى ، ويخلطه أحياناً بفاخره بالإسلام

كقوله :

أُعجبتُ بى بين نادى قومها أم سعدٍ فمضتُ تسأل بى
سرهما ما علمتُ من خُلُقٍ فأرادتُ علمها ما حبسنى

(١) الأغاني ٣/ ٥١ .

(٢) معجم الأدباء ١/ ٣٢٣ .

(٣) جم : يعنى بحشيد ملك الفرس .

(٤) السكايبان : نسبة إلى كابة وهو حداد فارسى رفع علم الثورة .

لا تَخَالِي نَسْباً يَخْفَضُنِي أَنَا مِنْ يَرْضِيكَ عِنْدَ النَسَبِ
فَوَيْ اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّهْرِ فَتَى وَمَشَوْا فَوْقَ رُغُوسِ الْحَقْبِ
عَمَّمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتَهُمْ وَبَنُوا أَبْيَاتَهُمْ بِالشُّهْبِ
وَأَبَى كِبَرَى عَلَا إِيَوَانُهُ أَيْنَ فِي النَّاسِ أَبٌ مِثْلَ أَبِي ؟
قَدْ قَبِسْتُ الْمَجْدَ مِنْ خَيْرِ أَبٍ وَقَبِسْتُ الدِّينَ مِنْ خَيْرِ نَبِي
وَضَمَمْتُ الْفَخْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ سُودَّدَ الْفَرَسَ وَدَيْنَ الْعَرَبِ
أَمَّا أَبُو نَوَاسٍ فَقَدْ تَهَجَّمَ عَلَى الْعَرَبِ بِوَسِيلَةِ أُخْرَى ، هِيَ تَهْكُمُهُ
الكَثِيرُ بِطَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي التَّقْدِيمِ لِقِصَائِهِمْ بِالْغَزْلِ وَبِكَاءِ الْأَطْلَالِ ،
وَدَعَوْتُهُ الْمُلْحَةُ إِلَى بَدْءِ الْقِصَائِدِ بِالْخُمَرِيَّاتِ .

وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ هَذَا لَوْنٌ مِنَ التَّجْدِيدِ أَرَادَ أَنْ يَلَوْنَ بِهِ الشَّعْرَ الْعَرَبِيَّ ،
لَكِنَّ هَذَا الظَّنَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَتَوَارَى إِذَا مَا لِحَظْنَا سَخَرِيَّتَهُ بِالْعَرَبِ ،
وَتَهْوِينَهُ مِنْ شَأْنِ قِبَائِلِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَّ بِعَيْرِ تَنَادٍ
وَسَخَرِيَّةٍ وَتَحْقِيرٍ ، كَمَا فَعَلَ الْمُتَنَبِّي حِينَ عَجِبَ مِنَ الشَّعْرَاءِ الْمُتَكَلِّفِينَ
لِلْحُبِّ ، إِذْ افْتَتَحُوا مَدَائِحَهُمْ بِالْغَزْلِ ، فَهُوَ عَلَى حَقٍّ فِي عَجْبِهِ ، وَهُوَ لَمْ
يَتَّعِدَّ الْعَجَبَ إِلَى الْحَمَلَةِ عَلَى الْعَرَبِ ، قَالَ الْمُتَنَبِّي (١) :

إِذَا كَانَ مَدَحٌ فَالنَّسِيبُ الْمَقْدَمُ أَكَلْتُ بَلِيغٌ قَالَ شَعْرًا مَتِيْمٌ ؟

وَشَتَانُ بَيْنَ هَذَا وَقَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ (٢) :

تَبْكِي عَلَى طَلَلِ الْمَاضِيْنَ مِنْ أَسَدٍ لَا ذَرَّ ذُرْكُ قُلُوبِ مَنْ بَنَى أَسَدٌ ؟
لَا جَفَ دَمْعُ الَّذِي يَبْكِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صَفَا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدٍ
كَمْ بَيْنَ نَاعَتِ خُمِرٍ فِي دَسَاكِرِهَا وَبَيْنَ بَاكِ عَلَى نُؤْيٍ وَمُنْتَصَدٍ

(١) شرح ديوان المتنبي ٢/٢٤٩ .

(٢) ديوان أبي نواس ٢٦٦

وقوله (١) :

صفة الطلول بلاغة القِدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله (٢) :

لاتبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله (٣) :

دع الأطلال تسفيتها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب
ونخل لراكب الوجناء أرضا تحث بها النجبية والنجيب

.....

وهذا العيش لا يخيم البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب ؟

ولما حبسه الرشيد لتهتكه ومجونه قال (٤) :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أرى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن ترد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مسلكا وعرا

٢ — مؤلفات الفرس في التهجم على العرب

ألف الفرس كتباً شتى في الانتصار لأنفسهم ، بعضها في الإشادة
بمناقبهم ومناقب العجم (٥) عامة ، وبعضها في الانتقاص من العرب
وذكر مثالبهم .

(١) الديوان ٣٢٣ .

(٢) الديوان ٢٦٥ .

(٣) الديوان ٢٤٤ .

(٤) الديوان ٢٨٢ .

(٥) الفهرست ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٥٥ .

ومن الضرب الأول كتاب فضل العجم على العرب ، وكتاب
استصاف العجم من العرب لسعيد بن حميد البختكان ، وكتاب فضائل
الفرس لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

ومن الضرب الثاني كتاب المثالب لعلان الفارسي الذي جرح فيه
العرب ، وتناول القبائل كلها بالثلب ، وكتاب المثالب الكبير ،
وكتاب المثالب الصغير ، وكتاب أسماء بغيا قریش في الجاهلية ،
ألفها الهيثم بن عدي ، وكتب أخرى ألفها سهل بن هارون رئيس بيت
الحكمة ببغداد ، وكتاب لصوص العرب ، وكتاب أدعياء العرب لأبي
عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب مثالب العرب والإسلام ليونس بن أبي
قروة ، وقد شخص به إلى إمبراطور الروم ، فأعطاه جائزة (١) .

ولأنه لمن الخير الكثير أن هذه الكتب وأمثالها قد فقدت ، ولم
يبق منها إلا فقرات أو رسائل قصار نعث عليها في بعض كتب الأدب
مثل كتاب العرب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد
الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة .

والعجب أن المأمون لم يجد بأساً في مؤلفات سهل بن هارون القيم
على بيت الحكمة في عهده ، ولا في مؤلفات معاصريه ، لأن بعض
الشعوبية كانوا من خاصته .

وعمد خصوم العرب إلى كل فضيلة من فضائلهم فمسحوها مسحوا
وشوهوها تشويهاً ، وتنقصوا من أقدارهم في كثير من شؤون الحياة .
فعاوبهم بتخلفهم في آفانين الحرب ، وأنواع السلاح ، وسخروا

(١) الأغاني ٧٦/١٣ وآمال المرتضى ٨٩/١ .

من مواقفهم الخطابية إذ يكثرون من الإشارة بأيديهم أو بمحاضرهم (١) وعصيتهم وقبيحهم .

وأنكروا عليهم فصاحتهم وبراعتهم الخطابية ، وقالوا إن الأمم كلها تستطيع الخطابة ، حتى الزنج الأغنياء يستطيعون أن يطيلوا الخطب ، ثم زعموا أن الفرس واليونان والهنود أقدر على الخطابة الممتازة بالأفكار والتعبير الجيد .
من أمثلة ذلك قولهم :

« لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج ورمانة القبان ، ومثل فلسفة الروم في ذات المخلوق ، والقانون ، والاصطرلاب »

ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصمها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهاها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالدثاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً (٢) .

٣ — اختلاقتهم أقاصيص وأحاديث نبوية

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بأسلحة أخرى أشد خفاءً ، وأسرح نفاذاً ، وأسهل تصديقاً ، فالذي يقرأ كتاباً في مفاخر العجم أو في

(١) المحصرة . المعصاة والمقرعة والمكازاة والقضيب . (٢) العقد الفريد ٢/٢٥٥ .

مثالب العرب يتراءى له الشك فيما يقرأ ، وكثيراً ما يعرضه على موازين من عقله وخبرته وثقافته فيرفضه ، عمد بعض المتعصبين على العرب من الفرس إلى طريقة جديدة لا يعترضها شك أو رفض ، هي أنهم اختلقوا أخباراً وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسروا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا في الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث ما يرفع من قدرهم (١) . كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٢) « فقل من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سلمان الفارسي ، وقال : هذا وقومه ، والذي نفسى بيده أو كان الإيمان منوطاً بالشريا لناله رجال من فارس . وكزعمهم أن العجم ذكرت عند رسول الله فقال : « لأنابهم أوثق منى بكم » ، وزعمهم أن رسول الله قال : « سيأتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المداين كلها إلا دمشق » . وقال : « لاتسبو فارسا ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا » .

كذلك ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أبى حنيفة وافتخر به ، فقال : إن آدم افتخر بى ، وأنا أفتخر بى رجل من أمتى اسمه نعيمان وكنية أبو حنيفة ، هو سراج أمتى ، وقوله : إن سائر الانبياء يفتخرون بى وأنا أفتخر بأبى حنيفة من أحبه فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى . على أن الزنادقة من الفرس حاولوا تحت ستار الإسلام الذى اعتنقوه ظاهرياً أن يفسدوا عقائد المسلمين بطرق شتى ، منها وضع أحاديث

(١) الإصابة وتيسير الوصول وابن عابدين ورسائل البلغاء .

(٢) سورة محمد ٣٨

سبوية نبيل المسلمين وتدعهم من أمور دينهم في حيرة ، كالذى فعله عبد الكريم بن أبي العوّجاء ، وقد اعترف حين قتله المنصور بأنه وضع أربعة آلاف حديث افتراها على الرسول .

يقول ابن الأثير : « فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة ، أخذوا في وضع الأحاديث المكذوبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم بأشور قد ضبطها المحدثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطنن عليه ، وألقوا إلى كل من وثقوا به أن لكل عبادة باطنا ، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ، ولا حرّم عليهم شيئاً ، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأنخوات ، وإنما هي قيود للعامة ، ساقطة عن الخاصة ، وكانوا يظهرون التشيع ليستروا أمرهم ، ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم في البلاد ، وأظهروا الزهد والعبادة ، ليغروا الناس بذلك وهم على خلافه . . . وتفرقت هذه الطائفة في البلاد ، وتعلموا الشعبذة والنانرجيات والنجوم فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد .

٤ — ادعائهم التوحيد وتقديس الكعبة

لجأ الفرس إلى وسائل أخرى يبدو ظاهرها بعيداً عن الشعوبية وعن الانتقاص من قدر العرب ، ولكنها في حقيقتها منافسة للعرب في شرفهم بأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وفي فخرهم بأنهم سكّنة بيت الله منذ رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده إلى اليوم .

فزعم الفرس أن لأجدادهم سابقة إلى التوحيد ، ليُفضّلوا العرب
الذين كان أجدادهم عبدة أصنام ، وزعموا أن بعض سلفهم كانوا
يحجّون إلى الكعبة ، ويهلّون إليها وهم يريدون بهذا أن يشاركوا العرب
في هذا الفخار . يقول المسعودي : وقد كان أسلاف الفرس يقصدون
البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم عليه السلام ،
وتمسكاً بهديده ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك ، وهو جد
أردشير بن بابك ، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه
كرجوع الروائية إلى مروان بن الحكم وخلفاء العباسيين إلى العباس
ابن عبد المطلب .

فكان ساسان إذا أتى البيت الحرام طاف به وزمزم على بشر إسماعيل ،
فقليل إنما سميت زمزم لزمزمته عليها هو وغيره من فارس ، وهذا يدل
على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البشر ، وفي ذلك يقول
الشاعر في قديم الزمان :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفها الأقدم
ويقول شاعر فارسي بعد ظهور الإسلام :

ومازلنا نحج البيت قديماً ونُثْنِي بالأباطح آميناً
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف ديناً
فطاف به وزمزم عند بشر لإسماعيل تُروى الشاربيناً
وقد كان ساسان أهدي إلى الكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوها
وذهباً كثيراً فقذفه في زمزم .

وأضاف الفرس إلى هذه المزاعم زعماً آخر يصلهم بالأنبياء ، فقد
(تيارات ثقافية)

ذكر المسعودى (١) أن الناس تنازعوا في أنساب الفرس ، ويفهم من هذا التنازع أنهم يرجعون إلى سام بن نوح أو إلى يوسف بن يعقوب أو إلى لوط أو إلى إسحاق بن إبراهيم ، وأرادوا أن يضيفوا على هذا الزعم ثقة الناس ، فنحلوا جريراً شعراً يردد هذا الفخار .

٥ - في المنصب الكبيرة

من الطبيعي أن تهب أعاصير الشعبية على المناصب الكبار فتزعزعها أحياناً أو تعصف بها أحياناً . وقد كانت الوزارة والقيادة أكثر تعرضاً لهذه الهزات ، وبخاصة في العصر العباسي الأول ، إذ رأينا بضعة من الوزراء يُقتلون ، وأغلب الظن أن تنافس الكبار من سادات العرب وأشراف الفرس ، وتغصب بعضهم على بعض ، كان من أسباب العزل والقتل ، فصار من المألوف أن يعيش الوزير متخوفاً على حياته ، وأن يرفض بعضهم منصب الوزارة حينما يعرض عليه ، حتى إنه لا عجب في أن ودَّ الشاعرُ لمدو ممدوحه أن يكون وزيراً :

إن الوزير وزير آل محمد أوْدَى ، فمن يشنأك كان وزيراً
وحسبنا هذه الأمثلة :

١ - كان أبو أيوب المورياني وزير المنصور جالساً في الديوان يصرف شؤونه ، فأتاه رسول الخليفة ، فامتقع لونه ، وطارت عصفير رأسه ، وذعر ذعراً شديداً ، فسأله الجاحظ ومن حضر ، فقال لهم : لو علمت ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما يترون من تمكني حالي (٢) .

(١) مروج الذهب ١/ ١٩٦ .

(٢) الحيوان ٢/ ١٣٢ .

— ١٦٣ —

٢ - وعرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد بعد أن قتل المأمون وزيره الفضل بن سهل ، فرفض ، وقال : لم أر أحدا تولاهما وسلمت حاله .

٣ - وكان نعيم بن أبي حازم العربي يتنافس مع الفضل بن سهل الفارسي في مجلس المأمون ، فأنهى الفضل على العلويين ، وأيد نقل الخلافة إليهم ، فقال له نعيم : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني النباس إلى ولد علي ، ثم تحتال عليهم فتصير ملكا كسرويا (١) .

٤ - وكان الأفشين القائد الفارسي للمتصم وكان أبو دلف العجلي القائد العربي ، وكان الأول يكره العرب أشد الكره ، وكان أبو دلف «شز درويشه» ، ويعتمد على مكانته في عجل وغيرها من ربيعة ، ويستحق إشادة الشعراء بكرمه وشجاعته ، وهم الأفشين بقتله أولا أن أحمد بن دؤاد قاضي المأمون والمعتصم سارع إلى الأفشين وهدده .

٦ - الثورات الانفصالية

كذلك تجلت الشعوبية في ثورات انفصالية تام بها الفرس ، ليقوضوا الحكم العربي ، ويسترجعوا ما كان لهم من استقلال ، وهذه أمثلة منها :

١ - لما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) هاج جنده واستلوا سيوفهم ، واعتزموا على الأخذ بثأره ، لكن المنصور استرضاهم بالمال ، وأقنعهم بخيانة أبي مسلم وفساد طويته ، فانصرفوا راضين .

(١) الوزراء والكتاب ٣٩٧ .

لكن الثورة لأبي مسلم لم تلبث أن قامت في العام التالي بالجزيرة وفارس إذ ذهب أهل فارس بقيادة سونباز المجوسى للأخذ بثأر أبي مسلم واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد ما بين الرى ونيسابور ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء إلى أن أخذ المنصور الثورة ، وأخضع الثوار .

٢ - ولقد يكون من محاولة الثأر لأبي مسلم أن ثار في سنة ١٤١ هـ جماعة من خراسان هم الراوندية (١) ، وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم حلت في زعيمهم عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل ، واجتمعوا حول قصر المنصور في الهاشمية (٢) ، فجعلوا يقولون : هذا قصر ربنا ، ويطوفون به ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم وقبض على مثنين منهم ، وسجنهم ، فغضب الآخرون وهجموا على السجن ، وأخرجوا أصحابهم ، فخرج المنصور لإخماد فتنتهم ، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العربى العظيم معن بن زائدة الشيبانى ، وجاءت قوات الجيش فحملت على الثوار وقتلتهم جميعاً .

٣ - ثم ثارت المقتنة في عهد المهدي سنة ١٥٨ هـ و ١٦٠ هـ - أتباع هاشم بن حكيم المعروف بالمقنن - لأنه كان يخفى قبج وجهه ودمامة خلقه بقناع من ذهب - وزعموا أن روح الله ظهرت في آدم ثم في نوح ثم في أبي مسلم ثم في المقنن ، وادعوا أن الدين اعتقاد لاعمل ، وكان عددهم كبيراً ، ولكن المهدي انتصر عليهم ، وهؤلاء هم الذين يسمون (المبيضة) لأنهم اتخذوا اللباس الأبيض شعاراً لهم .

(١) الراوندية بلدة قرب قاشان .

(٢) الهاشمية مدينة أسسها أخوه أبو العباس .

٤ - وما كاد المهدي يفرغ من القضاء على المقنعة أو المبيضة حتى دوى ندير ثورة المحمرة في إقليم جرجان ، وهي طائفة اتخذت اللباس الأحمر شعاراً لها ، وكانت لها تعاليم هي خليط من المزدكية والمناوية ، نشرتها بين الناس في خراسان وغربي فارس والعراق .

نهض المهدي ليقضي على هذا المذهب الهدام الذي نشر الرذيلة ، وفصم الروابط الأسرية وأسقط من هيبة الحكومة ، وزعزع الثقة في النظام الديني والاجتماعي ، وأباح اختطاف الأولاد والنساء ، وتذرع المهدي بالقسوة في محاربة المحمرة حتى فلّ قواهم ، وأراح الشعب من شرورهم .

٥ - في عهد المأمون ثار بابك الخُرَّمي (٢٠١ - ٢٢٢ هـ) وهو من كورة في شمال فارس ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه الإباحي من خمر ونكاح للمحرمات واجترأ على المناكر واللذات ، وكان - كما يقول ابن النديم - يزعم لأتباعه أنه إله ، ولاشك أن مذهبه امتداد أو إحياء للمزدكية .

عرف المأمون خبره ، فعزم على مطاردته ، والقضاء عليه وعلى مذهبه الهدام ، فندب لحربه يحيى بن معاذ ، فلم يستطع أن يغلبه ، فاختار قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد ، فعجز أيضاً ، فرماه بقائد ثالث فهزمه بابك وأسره ، ثم قتل القائد الرابع BIBLIOTHEQUE ALEXANDRINE مكتبة الإسكندرية ابن حُميد الطوسي ، وبدد عسكره ، فرثاه أبو تمام بقصيدة من عيون قصائده يقول فيها :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عُرُ
تُوِّيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السَّفر السَّفرُ

ففي مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وقد كان قوت الموت سهلاً فردّه إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
واستفحل أمر بابك ، وكثر أتباعه من أهل الجبال من همدان
وأصبهان وماسبذان وغيرها ، وشغل المأمون عنه بالدولة البيزنطية ،
ثم مات المأمون ، وكتب قبل موته يوصي أخاه المعتصم بالقضاء على
بابك « والمخومية فأغزهم ذا حزامه وصرامة وجلد ، واكْبَنُفَه بالأموال
والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم
بمن معك من أنصارك وأولياك ، واعمل في ذلك مقدّم النية فيه ،
راجياً ثواب الله عليه (١) » .

لم يتوان المعتصم في القضاء على بابك الذي عظم شأنه في آذربيجان
حتى همدان ، فاختر قائداً تركيا هو المعروف بالأفشين ، وسيره إليه
سنة ٢٢٠ هـ ، وجعل الأفشين يحارب بابك سنتين حتى انتصر عليه
سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ هـ) وفر بابك إلى أرمينية ، فقبض عليه أحد
أمرائها وسلّمه إلى المعتصم ، فاستراح العباد ، وفرح الخليفة ، حتى إنه
لما اقترب من سامرا كان الخليفة يرسل إليه كل يوم حلة شرف وهدايا
ثمينة ، ثم تلقاه هو وأشرف الدولة ، وأمر بقتل الثائر ، وصلب جثته ،
وقطع رأسه وأرسلها إلى مدن خراسان .

ويقال إن بابك هزم ستة قواد ، وذبح خمسة وخمسين ومئتي
آلف ، وأسر ثلاث مئة وثلاثة آلاف رجل وست مئة وسبعة آلاف
امرأه ظلوا في أسره حتى خلصهم الأفشين (٢) .

(١) الطبري ١٠/ ١٢٤ .

(٢) الطبري ١٠/ ١٣٦ - ٣٣٢ .

٦- ثم لم تلبث بعض الثورات أن نهجت ، ونشأت دويلات انفصلت عن الخلافة .

قامت الدولة الصفارية بإقليم سجستان ، وطمع يعقوب الصفار في أن يستولى على بغداد والعراق ، فخرج إليه الخليفة المعتمد بجيش كبير وانتصر الخليفة في مدينة واسط سنة ٢٦٢ هـ وعاد يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس .

وكان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى في استرداد الفرس استقلالهم .

ثم قامت الدولة السامانية فأسقطت الصفارية وأسقطت الزيارية بطبرستان وحكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ .

وفي أثناء ذلك عظم شأن آل بويه أمراء الديلم منذ سنة ٣٢٠ هـ في خلافة الراضى ، وعظم بالشرق نفوذهم ، وصاروا خطرا على الخلافة العباسية ، ثم اتسع ملكهم حتى استولى معز الدولة البويهى على بغداد في خلافة المستكنى سنة ٣٣٤ هـ ، ومكنوا يحكمون العراق وفارس من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ . (٩٤٦ - ١٠٥٥ م) . وكان فتحهم بغداد أشنع نذير بوأد الخلافة وتحقيق الخلفاء ، إذ خلع معز الدولة الخليفة المكتنى وسَمَلَ عينيه وسجنه ، وولى الفضل ابن عمه الذى لقب بالمطيع لله ، ثم تجرأ الفرس والترك على الخلافة والخلفاء بالعزل والتقتيل والتمثيل ، واستأثروا بالسلطة ، ولم يبق للخليفة إلا أنه رمز دينى ضئيل ، أو ظل من صرح كانت تشرئب إليه الأعناق .

ردود العرب على الشعوبية

١ - لم يتغافل الشعراء العرب عن هذا التهجم ، فجعلوا يقابلونه
بتهجم مثله ، وحسبنا أن نمثل ببعض ما قالوا ، لأن موضوع هذا الفصل
مقصود على أثر الفرس في الشعوبية .

قال فارسي في فخره بالفرس وتنديده بالعرب :

بهاليلُ غرٌّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لامن عُرَيْنَةَ أَوْعُكُل (١)
هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لاراضة الشاء والإبل

فرد عليه عربي بقوله :

لا تَقُلْ إنك من فارس في معدن الملك وديوانه
لو حَدَّثْتُ كسرى بلدا نفسه صفعته في جوف إيوانه

وقد تعصب الفرس للراوية أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وقدموه
على الأصمعي الراوية العربي ، وحاول إسحاق الموصلي الفارسي الأصل
أن يرفع من قدره ، ويحط من قدر الأصمعي عند الفضل بن الربيع
بقوله :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيده
وقدمه وآثره عليه ودع عنك القريند بن القرينده (٢)

ولم يكتف بهذا ، بل أوغر صدر الرشيد على الأصمعي ، واتهمه
بنكران الصنعية ، وضعة النفس ، وزكّي أبا عبيدة ، وما زال يدس

(١) بهاليل : جمع بهلول وهو السيد . غر : جمع أغر وهو المشهور . ذؤابة : أعلى . عرينة
وعكل : قبيلتان عربيتان .

(٢) يريد بالقريند الأصمعي .

للأصمعي عند الرشيد وعند الفضل حتى وضع مرتبته ، فبعثوا إلى أبي عبيدة يستقدمونه (١) .

لما حدث ذلك هجا الأصمعي البرامكة بقوله :

إذا ذُكِرَ الشُّرْكُ في مجلس أضاعت وجوه بني بَرْمَكِ
ولأن تُلِيَتْ عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مَزْدَكِ

ثم حمل المتنبي على العجم ، وسخر منهم ، وضاق بهم وقال إنهم عبيد يحكمون العرب ساداتهم ، ويعيشون في ترف ، وقد كانوا في سابق أمرهم أجلافا ، فلا صلاح للعرب مادام هؤلاء العجم يحكمونهم ، قال في قصيدة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي :

ولمّا الناس بالملوك وما تفلح عُربٌ ملوكها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذمٌّ
بكل أرض وطئتُها أمم تُرعى بعبد كأنها غم
يستخشن الخَزَّ (٢) حين يلمسه وكان يُبَرِّى بظفره القلم (٣)

٢ - وانبرى لتفنيد مزاعم الفرس والرد عليهم علماء من العرب ، كابن قتيبة في كتابه (العرب) (٤) والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) (٥) .

من هذا قول ابن قتيبة : « كان أبو عبيدة معمر بن المثنى أغرى

(١) الأغاني ١٠٧/٥

(٢) الخز : الحرير .

(٣) ديوان المتنبي ٢٣٠/٢ .

(٤) رسالة نشرها مع (رسائل البلغاء) الأستاذ محمد كرد علي صفحة ٢٧١ .

(٥) الجزء الثالث خاصة .

الناس بمشائم الناس ، وألهجهم بمثالب العرب وحاله في نسبه حال نكره
أن نذكرها ، وهي مشهورة (١)

ولما امتدت الشعبية إلى الأندلس ألف ابن غرسية رسالة في التهجم
على العرب ، فرد عليه يحيى بن مسعدة وأبو جعفر أحمد البكنسى
وأبو الطيب القروي وغيرهم (٢) .

من رد الجاحظ على الشعبية قوله : «جملة القول أنا لانعرف
المُخْطَبَ إلا للعرب والفرس ، فأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكتب
مخلدة ، لاتضاف إلى رجل معروف... ولليونانيين فلسفة وصناعة
منطق ، وكان صاحب المنطق - أرسطو - نفسه بكى اللسان ، غير
موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ، ومعانيه ، وهم
يزعمون أن جالينوس - الطبيب الفيلسوف - كان أنطق الناس ، ولم
يذكره بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ،
فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، وعن
مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب .

وكل شئ للعرب فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست
هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما
هو أن يصرف وهمته إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح
على بثر ويحدو ببعير ... فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الألفاظ
انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يندرس أحدا من وكده .

(١) رسائل البلاغة ٢٧١ .

(٢) الجزء الثالث من نوادر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هارون .

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقلر ، وله أقهر ... وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله (٢) .

والذي نستخلصه من كلام الجاحظ أنه لا ينكر أن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم علم وفلسفة . كما كان للهنود واليونان ، ولم ينكر أن الفرس كان فيهم خطباء ، لكنه وصف خطباءهم بالتفكير الطويل والإعداد المتأن ، والدراسة للكتب ، وإذا فقد تميز العرب بفصاحة اللسان ، ومواتاة البدية ، وإسعاف الخاطر .

٣ - وإذا كان الفرس الشعوبيون قد اختلقوا أحاديث نبوية تشيد بهم ، وترفع من أقدار علمائهم ، فإن العرب قابلوا سلاحهم هذا بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله تختصهم بالتسكير والتفوق ، منها قول النبي (ص) : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي » ، وقوله : « إذا اختلفت الناس فالحق في مضر » . وقوله : « أحبوا العرب لثلاث : لأنني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » .

٤ - وربما كان من مقابلة العرب للفرس بسلاح من جنس سلاحهم ما رووه عن ابن المقفع في تفضيل العرب على سائر الأمم ، إذ روى أن جماعة اجتمعوا بالمرئذ ومعه ابن المقفع ، فسأله ابن المقفع : أي الأمم أعقل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ، وظنوا أنه يقصد الفرس ، فقالوا : فارس . فقال ابن المقفع : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض

(١) البيان والبيتين ٣٧/٣ أرسلوا : أفواجا . لا يدرسه : لا يعلمه .

وغلّبوا على كثير من الخلق ، لكنهم لم يستنبطوا بعقولهم شيئاً . قالوا : الروم ، فقال : أصحاب صنعة : قالوا : الصين ، فقال : أصحاب طرفة . قالوا : الهند ، فقال : أصحاب فلسفة ... قالوا له : فقل ، فقال : العرب . فضحكوا ، فقال : إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مُثل لها ، ولا آثار أُثِرَتْ ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم وجود أحدهم بقوته ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء ويفعله فيصير حجة ، ويُحَسِّن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألستهم ، وبهم افتتح الله دينه وخلافته إلى الحشر ، فمن وضع حقهم فقد خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصِمَ (١).

٥ - على أن بعض المنصفين من أبناء الفرس لم يرتضوا نزعة الشعوبية ، فنهضوا ليقاوموها ، ويردوا على دعايتها .

من هؤلاء الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ (١٠٧٤ - ١١٤٣ م) فقد كان مغرماً باللغة العربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثراً للعرب يرفعهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطاً وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي ينشق على العرب اليوم سينشق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ المشترك والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ،

(١) العقد الفريد ٢/ ٥٠ .

ولما تطرق الوهن إلى الصرح الأثم الذى يتربص به أعداء الإسلام
أيما تربص .

قال الزمخشري في مقدمة كتابه المفصل : « الله أحمد على أن جعلني
من علماء العربية ، وحملني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبلى أن
أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنصوى إلى لفيف الشعبوية وأنحاز ،
وعصمني من مذهبهم الذى لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين (١)
والمشق (٢) بألسنة الطاعنين .

ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون
أن يخفضوا مافزع الله من منارها - حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة
كتبه في عجم خلقه ولكن في عربيه - لا يبعدون عن الشعبوية معاندة
للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ... والذى يقضى منه العجب حال
هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون
علماء من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها
إلا وافتنقاره إلى العربية بئين لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع (٣) .

وجهر بتفضيل العرب في قوله (٤) : العرب نبع صلب المعاجم ،
والغرب مثل للأعاجم (٥) . وفي قوله (٦) : فرقك بين الرطب والعجم (٧)

(١) الرشق الإصابة بالمكروه .

(٢) المشق : سرعة الطعن .

(٣) شرح المفصل ١/٣-١٦ .

(٤) نوابغ الكلم ٧ .

(٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه مقس . الغرب : شجر ضعيف رخو .

(٦) نوابغ الكلم ٣٨ .

(٧) المعجم : نواة التمر .

هو الفرق بين العرب والعجم ، ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر من الشنوبية في قوله (١) :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم لسان فُشُو الضوء واليوم شامس ؟
به عَجَّ في أمصارها كل منبَرٍ وطنت به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسبهم في نخصلة أو تلابر
أجلُ رسولٍ منهم وبلسُنهم أجلُ كتابٍ فاعتبر يا منافس
وقل للشعوبيين إن حديثكم أضليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهبٌ فسَلُّ يُغَرُّ بمثله أشايبُ حمقى لا الرجال الأكابر
وله في هذا المجال جهاد مشكور (٢) .

عاقبة الصراع

١ - الحق أن ثورات الفرس المتعاقبة أظهرت ما كان المجوس يضمرون للإسلام من شر ، وأن كثيراً منهم كانوا يعتنقون الإسلام رياءً وخدعة ، ويترقبون الفرص لإعادة ملكهم والعودة إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمقنع الخراساني وغيرهما إلا دليل واضح على ذلك .
وقد انتهى الصراع الجنسي بتغلب الفرس والترك على العرب في شؤون السياسة والحكم ، أما العرب فقد ظلوا منتصرين بدينهم ولغتهم ، إذ عني الإسلام على المجوسية ، وبقيت العربية سائدة ، حتى إن الفرس كانوا يقبلون على تعلمها ، ويتنافسون في إجادتها ، ويرون أنه من نقص المروعة التكلم في بلد عربي بالفارسية (٣) ، وحسبنا أن العربية كانت

(١) ديوان الزمخشري ٦١ مخطوط .

(٢) الزمخشري . المؤلف .

(٣) عيون الأخبار ٢٩٦/١ .

هى اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية ، فى العصر العباسى الأول .
وأن أكثر الكتاب فى ذلك العصر يرجعون إلى أصل فارسى ، وأن كثيراً
من العلماء الذين دونوا اللغة ووضعوا قواعدها ورووا أديها كانوا من
الفرس .

٢ - على أن هذه التيارات لم تكن كلها شراً محضاً ، فقد حملت
بعض الخير « إذ رأت الشعوبية كل شئ للعرب يمجّد ، من نسب عربى ،
ولغة عربية ، ورأى عربى ، وعادات عربية ، فأخذ الشعوبيون يعرضون
هنا للنقد والتحليل ، عرضوا أنساب العرب للنقد ، كالذى فعل
أبو عبيدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب ، فيبين
أن النسبة كاذبة مختلفة ، وفى كتاب الأغاني عن أبى عبيدة من
هذا كثير .

وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيبويه فى كتابه يخطئ العرب
فى بعض أقوالها ، ويدعى العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد
الشعوبية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ، ولها خطب ، ولها حكم ،
لا تقل عن العرب ، وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى
للعادات ، ففيها الحقير المرذول ، والجيد المحمود .

كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه وهى :
عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم ، فتعرض
الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية ، والحكم الأجنبية بجانب
البلاغة والحكم العربية ، والنظام الفارسى ، والأدب الأجنبى بجانب
النظام والأدب العربيين ، وهذا - من غير شك - مفيد للعلم والعقل (١) .

الفصل السّاسن آبشار الفرس في مفردات اللغة

تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الأزياء والفُرُش والأثاث والآنية ، وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها بأسمائها الفارسية أو اليونانية أو الهندية .

على أن العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم في هذا الوقت الذي شرقت فيه وغربت ، بل صارت لهم وللشعوب التي أسلمت وأقبلت على تعلم لغة الإسلام ، ولاشك أن هؤلاء المستعربين لا يتعصبون للغة العربية كما يتعصب لها أبناؤها ، ولاشك أنهم أسرع ذكراً لكلمات من لغاتهم تؤدي ما بنفوسهم من بعض المعاني ، أو تدل على أشياء ليس في العربية دلالات عليها ، أو فيها دلالات لم تجر على ألسنتهم .

لهذا اتسع المجال لدخول كلمات أعجمية في اللغة العربية أكثرها فارسي .

لكن العرب في نقلهم عن الفرس وغيرهم لم يسلكوا طريقة واحدة في التعريب ، فقد نطقوا بعض الكلمات على أصلها ، وصقلوا بعضها الآخر صقلا يلائم نطقهم ، كما أنهم أحياناً رجعوا إلى لغتهم فتوسعوا في دلالاتها .

تناظر عربي وفارسي في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، فقال الفارسي للعربي : « ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا في تسمية ، ولقد

ملككم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم ، حتى إن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ماسميننا ، لم تغيروا منه شيئاً ، كالإسفيداج ، والسكباج ، والدوغباج والسكنجبين والخلنجين والجلاب والرزنماج والأسكدار ، ومثل هذا كثير (١) . فسكت العربي ، فقال له يحيى : « قل له اصبر لنا غلك كما ملككم ألف سنة بعد ألف كانت قبلها ، لانحتاج إليكم ولا إلى شئ كان لكم .

من الكلمات الفارسية العربية في العصر الأموي والعباسي :

الجوسق : القصر ، أصله كوشك أى صغير ، قال النعمان بن عدى - وكان عمر بن الخطاب قد ولاه ميسان ، كورة بين البصرة وواسط :- لعل أمير المؤمنين يسوؤه تناؤمنا في الجوسق المتهدم الصبهد : مثل الأمير في العرب ، قال جرير :

إذا افتخروا عدوا الصبهد منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا
الكرد : معناه بالفارسية العنق ، وأصله كردن ، وقد جاءت

الكلمة في شعر جرير :

وكنا إذا القيسي نب عتوده ضربناه دون الأنثيين على الكرد (٢)
وجاءت في قصيدة للعمالي بمدح الرشيد :

من يلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
تحول بين رأسه والكرد (٣)

(١) الاسفيداج : رماد الرصاص . السكنجبين والسكباج : طعام من لحم وزيت وبنات طيب الرائحة . الخلنجين : الخلج يفتح الخاء شجرة تصنع منها السهام . الجلاب : ماء الورد . الرزنماج والرزنامة : دفتر يوى للحساب ، وجريدة يومية . الأسكدار : صاحب البريد ، وحقيقته ، وصندوق البريد . الدوغباج : اللبن الخاثر .

(٢) نب : صاح . العتود من أولاد المزمزمى وقوى . الأنثيان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٢ مسرند . غالب . زغفة : درع لينة واسعة محكمة .

الخسروانى : الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، نسبة إلى عظماء
الأكاسرة ، قال الفرزدق :

لَيْسَ الْفِرْنْدُ الْخُسْرَوَانِيُّ فَوْقَهُ مشاعر من خَزَّ العراق المَفُوف (١)
آب : ماء ، روسبيد : بيضاء الوجه .

قال يزيد بن مُقَرِّغ الحميري :

آبَ اسْتُ نَبِيْدَ اسْتُ عَصَارَات زَبِيْبَ اسْتُ
سُمِيَّة رُوسَبِيْدَ اسْتُ (٢)

مَسْتِي : سُكَّر وإدمان

بَايْخُسْتُ : موطوءة بالأقدام

قال أسود بن أبي كَرِيْعَة :

لَزِمَ الْعُرَامُ ثَوْبِي بُكْرَةً فِي يَوْمٍ سَبَبِ
فَتَمَايَلْتُ عَلِيمَ مَيْلَ زَنْكِيٍّ بِمَسْتِي

قَدْ حَسَا الدَاذِيَّ صِرْفًا أَوْ عَقَارًا بَايْخُسْتُ (٣)

الْفُسْتُقُ : ثمرة معروفة ، قال الراجز :

وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبَقُولِ الْفُسْتُقَا

النَّيْرُوز : عيد الربيع عند الفرس ، قال البهثري :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلَقُ يَخْتَالُ ضَا حَكَ من الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

(١) أى ليس الخسروانى مشاعر فَوْقَهُ المزين من حرير العراق .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ است : فعل من أفعال الكينونة في الفارسية . روسبيد :
مكونة من رو وهو الوجه وسبيد بمعنى أبيض ، والمراد أنها مشهورة ، يريد أن النبيذ ما هو
إلا ماء لأنه عصارة الزبيب .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٣ الفرام : جمع غريم وهو الدائن المطالب : زنكي بالفارسية
زنجي . داذي : ثبت له حب كالشعير يضاف إلى الخمر فيزيد فعلها .

وقد نبه الفيروز في غسق الدجا أوائل وردكن بالأمس نوماً
 المِهْرَجَان : عيد الخريف عند الفرس ، قال ابن الرومي :
 يَمْنُ الله طلعة المهرجان كل يَمْنُ على الأمير الهيجان
 آذريون : معرب آذركون أى لون النار يطلق على ورد أحمر ،
 الورق أو أصفره مع سواد وسطه فيهما ، قال ابن المعتز :
 كَانَ آذريونها والشمس فيه كاليه
 مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه
 يَرّ : بمعنى الكأس المملأ ، قال إبراهيم الموصلي :
 إذا ما كنت يوما في شُدَاه (١) فقل للعبد يسقى القوم يراً
 فلن السقى مكرمة ومجد ومدفأة إذا ما خفت قرأ
 آبَ سَرَد بمعنى الماء البارد ، قال العماني :
 لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الخبزير الورد
 آلى يَلوق الدهر آب سَرَد

باغ : بستان ، قال البستي :
 لا تنكرن إذا أهديت نحوك من علومك الغر أو آدابك النثفا
 فقيم الباغ قد يهدى لصاحبه برسم خدمته من باغه التحفا
 ذكر الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم
 الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخبزير ،
 ويسمون السميطة الرزّدق ، ويسمون المصصوص المزوز ، ويسمون
 الشطرنج الإشرنج ، وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة
 بال ، ويسمون الحوك الباذروج .

(١) شدهاء : تبليل واضطراب .

وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مَرَبَّعة ، ويسمونها أهل الكوفة الجِهار سوك ، ويسمون السوق والسوَيْقة وازار ، والقشاة خيارا (١) الخ والخربز والرزدق وغيرها كلمات فارسية .

على أننا إذا رجعنا إلى « المعرب » للجو البقي وإلى « شفاء الغليل » للشهاب الخفاجي وجدنا ماثات من الكلمات الفارسية ، مثل : فِرْجُون (المِحْسة) وكعلك ونموذج (أصله نموذجة أى مثال) وديْدَبان (طليعة وريثة) ودَسْكره (بناء يشبه القصر حوله بيوت تكون للملوك) ، وزَرْجُون (أصله زَرْكون أى لون الذهب والمراد الخمر) وسَرْق (أصله سَرَه أى جيد والمراد الحرير) ولَوَزِينج (نوع من الحلوى) ومارستان (أصله بيارستان أى مكان الشفاء) ومهندس وهندسة وإيوان وأستاذ (الماهر بصنعتة) وأبزار (هو التابل) وبرق (أصله برَه وهو الحمل) وأزاد (نوع من العمر) وبرنكان (كساء) وبَذَرَقه (بمعنى خضارة وحراسة) واشتقوا منها « المَبْدَرِق بمعنى الخفير » ، وبارجاه (بواب السلطان) قال الحجاج لعل ابن أصمع جد الأصمعى : « قد وليتك البارجاه » ، ويبرم النجار (العتلة) وباذق (أصله باذَه) أى باق ، « والمراد الخمر الحمراء » ، وبَيْدَق (أصله بَيْدَه وهو رجل الحرب) ومنه جاءت الكلمة العامية بيادة أى راجل ، والجَرْدَق والجَرْدَقَة بالذال والذال (أصله كِرْدَه وهو الخبز الغليظ) والجَوْرَب (أصله كورب) والمجْوالِق (أصله كُوالَه) والصَّمج (القناديل ، الواحدة

(١) البيان والتبيين ١/١٩ السميطة . الأجر المرصوص ، والرزدق أصله بالفارسية هسته ومعناه السطر والصف من التخل وغيره ، المصوص : لحم ينقع في الخل ويطلق . الباذروح ربحانه معروفة .

صَمَجَة (والطُّسْت والطاجن (المغلى) والفالوذج والفالوذق والغالوز
 (حلواء من لب الحنطة) والبوتقة والزرنِيخ والبابونج والإسفيداج
 والأسطوانة والإقلم والقرطاق (أصله كَرْمَةٌ ، وهو شبيه بالقَبَاء) ، دعا
 أبو الفرات الحسنَ ، فلما وضع الطعام جاء الغلام وعليه قرطق أبيض
 فقال الحسن : أَخَذْتَ زَى العجم .

الفصل السابع

آثار الفرس في العلوم والآداب

الفرس أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة ، ومعرفة بالعلوم ، فهم ورثوا الآشوريين والبابليين في الرياضيات والطبيعات ، ونقلوا إلى لغتهم كثيراً من علوم الهنود ، ونقلوا من اليونان علوماً شتى منذ بعث سابور بن أردشير إلى بلاد اليونان يستجلب كتباً ، ويأمر بنقلها إلى الفارسية ، وقد حفظها في خزائنه ، وشجع على نسخها ودراستها .

ثم فر إلى فارس طائفة من الفلاسفة الوثنيين حينما اضطهد جوستينيان الوثنية ، وأغلق هياكلها ومدارسها ، فاستقبلهم كسرى أنوشروان ورحب بهم ، وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية ، ويؤلفون كتباً في الفلسفة والعلوم ، ويدرسون في معهد الدراسات الطبية والفلسفية الذي أنشأه كسرى أنوشروان بمدرسة جنديسابور (٥٢١ - ٥٧٦ م) ، فشاعت العلوم اليونانية بفارس كما شاعت من قبل علوم الهند والصين .

فلما اتصل العرب بالفرس ترجم بعض الفرس إلى اللغة العربية كتباً شتى في العلوم والتاريخ والسير والموسيقى والأخلاق ونظام الحكم ، وكان بعض الكتب المترجمة يونانية الأصل ، وبعضها فارسي الأصل ، لكن الذي يعنينا هنا هو النوع الثاني .

ولقد بدأت ترجمة التاريخ من عهد مبكر ، لحاجة الخلفاء إلى

معرفة نظم الحكم الفارسي وأساليبه ، فقد كان في مكتبة هشام ابن عبد الملك بن مروان كتاب في تاريخ الفرس وسياستهم ، ترجم من الفارسية إلى العربية (١) .

وكان الوزراء البارزون في العصر العباسي فرساً ، ولكنهم برعوا في اللغة العربية والأدب العربي ، فجلُّوا في نشر الثقافة الفارسية ومراجعتها بأدب العرب ، وربما كان من بواعثهم على ذلك أنهم أرادوا مباهاة العرب بما لهم من ثقافة وأدب .

وقد اشتهر البرامكة بتشجيعهم على نشر الثقافة الفارسية بالمال والتقريب ، إذ أوصاهم والدهم يحيى بن خالد بقوله :

« لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقي ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشرف والشكر فيهم أكثر (٢) »
ولقد كان كتابهم من الفرس .

على أن الفضل بن سهل نقل - قبل أن يكون وزيراً - كتاباً من الفارسية إلى العربية بمشورة من يحيى البرمكي ، فأعجب به ، ودعاه إلى الإسلام لينال ما يستحق من مناصب .

أما أهم ما نقلوه عن الفرس من علوم فهو التاريخ والسير والفلك والموسيقى والغناء .

وأشهر النقلة نوبخت وابنه الفضل الذى نقل من الفارسية كتاباً في النجوم وغيرها ، وعلى بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن ، نقل

(١) تراث فارس ٩٢ ترجمة الدكتور محمد كفاي وزملائه .

(٢) الوزراء والكتاب ٢١٥ .

من الفارسية كتاب زيح الشهريار ، والحسن بن سهل كان من المنجمين والمترجمين ، وإسحاق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة بأخبار نامه ، وعبد الله بن المقفع ترجم كتاب التاج في سيرة كسرى أنو شروان وكتاب « خداينامه » وهو تاريخ الفرس من مبدأ ملكهم إلى نهايته ، وسماه (تاريخ ملوك الفرس) وكتاب (آيين نامه) أى نظم الفرس وعاداتهم ، وكتاب (مزدك) .

وبما ترجم أبان بن عبد الحميد كتاب (سيرة أردشير) وكتاب (سيرة أنو شروان) وكتابا عن مزدك وكتابا عن بوذا .

كذلك ترجم آخرون عهد أردشير ، وكتاب موبد موبدان ، وكتاب أدب الحرب ، وتوقيعات كسرى .

وقد استقى المؤلفون تاريخ الفرس من الكتب التى ترجمها ابن المقفع وغيره فالمسعودى يذكر أنه قرأ بمدينة « اصطخر » سنة ٣٠٣ هـ كتابا عظيما فى أخبار ملوك الفرس وسياستهم وأحوالهم لم يجدها فى كتبهم التى قرأها من قبل مثل « خداينامه » و « آيين نامه » و « كهنامه » وغيرها . وعدد حمزة الأصبهاني ثمانية كتب فى تاريخ الفرس استمد منها ما كتبه فى تاريخهم ، منها « سير ملوك الفرس » ترجمة ابن المقفع .

ونجد فى كتاب « التاج » المنسوب إلى الجاحظ اقتباساً كثيراً جداً من نظم الفرس وعاداتهم وسلوكهم ، يخالطه اقتباس من المأثور عن العرب فى الجاهلية والإسلام .

وليس من شك أن الفرس الذين ترجموا من الفارسية إلى العربية ، والذين ألفوا فى العربية مؤلفات شتى فى أنواع المعرفة ، كان لهم نصيب عظيم فى توجيه الحركة العلمية والسير بها إلى الإمام .

وحينما نقول إن لهم نصيبا عظيما فإنما نعترف بآثارهم ونشيد
بفضلهم ، ولا نتناسى الطبرى والزمخشري والرازي والبخارى والبيروني
والفارابي ، وابن سينا وغيرهم ممن سنذكر أسماءهم .
لكننا لانسب الفضل كله إلى الفرس فنغبط العرب حقهم من
الفضل كما فعل ابن خلدون ومن ساروا على أثره .
ولكني سأرجئ مناقشة هذه القضية إلى مابعد .

الفصل الثامن

آثار الفرس في النشر الفنى

إقبال الفرس على اللغة والأدب :

منذ أواخر القرن الهجرى الأول تساندت عدة عوامل على فسح المجال لأبناء الفرس والمتأثرين بأدبهم ليظهر تأثيرهم في الأدب العربى شعره ونثره ، فلما استقام الملك لبنى العباس ، وتبوأ الفرس فيه مكاناً علياً ، ازداد مجال تأثيرهم اتساعاً ، وازدادت مظاهرهم في الأدب وضوحاً .

ذلك أن كثيراً من كتاب الدولة كانوا فرساً ، فقد كتب عبد الحميد ابن يحيى لبنى أمية ، وكان منصب الكاتب يقتضيه أن يكون واسع الثقافة ، متجدد المعرفة ، لأنه يعرض على الخليفة أو الوالى ما يرسل إليه ، ويكتب عنه ما يرسل منه ، فلم يكن بد للكاتب من إجادتهم العربية ومعرفتهم بالأدب الفارسى ، لهذا ألموا بحكم العرب وحكم الفرس ، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفرس ، وجمعوا بين حكم الخلفاء الراشدين وأحكم بن صيني ، وحكم بزرجمهر وكسرى أنوشروان .

يدل على تنوع ثقافتهم قول الجاحظ في بيان عيوبهم « إن الواحد منهم يتوهم إذا عرض جُبته وطول ذيله وعَقَص على خده صدغه ، أنه المتبوع لا التابع ، ثم الناشئ منهم إذا حفظ من العلم ملكه ، ورؤى لبزرجمهر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع

أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه . . . أنه الفاروق الأكبر في التدبير . . فيكون أول طعنه على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، . . . ثم يشيد بسياسة أردشير بابكان وتدبير أنوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حَلِرَ العيون وتفقدته المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول ، ومحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى مالا يدرك بالعيان ، وشبه بالشاهد الغائب (١) .

ثم إنه كثر في العصر العباسي أبناء الفرس العلماء بالعربية والفارسية ، وكان في العصر نفسه عرب يعرفون الفارسية ، وهؤلاء وأولئك كان لهم شعر ونثر فيه أفكار فارسية في قوالب عربية .

من الطائفة الأولى ابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيار الأسوارى ، يذكر الجاحظ (٢) أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، يجلس في مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يُدرى بأى لسان هو أبين .

وهناك كثير من أبناء الفرس كانوا قد برعوا في اللغة العربية وأجادوا الأدب العربي ، فأبو مسلم الخراساني كان يحفظ كثيراً من الشعر ، وأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالشعر والأخبار والجدل ، وكان البراميكة ذوى بلاغة عربية مشهورة ، يقول سهل بن هارون في

(١) ذم أخلاق الكتاب ٤٢ من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فinkel .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٦٨ .

وصف يحيى بن خالد البرمكى وابنه جعفر : لو كان كلام يُتصوّر
دُرّاً ، أو يحيله المنطق السرىّ جوهرّاً لكان كلامهما « والمنتقى من
لفظهما .

وقد عهد الرشيد إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكى أن يشاركه في
التوقيعات ، فتحول التوقيع إلى منصب ، ومن توقيعات جعفر بن يحيى
البرمكى لعامل كثر التظلم منه : « قد كثر شاكرك . وقُلْ شاكرك ،
فإما اعتدلت وإما اعتزلت » . ومن توقيعاته على طلب مستمنح وصله
مرات من قبل : « دع الضرع يدرك لغيرك كما در لك » .

وقد ذاع عن البرامكة تشجيعهم للبلغاء ، وحباؤهم للشعراء ،
وتحبيبهم إلى بنى جنسهم أن يتفوقوا في اللغة العربية ، ليحلّوهم في
الوظائف الكبار كما يتبين من أخبارهم في كتاب (الوزراء والكتاب)
وغيره .

ومن الطائفة الثانية الشاعر العباسى كلثوم بن عمرو المشهور
بالعتّاني ، فهو عربى من تغلب ، نهل من ثقافة الفرس ، واستهوته معانيهم ،
فنقل بعض كتبهم إلى العربية ، ولما سئل عن حرصه على النقل قال :
إن المعاني في كتب المعجم ، واللغة والبلاغة للعرب .

أولا — مظاهر في النثر الفنى

(١) القصص

ترجم كثير من الفرس الذين حلّقوا اللغة العربية كتباً شتى من
الفارسية إلى العربية ، يهمنها الآن كليلة ودمنة الذى ترجمه
ابن المقفع ، وقصة رسم واسنفديار التى ترجمها جبلة بن سالم (١) ،

وهزار أفسانه - ألف خرافة - وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة .
وكتاب خرافة ونزهة ، وكتاب الدب والثعلب ، وكتاب نمروذ
وغيرها .

أما كليلة ودمنة فإنه قد نقل في أيام كسرى أنو شروان من الهندية
إلى الفهلوية ، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل
Hertel على بعض الأصول الهندية الأولى ، كما عثر غيره على بعض
أبواب من الكتاب مفرقة ، ويرجحون أن باب « بعثة برزويه » وباب
« ملك الجرذان » من زيادات الفرس ، وأن في الكتاب فصولا زائدا
ابن المقفع (١) .

ولا شك أن كليلة ودمنة أول كتاب يقص على ألسنة الحيوان
قصصا مفصلة متداخلة ، ويورد على ألسنتها حكما وأمثالا وعظات .

ثم ألقت كتب شتى على غراره مثل (الصادح والباغم) لابن
الهبارية ، و « سلوان المطاع » لابن ظفر ، « فاكهة الخلفاء ومناظرة
الظرفاء » لابن عربشاه ، وهي مطبوعة كلها .

وقد نظم أبان الملاحق ، وابن الهبارية كتاب كليلة ودمنة شعرا ،
وإذا كان الأول لم تبق منه إلا مقطوعات فإن الثاني بقي وطبع ، فمن
نظم أبان للكتاب قوله :

هو الذى يدعى كليلة دمنه	هذا كتاب كذب ومخنه
وهو كتاب وضعته الهند	فيه دلالات وفيه رشد
حكاية عن ألسن البهائم	فوصفوا آداب كل عالم

— ١٩٠ —

والسحفاء يشتهون هزله
وهو عنى ذلك يسير الحفظ لئلا على اللسان عند اللفظ (١)
وأما ألف ليلة وليلة فقد ذكر المسعودى أنه فارسى كله ، وتبعه
ابن النديم (٢) .

ثم تعددت الآراء فى أصل الكتاب ، فمن قائل : إن أصله فارسى ،
وقائل إن أصله هندى ، وذهب إلى أنه حكايات فارسىة وهندية ،
وهناك من رأى أنه كتب كله فى العصر العباسى على أثر انتشار أخبار
الفرس ، وأقاصيصهم على ألسنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى
فى أماكن وأزمان مختلفة .

وبالغ بعض الباحثين فننى عن الكتاب أى أثر فارسى أو هندى
ثم أيد المسعودى فى روايته عالم ألماني مستشرق ، وذهب العالم
الإنجليزى (لين) إلى أن الكتاب كله بقلم كاتب واحد عاش بين
سنة ١٤٧٥ و ١٥٢٥ م .

وقسم العالم الألماني (مولر) الكتاب قسمين :

قسم كتب فى مصر وقسم كتب فى بغداد .

وقسمه بعضهم ثلاثة أقسام :

قسم نقل من الأصل الفارسى (هزار أفسانه) ، وقسم كتب فى
بغداد ، وقسم ثالث كتب فى مصر .

(١) فى كتاب الأوراق المصولة مخطوط طائفة من نظم أبان للكتاب .

(٢) مروح الذهب والفهرست .

وعقب المستشرق البلجيكي (شوفان) بأن القصص التي كتبت في مصر تولى كتابة بعضها يهود .^[٣]
وأغلب الظن أن أرجح هذه الأقوال هو أن الأصل الأصيل للكتاب القصص الفارسية ، وهي التي ترد فيها أسماء وأحداث فارسية ، مثل شهرزاد وشاه زمان ، وبه قصص هندية مثل قصة التاجر العارف بلغة الحيوان .

وهذا القسم الفارسي المخالط بدخيل من الهندي يصور ميل الأمتين إلى تضخيم الخيال ، والتصديق بعجائب المخلوقات وغرائب الأحداث ، كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الشكل ، وطير الرُخ العظيم الحجم . ثم ترجمت هذه القصص إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، ثم زيد عليها بعد ذلك قصص في بغداد وفي القاهرة .

وقد تأثر العرب بألف ليلة وليلة ، فألفوا قصصا على غرارها ، وأضافوها إليه ، بعضها كتبوه في بغداد ، وبعضها كتبوه في القاهرة . ثم ألفوا قصصا أخرى ، كما فعل الجهشيارى إذ ألف كتابا فيه ألف سمر من أسرار العرب والعجم - الفرس - والروم ، واجتمع له أربع مئة ليلة وثمانون ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، ولكن المنية عاجلته قبل إكماله ، وقد رأى ابن النديم منها عدة أجزاء (١) .

وكذلك ألفوا قصصاً عن أخبار العرب وحروبهم في الجاهلية مثل قصة البراق ، وقصة عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، ثم ألفوا قصصاً إسلامية مثل قصة مجنون ليلى والظاهر بيبرس .

(٢) الحكم والأخلاق

ترجم كثير من الفرس الذين حذقوا اللغة العربية وبعض العرب الذين حذقوا الفارسية كتباً شتى من الفارسية إلى العربية ، في الحكم والأخلاق والسلوك ، فترجم ابن المقفع كتاب (الأدب الكبير) وكتاب (الأدب الصغير) وكتاب خدائنامه في سير ملوك الفرس ، وترجم أبان اللاحق الرقاشي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان ، وترجم آخرون كتاب أردشير في التدبير ، وتوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب . وكانت هذه الكتب المترجمة مَعِيناً يستقى منه المثقفون من العرب والفرس ، حتى إن الشعوبية كانوا يقولون : من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند - صناعة المديح - ومن احتاج إلى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثالات ، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فليُنظر في سير الملوك (١) . وهم يريدون تاريخ ملوك الفرس

ومن هنا ترددت حكم الفرس وآراؤهم السلوكية منسوبة إلى أردشيريوزدجرد وبهرام وسابور وأنوشروان وبزرجمهر وغيرهم ، ترددت في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وماشاكلها من كتب الأدب العربي ، وأكثرها يلائم الطبع العربي الذي يميل إلى الإيجاز والتركيب ، وإن خالفته حيناً في دلالتها على كد الفكر وطول التروى والتدبير والإعداد والافتراض العقلي الذي لا يصدق الواقع ، لأن هذا نمط مغاير لكلام العرب المنبعث عن بدهة وارتجال .

— ١٩٣ —

من الأفكار الجديدة الى تدل على التعمق فى التفكير والتأثر بالعلوم العقلية قول ابن المقفع فى الأدب الكبير :

١- إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين ، إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع موطنه لك أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك ، وعورة يسترها منك ، وغائبه يطلع عليها ذلك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك .

وإن كان رجلاً من غير خاصة لإخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟ .

٢- ومنها قوله :

اخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضع ، فإنه ليس فى كل حين يحسن كل الصواب ، وإنما تمام إصابة الرأى والقول بإصابة الموضع ، فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على علمك حتى تأتى به - إن أتيت به - فى غير موضعه ، وهو لا بهاء له ولا طلاوة له ليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

٣- وكذلك قوله :

اعلم أن المُلْك ثلاثة : مُلْك دين ، ومُلْك حزم ، ومُلْك هوى ، فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعية دينهم ، وكان إدينهم هو الذى يعطيهم الذى لهم ، ويلحق بهم الذى عليهم ، أرضاهم ذلك وأنزل الساخط منهم منزلة الراضى فى الإقرار والتسليم .

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوى .

وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

(تيارات ثقافية)

٤- ومنها مانقاه الجاحظ :

قيل لبزرجمهر الفارسي : آى شىء أستر للعبي ؟ قال : عقل يُجَمِّله ، قالوا : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فمال يستره ، قالوا : فإن لم يكن له مال ؟ قال : فأخوان يعبرون عنه . قالوا : فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكون عيباً صامتاً ، قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ؟ قال : فموت وحى - سريع - خير له من أن يكون فى دار الحياة (١).

٥- ومنها ماذكره ابن قتيبة :

يروى عن بزرجمهر قوله : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لأنفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق ، فإنها لا تبقى ، أخذه شاعر فقال . فأنفق - إذا أنفقت - إن كنت موسراً

وأنفق - على ماخيئت - حين تُعسر
فلا الجود ينفى المال والجُدُّ مقبَلٌ

ولا البخل يبقى المال والجُدُّ مُدْبِرٌ (٢)

وقيل لابن المقفع . لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمسكاره ، فاقترصت على الخمول ضناً بالعافية .
أخذه العنابي فقال :

دعيني تمجنى ميتتى مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأساود (٣)
٦- وهذه فقرات من كتاب (التاج فى أخلاق الملوك) المنسوب إلى

الجاحظ (٤) يتبين منها لون من النظم والأخلاق المنقولة عن الفرس .

(١) البيان والتبيين ٧/١ بزرجمهر : حكيم فارس هو الذى قص تاريخ نسخ كتاب كلية ودمتة وترجمته من كتاب الهند .

(٢) عمون الأخبار ١٧٩/٣ . (٣) الأساود : الحيات . (٤) ١٨ ، ٤٧ ، ٩٠ ، ٩٤ .

(أ) ومن حق الملك ألا يُحدّث على طعامه بحديث جد ولا هزل ، وإن ابتداءً بحديث فليس من حقه أن يعارض بمثله ، وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه والأبصار خاشعة ، ولشئ ما كانت ملوك ساسان إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، فلن اضطروا إلى الكلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا .

(ب) فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته فمن أخلاقه ألا يشارك أحداً فيه ، كذا حكى عن أنوشروان ومعاوية بن أبي سفيان ، وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا . ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شيء أحب إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية ، أو يتزوا بزى ينهون الرعية عن مثله ؟ .

فمن ذلك أردشير بن بابك - وكان أنبل ملوك بني ساسان - كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد في المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به ، وكان إذا ركب في لبسة لم يُرَ على أحد مثله ، وإذا تختم بخاتم فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بُعد في التشابه .

وهذا أبو أحيحة سعيد بن العاص كان إذا اعتَمَّ بمكة لم يعتم أحد بعمه مادامت على رأسه .

وهذا الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طويلة - قلنسوة عالية - لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثله .
وهذا عبد الملك بن مروان كان إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد من الخلق خفا أصفر حتى ينزعه :

— ١٩٦ —

(ج) ومن حق الملك إذا عطس ألا يَشْمَتَ ، وإذا دعا لم يؤمن على دعائه . وكانت ملوك الأعاجم تقول : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بتحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح ، لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح .

(د) ومن حق الملك أن يكتُم أسرارَه عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف (١) ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن في ملكه ، وصفة الآخر أن يذيع أسرارَه ، وصفة الآخر أن يخونه في خُرمه .

فأما ماوراء ذلك فمن أخلاق الملوك أن تلبس خاصتها ومن قرب منها على مافيههم ، وأن تستمع منهم إذا سلموا من هذه الصفات الثلاث . وكان كسرى أبرويز يقول : يجب على الملك السعيد أن يجعل همه كله في امتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركان الملك ودعائمه .

ثم ذكر في تفصيل طريقة كسرى أبرويز في امتحان رجاله في حفظ السر ، وفي حفظ الحرم ، وفي الطعن في المملكة .

(هـ) وكتب ابن المقفع لأبي جعفر المنصور كتاباً أَلَمَ فيه بما ينبغي على الخليفة أن يراعيه في سياسة الشعب (٢) .

من هذا وصاته بجند خراسان لأنهم جند لم يُدرَك مثلهم في الإسلام ، وفيهم منعة ، وهم أهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج وكف عن النساء ، وذلل للولاة ، ورأى ألا يؤلَّ أحدهم

(١) المألوف : الرجل المسكروه .

(٢) رسائل البلغاء ٤٩ .

منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وقال إن فيهم مجهولين أفضل من بعض قادتهم ، فلو قُربوا وأحسن إليهم كانوا عدة وقوة .

ومنه إشارته على الخليفة أن يوقت للمجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو مابداله ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، وأن تزداد أرزاقهم ، لأنهم يحتاجون إلى كثرة المال لغلاء السعر ، ورأى ألا يخفى على الخليفة أمر من أخبار الجند وأسرارهم ، وأن يستعين الخليفة على تحقيق ذلك بالنفقة ولا يضمن بالمال ، ويستعين بالثقة النصحاء من رجاله .

وأوصى الخليفة بأهل الكوفة والبصرة ، لأنهم أقرب الناس إلى متابعته ومعاونته ، وقال إن في أهل العراق من الفقه والعفاف والعقل والفصاحة ما يندر أن يكون في غيرهم ، وما انتقص من أقدارهم إلا الولاة الأشرار الذين تولوا عليهم . وعلل تعليلاً لطيفاً لإبعاد كثير منهم عن شؤون الحكم في العصر العباسي بقوله :

« ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق مَنْ دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيناً وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل ، أو موضع أمانة ، أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصدوا حتى يُلتمسوا ، فأبطل ذلك بهم أن يُعرفوا أو ينتفع بهم ، فنزلت الرجال عن منازلها ، لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد

نصنعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء ، أو تمحلاً لأن يثنى عليهم من وراء وراء .

وهو في قوله : « إن أهل النقص أشد تصنعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تلطفاً في معاملة الحكام ، وأبرع تحايلاً على أن يثنى عليهم في غيابهم ، » هو في قوله هذا يصور نفسية طائفة من الانتهازيين الذين يحسون بنقص كفايتهم ، فيتسلقون رقاب الأكفاء بوسائل لا يعرفها الأكفاء .

ثم أوصاه بأهل الشام ، وأن يختار منهم من يرجو عنده صلاحاً أو وفاء ، لأن تقريبه لهم ينسيهم تشبههم لبني أمية ، ورأى ألا يعاملهم كما عاملوا هم أهل العراق من قبل إذ حرّموهم ، ونحوهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، واعتذر لهم عما فرط من تأييدهم على دعوة بني العباس بأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها . وأوصاه بأصحابه الذين هم بهاء فذاته ، وزينة مجلسه ، والسنة رعيته ، وأعوانه على رأيه ، وموضع كرامته ، والخاصة من شعبه ، وحلده السفلة والانتهازيين « ممن لا ينتهي إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، وقد غُبرَ عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعيف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه دين ، ولا بلاء في مجاهدة علو ، ولا عناء

حديث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، وليس بممارس ولا خطيب ، ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء .

لم يقتصر التأثير على الترجمة ، والوقوف عند حد المعرفة ، بل نعدى ذلك إلى التذوق والمحاكاة والاقتباس .

(٣) الكلف بالمحسنات

اصطبغت الكتابة بمذهب الكلف بالحلى اللفظية والمعنوية حتى صارت الكتابة في القرن الثالث والرابع تكاد لاتخرج عن هذا المذهب ، ولم يكن كتاب العرب يكلفون بالصناعة هذا الكلف ، أو يقيمون فنهم عليها ، وقد اشتهر بهذا المذهب كتاب أكثرهم من الفرس ، وحاکاهم كتاب من العرب .

وزعيم هذا المذهب ابن العميد الفارسي ، وقد نشأ في بيئة فارسية ، وكان يجيد اللغة الفارسية ، ويجيد العربية ، وحاکاد الصاحب ابن عباد ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني وغيرهم ، ثم جاء الحريري فأمعن في الصناعة إمعاناً .

كذلك اتسمت الرسائل بالمقدمات والخواتيم وتنويعهما بحسب المقام ، والإكثار من ألقاب التعظيم والتفخيم .

وأول من استحدث ذلك عبد الحميد بن يحيى في آخر الدولة الأموية ، ثم حاکاه كتاب العصر العباسي ، وأغرق بعضهم في الكلف بالمقدمات وألقاب التعظيم إغراقاً .

ولقد تبدو الصناعة اللفظية أقرب إلى القبول ، لخفتها أو لقلتها

أو لمهارة الكاتب التي لاتجعل الصناعة صارخة بالتكلف الثقيل ،
كقول بدیع الزمان الهمدانی فی المقامة الأسدية :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغني من مقامات الإسكندري
ومقالاته ما يُصْغِي إليه النَّفُور ، ويتنفض له العصفور ، ويروى لنا من
شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ،
وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته
بحالته ، مع حُسن آله . . ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبال ،
وقطعت الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى
سلاحه ، فإذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخاً في إهابه ،
كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد ملئ صلفاً ، وأنف قد حشي أنفاً ، وصدر
لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا خطبٌ مُلم ، وحادثٌ مُهم ،
لا وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتي :

أخضر الجلدة في بيت العرب يمسأُ الدلو إلى عقد السكر

فها هنا سجع لم يتخلف إلا قليلا ، وجناس ، وطباق .

وقد تبدو الصناعة ثقيلة متكلفة ، كقول الحريري في المقامة

السنجارية (١) :

حدثنا المحارث بن همام قال : قفلت ذات مرة من الشام ، أنحو
مدينة السلام ، في ركب من بني ثُمَيْر ، ورفقة أولى خير ومَيْر ، ومعنا
أبو زيد السروجي (٢) ، عَقْلَةُ الْعَجْلان (٣) ، وسلوة الثكلان ، وأعجوبة [

(١) سنجار : بلد بمراق المعجم .

(٢) نبسة إلى سروج بلد قرب حران .

(٣) محبس المتعجل .

الزمان ، والمشار إليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار ، أن
أو لم بها أحد التجار ، فدعا إلى مأدبته الجفلى (١) . من أهل الحضارة
والفلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة ، وجمع فيها بين الفريضة
والنافلة .

فلما أجبنا مناديه ، وحللنا نادية ، أحضر من أطعمة اليد واليدين (٢)
ما حلا بالفم وحلي بالعين ، ثم قدم جاما (٣) كأنما جمد من الهواء ،
أو جمع من الهباء ، أو صبغ من نور الفضاء ، أو قشر من الدرة البيضاء ،
وقد أودع لفائف النعيم (٤) وضخ بالطيب العميم ، وسبق إليه شرب
من تسنيم (٥) ، وسفر عن مرأى وسيم .

(٦)

ولا شك أن التصنع هنا أثقل من سابقه ، والتكلف أوضح ،
والتلاعب بالألفاظ أبرز .

على أن الحريرى كان صاحب إبداع ومهارة ، لم يدع فناً من فنون
البديع إلا استخدمه في مقبرة حيناً وفي تكلف حيناً ، حتى إنه فاق الحد
في حيله .

فهو إلى الصناعة المتعددة والتلاعب الكثير مبتكر لحيل ليست من
علم البديع ، وذلك أنه أنشأ خمس مقات للأغاز هي الفرضية في

(١) الجفلى : الدعوة العامة .

(٢) ما يقطع بيد وما لا يقطع إلا بيدين .

(٣) الجام : الوعاء من زجاج .

(٤) لفائف : جمع لفيفة وهي ملف من الحلوى .

(٥) تسنيم : عين بالجنة .

(٦) شرح مقامات الحريرى للشريشى ١٠٤/١ .

مسألة توريث ، والنحوية في مئة لغز نحوى ، والطَّيْبِيَّة (١) في مئة لغز فقهى ، والمَلَطِيَّة (٢) في عشرين مقايضة كلامية (٣) ، والشتوية في خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائنة في كل بيت لغز سوى بيت المطامع وثلاثة أبيات ضمنها إعجاباً بنفسه .

وإنه لأعجب من هذا ماجاء في مقامات ست هي المغربية للعبارات التي تقرأ رداً وطرداً ، والتهقرية للرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه ، والخيفاء للرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة ، والرقطاء للرسالة التي أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل ، والسمرقندية للخطبة العارية من النقط ، والحلبية لعشر مقطعات من الأبيات ، أولها حروفها معجمة ، والثانية حروفها مهملة ، والثالثة كلمة مهملة وكلمة معجمة ، والرابعة كل كلمتين بها معجستان جناساً خطياً ، والخامسة بطرفي كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين ، والسادسة لما أشكل من ذوات السين ، والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد ، والثامنة لما يعجرى عليه هذان الحرفان ، والتاسعة لهجاء الأفعال الناقصة ، والعاشرة لما ورد من الكلمات به ظاء .

ولقد يقتضينا المقام أن نورد هنا ألواناً من حيل الحريرى في مقاماته ، ومنها الكلمات التي تقرأ طرداً وعكساً ، كقوله : لك بكل مؤمل إذا لم وملك بذل

(١) نسبة إلى طيبة وهي المدينة المنورة .

(٢) نسبة إلى ملطية بلد بالجزيرة .

(٣) المقايضة هي الأحاجى وتكون يطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام .

وقوله :

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا وَاَرَعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
أَسْنَدَ أَخَا نَبَاهَةً أَيْنَ إِخْوَاهُ دَنَسَا
أَسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ مَشَاغِبَ إِنْ جَلَسَا
أَسْرُ إِذَا هَبَّ مِرًّا وَارَمَ بِهِ إِذَا رَسَا

ومما يفرأ من أوله بوجه وآخره بوجه قوله (١) : « الإنسان صنيعة الإحسان » (عكسه الإحسان صنيعة الإنسان) « وشيمة الحر ذخيرة الحمد » (عكسه الحمد ذخيرة الحر) « وسوء الطمع يباين سوء الورع » (عكسه الورع يباين سوء الطمع) « وجزاء المدائح بثُّ المناائح » (عكسه بثُّ المناائح جزاء المدائح) .

ومن الرسالة التي حروفها أحدها معجم والآخر مهمل قوله (٢) :

أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَبُّ ، وَبَعْقُوتُهُ يُلَبُّ ، وَقَرْبُهُ تُحَفُّ ، وَنَأْيُهُ تَلَفٌ ، وَخُلَّتْهُ نَسَبٌ ، وَقَطِيعَتُهُ نَصَبٌ ، وَغَرِبُهُ ذَلَقٌ ، وَشُهْبُهُ تَأْتَلَقُ :

سَيِّدُ قُلُوبٍ سَبَّوْقُ مُبَرِّءٍ فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُوفُ
مُخْلَفٌ مُتَلَفٌ أَغْرُ فَرِيدُ نَابِهٌ فَاضِلٌ ذَكِي أَنْوَفُ
مَعْلُقٌ إِذَا أَبَانَ طَبُّ إِذَا نَا بَ هَيَاجٍ وَجَلَّ خُطْبُ مَخُوفُ
مَنَاطُ شَرْفِهِ تَأْتَلَفُ ، وَشُؤْبُوبُ حِبَائِهِ يَكِفُ ، وَنَائِلُ يَدَيْهِ فَاضُ .
وَشَحُّ قَلْبِهِ غَاضُ . . . » .

ثم خلفت الحريري طبقات من الكتاب عجزوا عن اللحاق به ، فاستكروها المحسنات ، وأزهقوا أرواح المعاني ، ومسحوا الخيال .

(١) شرح مقامات الحريري ٩٤/٢ .

(٢) الشرح ٩٤/٣ .

— ٢٠٤ —

٤- الإغراق في عبارات التعظيم للملوك والأمراء والكبراء ، والتهويل في وصفهم بعلاء القدر وسعة الجاه ، إذ كان الفرس يجرّون على هذا النسق ، ويغرمون بالتبجيل والتمجيد ، ويأنسون إلى خضوع الشعب للحكام وتلقاهم . ويتصل بهذا الإطناب في جمل الدعاء .

وقد حاكاهم أبناء العربية في هذين الاتجاهين .

كتب إبراهيم بن سيّابة إلى يحيى بن خالد البرمكي مستعظفاً :
« للأُصَيْد الجواد ، الوارى الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ،
الأشم الباذل ، اللباب الحُلاجل ، من المستكين المستجير ، البائس الضير .
فإني أحمد إليك الله ذا العزة القدير ، وليّ الصغير والكبير ، بالرحمة
العامة ، والبركة التامة .

أما بعد ، فاغنم واسلم ، واعلم إن كنت لاتعلم ، أن من يَرْحَمَ
يَرْحَمَ ، ومن يَحْرِمُ يُحْرِمُ ، ومن يُحْسِنُ يَغْنَمُ ، ومن يَصْنَعُ المعروف لا يندم .
وقد سبق إلى تغضبك على ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما
لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أتنبه ولا أرقد ، فلست بحىّ صحيح ،
ولا بميت مستريح ، فررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ،
ولذلك قلت :

(وذكر ثلاثة أبيات من الشعر) .

فإن رأيتَ - أراك الله مانحِب ، وأبقاك فى خير - ألا تَزْهَدَ فيما ترى
من تضرعى وتخشعى ، وتذلى وتضعى ، فإن ذلك ليس لى بنحيزة
ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنع ولا تَخْدَعُ ، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع ،
له عز ورفعة وشرف » .

الفصل التاسع آثار الفرس في الشعر

عرف الشعر في العصر الجاهلي شاعراً من الموالى هو سَحِيمُ عبد
بنى الحَسْحَاسِ ، لكنه لم يكن فارسياً .

ثم عرف الشعر العربي في العصر الأموي عدداً قليلاً من الموالى ،
فلما كان العصر العباسي كثر الشعراء من الموالى ، ولا سيما الفرس ،
حتى زاحموا أبناء العرب وساووهم .

عرف من الذين انحدروا من أصل فارسي أبانواس ، ومروان بن أبي
حَفْصَةَ ، وبيشار ابن بُرْدَ ، وَسَلَمَا الخاسر ، ومهيسارا الديلمي ،
وعرف من النبط أبا العتاهية ، ومن الروم ابن الرومي .

وحسبنا أن نردد النظر في (يتيمة الدهر للشعالبي) لتتعرف عشرات
من أبناء الفرس مهرّوا في قرض الشعر العربي ، نشأ بعضهم في ظلال
الدولة البويهية في بغداد والعراق وواسط ، ونشأ بعضهم في ظلال الدولة
الزيارية بطبرستان ، وعاش آخرون في رعاية الدولة الساسانية
ببخوارزم وخراسان .

وليس يعنينا هنا من اشتهروا بالمغرب والأندلس ومصر ، فإن هذه
مناطق بعيدة عن العلائق الفارسية العربية التي نتحدث عنها .
ولقد أضاف هؤلاء الشعراء ومن تأثر بهم من العرب ألواناً جديدة :
في الشعر العربي .

(١) التوسع في الغزل المكشوف

كان الغزل المكشوف معروفا منذ العصر الجاهلي في شعر الأعشى وسُحيم وامرئ القيس وغيرهم ، لكنه كان ضيق النطاق ، وكان في كشفه يرتدى غلالة رقيقة من الحياء أو الكتمان ، ولم يشتهر به إلا قلة قليلة من الشعراء .

نلما جاء العصر العباسي اتسعت دائرته ، وكثر قائلوه ، وتخيروا للتعبير عن مشاعرهم كلمات عارية وألفاظا نابية ، وجهروا بما لم يجهر به سابقوهم ، فصار عاريا لا يتستر ولا يستحي .

وكان بشار بن بُرْد أول من فتح باب الخلاعة على مصراعيه ، فجهر بما لا يصح الجهر به ، فأقبل الفتيان والفتيات على شعره إقبالا آنلر بالشر كقوله :

لا يؤيسنك من مُخَدَّرَةٍ قولٌ تغلَّظه وإن جَرَحَا
عُسرُ النساءِ إلى مياسرة والصعبُ يسهلُ بعد ما جمحا

حقيقة أن العرب عرفوا الأدب المكشوف في الجاهلية ، وعرفوه في العصر الإسلامي ، فقد كان للأعشى وسُحيم وامرئ القيس وطرفة شعر في الخمر وفي الغزل الحسى ، ثم كان الأخطل في العصر الأموى صاحب خمر وخمريات ؛ وكان عمر بن أبى ربيعة يتغزل في العصر الأموى غزلا حسيا ، وكان للوليد بن يزيد خمر ومحش .

لكن هؤلاء كان قلة ضئيلة ؛ وكانوا في أكثر الأحوال يتحززون في ألفاظهم وتعابيرهم ، وقلما اصطنعوا التصريح الذى تتقزز منه النفوس .

أما في العصر العباسي فقد كان عدد المجان كبيراً ؛ وكانوا يعمدون إلى اللفظ العارى ، والتعبير المكشوف ؛ والوصف المنصّل .
فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع في نظم حياته ووسائل ترفيهه وراثته الواسع ؟ أو كان نتيجة لخلط الفرس بالعرب ، وكثرة الموالى والإماء ، وما نقله الفرس إلى العرب من ضروب اللهو والترف ؟
الحق أنه كان نتيجة محتومة للأمريين معاً .

ذلك أن تطور الحياة ، وتنوع الترف ، وكثرة المال ليست هي السبب الوحيد في كثرة المجون والخلاعة والأدب المكشوف ، لأن المجتمع في الأقاليم الأخرى كالشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس لم تطور حياته ، لكنه كان أكثر جدّاً ، وكان أحرص على التصون من المجتمع العراقي .

وإذن فقد كان الفرس أهم بواعث الخلاعة والأدب المكشوف ، لأن العرب لو لم يخالطوهم لكانت حالهم أشبه بإخوانهم في الشام ومصر .
ولقد يغنيننا في هذا المقام أن نمثل بما حدث في الكوفة وحدها لنتبين أثر الفرس في الزندقة والإباحية والمجون ، وما ينشأ عن هذا من غزل حسي داعر ، فقد عاش بها نفر من الشعراء نشروا مجونهم فيها وفيما جاورها ، واشتهروا بعشق الجوارى والغلمان ، ووسموا جميعاً بالزندقة ، مثل مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، وأبو دلامة ، وحَمَاد عَجْرَد ، ويحيى بن زياد ، ووفد على هؤلاء نفر آخر شاركهم في خلاعتهم كابن المقفع ، ومحمد بن الأشعث ، وكانوا جميعاً يترددون على دور القيان ، حيث يطلقون لأنفسهم العنان في ممارسة المجانة والفسوق في غير ماتحرج أو حياء .

انتقل بعضهم إلى بغداد وغيرها ونقلوا معهم فسوقهم ومجونهم
وغزلهم العارى المكشوف .

وفى كتب الأدب ودواوين الشعراء ألوان شتى من هذا الغزل ، وحسبنا
أن نعرض بعض أمثلة مكسوة من غزلهم المكشوف بالجوارى .

فالوزير المهلبى يقول فى جاريته (تَجْنِي) :

مَرَّتْ فَلَمْ تَشْنِ طَرْفَهَا تِيهَا يحسدها الغصن فى ثنيها
تلك (تجنى) التى جُنْتُ بها أعاذنى الله من تَجْنِيها
والصباى يقول :

يا من بدت عُرِيَانَةً فرأيت كل الحسن منها
كانت ثيابك عورة فسُتِرَتْ بالتجريد عنها
ويقول :

إلى الله أشكو مالمقيتُ من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا امتزجتُ أنفاسنا بالتزامنا توهمت أن الروح بالروح تمزج
وقال الشريف الرضى فى جارية سوداء :

أحبك يالون الشباب لأننى رأيتكما فى القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان وقعه بجلده أو شق فى وجهه فما
لبغض عند الصبح ما كان مُشرقاً وحُبَّ عند الليل ما كان مظلماً
سكنت سواد القلب إذ كنت شبيهه فلم أدر من عز من القلب منكما

(٢) الغزل بالذكر

تقدم فى (العادات) أن الفرس كانوا يملأون قصورهم ودورهم
بالغلمان ، وكانوا يستخدمونهم فى كثير من الشؤون ، ويلبسونهم ملابس
الاناث ، ويحلونهم بحليهن ، وأن العرب حاكوهم فى هذا ذاك .

وتقدم أن الكوفة غصت بطائفة مخنثة من هؤلاء الغلمان ، منذ امتلأت بجند خراسان الذين ساعدوا على إقامة ملك بنى العباس ، إذ كان الجنود قد جاءوا معهم بالمخنثين لا استخدامهم كما كان الفرس يستخدمونهم ، لأن كل مأنوي كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه فيما يريد .

وكان هؤلاء الغلماء المخنثين بالكوفة مظهران غريبان على العرب : أحدهما التشبه بالنساء في الملابس والتزين كالخضاب وتزجيج الحواجب وإطالة الشعر والتحلي بالذهب ، والآخر التغي بالشعر الماخن في غير تخرج أو استحيا .

ثم تكاثروا بالبصرة وبغداد بتأثير الفرس ، وكانوا يتننون في حركاتهم وفي مشيتهم ، فصار الخلاء بالكوفة والبصرة وبغداد يستملحون مظهرهم ، فجعلت الجوارى يتشبهن بهم في الملبس والمظهر ، فأطلق عليهن لقب (غلاميات) .

ولم يقف الانحلال عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى مرض نفسى ينذر بالشر ، إذ تردى بعض الشعراء في عشق الغلمان ، وصار من علامات الظرف في بغداد أن يكون للشاعر غلام يتعشقه ويتغزل به ، وقد يشترك شاعران في عشق غلام واحد والمنافسة عليه (١) .

وكان من المنتظر أن يشتهر بالغلمان الإباحيون المنحدرون من أصل فارسي مثل حماد عجرد وأبي نواس والحسين بن الضحاك والبة ابن الحباب ، لأنهم أصحاب جانة وخلاعة وشذوذ ، ولأنهم يأنسون إلى غناء المخنثين بشعر المجون . .

لهذا نشأ نوع "جديد من الغزل ، زاحم الغزل بالمؤنث الذي تغى به
العرب منذ الجاهلية ، هو الغزل بالمذكر ، كقول أبي نواس في غلام (١) .

وشادن تسحر عيناه أسفله يجذب أعلاه
ينظر مولاه إلى وجهه يا ليتني عين مولاه
أعرتة روحى وقلبي فقد عييت مما أتمضضاه
ولو رآني ميتاً في الهوى لقال لي أبعذك الله

ومن هذا الغزل قول المخبر أرزى (٢) :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي أصونك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الكأس بيني وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظر وطوراً على تعريض تفاعاة العبد

وقول أبي الحسن محمد بن عبد الله السلاوى في غلام بدوى :

تعلقته بدوى اللسان والوجه والزى ثبت الجنان
أعانق من قدّه صعدّة ترى اللحظ منها مكان السنان
أدار اللثام على ثغره فأهدى الشقيق إلى الأفحوان
فيأبدوى سهام الجفون صرّعن ضيوفك حول الجنان
فإن كان دينك رعى الذمام فقل : أنت من ذمتى فى أمان

(١) الديوان ٤٠٥ .

(٢) كان لا يكتب ولا يقرأ ، وكانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ،
فكان يخبز وينشد أشعاره فى الغزل والناس يزدحون حوله ويستمعون إلى شعره ، وكان أحداث
البصرة يتنافسون فى ميله لإيهم وذكره لهم ويحفظون كلامه (يتيمة الدهر ٢/٣٦٧) .

وقول ابن سكره :

سألته في صحوه قبله فردني والموت في رده
حتى إذا السكر لوى رأسه قبلته ألفا بلا حمده

وفي يتيمة الدهر للثعالي أنماط فاحشة من هذا الغزل يعف عن
نسطيرها القلم .

فهل كان الغزل بالمذكر محاكاة لتغزل الفرس بالدكور كما يتغزلون
بالإناث ؟

لقد شاع في الدراسات الأدبية أن شعراء العرب حاكوا شعراء
الفرس في الغزل بالمذكر، حتى صارت الدعوى من كثرة ترديد لها أشبه
بالحقيقة .

لكن الحقيقة ليست كذلك ، « لأن اللغة الفارسية لا تفرق
بين المذكر والمؤنث في الضمائر وأسماء الإشارة والصفات ، فالضمير (أو)
هو أو هي و (تو) معناه أنت أو أنت ، واسم الإشارة (اين) معناه
هذا أو هذه (وآن) معناه ذلك أو تلك ، وليس في الفارسية إلا اسم
موصول واحد هو (كه) لجميع الحالات ، وإنما يتعين المراد بالسياق .

ولعلك توافقني إذا قلت إنه ليس في سياق الشعر الغزلي ما يرجح
أن الشاعر يريد بغزله المذكر ، فليت شعري إلى أى شيء استند من
قائلوا إن شعراء الفرس مولعون بالتغزل بالمذكر » (١) ؟

على أن الغزل بالمذكر شاع في العصر العباسي قبل أن يستقيم الشعر

الفارسي الجديد ، فكيف تأق للعرب أن يحاكوا شعراً لم يتجاوز عهد الطفولة ؟

وذلك أن أبا نواس وأضرابه مارسوا هذا الغزل قبل القرن الثالث ، وهو العصر الذي بدأ فيه الأدب الفارسي يبعث بعد رقاد طويل ، ويستظل في بعثته هذه بالأدب العربي ويحاكيه ، أما الأدب الفهلوي فقد كان مجهولاً للفرس في العصر العباسي ، ولم يعرف الدارسون منه إلى يومنا هذا إلا نتفا وشذرات ، ليس فيها غزل بالمذكر .

من الإنصاف أن نقول : إن الغزل بالمذكر بدعة ظهرت في العصر العباسي نتيجة لعوامل متعددة من زندقة وإباحة وانحلال خلقي ، وكثرة في الغلمان والمخنثين ، وولع أبناء الفرس بهم ، وإسفافهم في التعبير عن عواطفهم المريضة بشعر عربي ، ولا ننكر أن بعض العرب حاكبهم في كلفهم بالغلمان والتغزل بهم كما يتغزلون بالإناث .

ومن هنا يتضح الفرق بين نشأة الغزل بالمذكر في الشعر العربي محاكاة للشعر الفارسي ، وبين نشأته بتأثير أبناء الفرس الذين قرضوا الشعر العربي ، وكان كثير منهم لا يعرف الفارسية ، وكذلك نشأته بتأثير الترف والمخلاة والانحلال .

ومهما يكن من شئ فإننا مازلنا نلمح في بعض الشعر العربي الحديث وفي بعض الأغنيات الفصيحة والعامية أثارة من مظهر الغزل بالمذكر في الدلالة على الأنثى بضمير المذكر في الخطاب والغياب .

(٣) التوسع في الخمریات

كان العرب يعرفون الخمر في جاهليتهم ، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى ، وكثيراً ما وصفها بعض شعرائهم ، ووصفوا مجالسها وسقاتها وتحدثوا عن النداء وعن القيان اللاتي كنَّ يغنين لهم في مجالس الشراب (١) .

فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريماً ، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان ، فكف الشعراء عن وصفها .

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغنى بها في العصر الأموي ، وكان زعيمهم في المجاهرة بشربها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبي النصراني .

ولم يكف يستهل العصر العباسي بما صاحبه من حضارة وترف وثراء وإطلاق للحريات الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم ، ومانشاً عن ذلك من زندقة ومجون ، حتى كثرت أنواع الشراب ، وتعددت مجالسه ، وأقبل ناس عليه في غير تأثم ، فلهج كثير من الشعراء بالخمریات ، وتزعمهم أبو نواس ، ففي ديوانه آلاف الأبيات في الخمر ، أتى فيها بكل جديد من الفكرة وطريف من الخيال .

وهو الذي ابتدع افتتاح القصائد بالخمر ، إذ كانت مطالع كثير من قصائده إشادة بالخمر ودعاء إلى شربها ، وتهكاً بالبدین يبدؤون قصائدهم بالغزل وبكاء الأطلال ، كقوله :

صفة الطلؤل بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم (٢)

(١) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهل للمؤلف - فصل الخمر .

(٢) ديوان أبي نواس ٣٢٣ القلم بالقاف الزمن القديم أو القدم بالغاء المفتوحة أي الثقيل .

وقوله :

لا تبكى ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب^١ على الورد من حمراء كالورد (١)

وقوله .

تبكى على طلال الماضين من أسد لا در درك قل لى : من بنو أسد؟
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها وبين باك على نوى ومنتصد

أما خمرياته فكثيرة ، منها قوله :

أكل الدهر ماتجسم منها وتبئى لبابها المكنونا
ثم شجت فاستضحكت عن لأك لو تجمعن فى يد لاقتنينا
فلذا ما لمستها فهباء تمنع الكف ماتبيح العيونا
فى كؤوس كأنهن نجوم جاريات بروجها أيدينا
طالعات من السقااة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا (٢)

وقال أبو الحسن السلاوى :

اشربا واسقيا فتى يصحب الأي ام نفسا كثيرة الأوطار
والنفوس الكبار تأنف للسا دة أن يشربوا بغير الكبار
فى جوار الصبا نحل بيوتا عمرت بالغصون والأقمار
ونصلى على أذان الطنابيد ونصغى لنعمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للـ كأس أو راكع على المزمار

(١) الديوان ٢٦٧ .

(٢) الديوان ٣٩٩/١ .

ويتصل بالخمریات وصف مجالسها وكؤوسها وآثارها في النفوس
وسقاتها ووصف الندای والقیان وماشابه ذلك ، كقول ابن المعتز :

وَأَمَّطَرَ الْكَأْسَ مَاءً مِنْ أَنْامِلِهِ فَأَنْبَتَ الدَّرُّ فِي أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
وَسَبَّحَ الْقَوْمَ لَمَّا أَنْ رَأَوْا عَجَبًا نُورًا مِنَ الْمَاءِ فِي نَارٍ مِنَ الْعَنْبِ
وقوله في وصف تأثير السكر :

وقد شربوا حتى كَانَ رَعُوسُهُمْ مِنَ اللَّيْنِ لَمْ يُخْلَقْ لَهْنُ عِظَامِ
وقوله في وصف السقاة وقيامهم على رعوس الشاربين :

وَكَانَ السَّقَاةَ بَيْنَ النَّدَايِ أَلْفَاتٌ بَيْنَ السُّطُورِ قِيَامِ

(٤) مَعَانٍ وَأَخْيَلَةٌ

على أن الشعراء المتصلين بالفرس أو بالثقافة الفارسية أو المتأثرين
بمحاضرة الفرس زودوا الشعر العربي بمعان وأخيلة جديدة كقول بشار :
يَاقُومُ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٍ وَالْأُذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا
قَالُوا بَيْنَ لَا تَرَى تَهْلِي فقلت لهم الْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تُورِي الْقَلْبَ مَا كَانَ
وقول أبي نواس :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالُ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّى ؟
لَوْ تَفَرَّغْتُ لَا سَطَالَةَ لَيْلِي وَلَرَعَى النُّجُومَ كُنْتُ مُخِلًّا

وقوله في وصف الخمر :

وَنَدْمَانٍ سَقَيْتُ الرَّاحَ صِرْفًا وَسِتْرُ اللَّيْلِ مُنْسَدِلُ السُّجُوفِ
صَغَتْ وَصَفَتْ زَجَاجَتِهَا عَلَيْهَا كَمَعْنَى دَقٍّ فِي ذَهْنٍ لَطِيفِ

وقوله :

قل لزهير إذا أتكا وشدا أفلل أو أكثر فسأنت مهذار
سَخُنْتَ من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يَعْجَبُ السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار (١)
وهو بهذا يردد مازعمه علماء الهند أن الشيء إذا زادت برودته
صار حاراً ، وقوله :

ومستطيل على الصهباء باكرها في فتية باصطباح الراح حذاقه
فكل شيء رآه ظننه قدحاً وكل شخص رآه قال ذا الساق
ولقد كان الشاعر العربي التغلبي المشهور بالعتابي معجباً بما في كتب
الفرس من أفكار ، وهذا هو السبب في عمق معانيه وجدة بعضها ،
كقوله في الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأملته الناظر
لثنته ك حتى تراه لتعلم أنني امرؤ شاكر
وله في النثر قدم سبق ، استدعاه المأمون وقال له : بلغتنى وفاتك
فسأمتنى ، ثم بلغتنى وفادتك فسرتنى ، فقال العتابي : يا أمير المؤمنين
لو قسمت هذه الكلمات على أهل الأرض لوسعتهم ، وذلك لأنه لا دين
إلا بك ، ولا دنيا إلا منك . فقال المأمون سئني ، قال العتابي : يدك
بالعطاء أطلق من لساني .

ومن حكمه قوله : الأقلام مطايا الفطن . عشيرك من أحسن
عشرتك . أهدى الناس إلى مودتك من أهدى بره إليك (٢) .

(١) الديوان ١٨١ .

(٢) الشعر والشعراء . ٣٦٠ والأغاني ٢/١١ .

(٥) الكلف بالمحسنات

أغرم الشعراء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، وكان بعضهم يتوخاها
توخيا ، ويتعمدها تعمداً ، ويتصيدا في حرص عليها شديد .

(أ) وكان كلفهم بالجناس أشد ، ولهذا تنوع وتفرع .

فمن الجناس المائل - وهو المتفق اسميةً وفعلية - قول ابن الرومي
في وصف الجوارى السود :

للسود في السود آثار تركزن بها

وقعا من البيض يثنى أعين البيض (١)

ومن المستوفى - المختلف اسميةً وفعلية - قول البستي :

فقال لي : دعني ولا تؤذني إلى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب - المتفق لفظاً وخطاً - قول أبي الفضل الميكالي :

تفرق الناس في أرزاقهم فرقا فلابس من ثراء المال أو عار
كهذا المعاش في الدنيا وساكنها مقسومة بين أذمات وأوعار
من ظن بالله جوراً في قضيتيه افتر عن مأثم في الدين أو عار

ومن المفروق - المتفق لفظاً لا خطاً - قول البستي :

كم من أخ قد هلمت أخلاقه في آخر ماقد بني في أول
يرى سهاماً إن أسر المقت لي بالسكيد لا يقصدن غير المقتل

ومن المطرف - المختلف بزيادة حرف - قول البحتري :

فإن صدقت عنا فربت أنفس صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

(١) السود الأولى جمع سوداء للجارية ، والثانية جمع سواد القلب . البيض الأولى جمع أبيض
للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة .

ومن المذيل - المختلف بأكثر من حرف - قول بعض العباسيين .
فيا لك من حزم وعزم طواهما - جديدا الردى تحت الصففا والصفائح

ومن المشتق - ما يرجع إلى أصل واحد - قول أبي تمام :
وأنجدم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدي على ساكني نجد

ومن المطلق - ما لا يرجع إلى أصل واحد - قول أبي نواس :
فما السلاف زهتي بل سوافه ولا الشمول دهتي بل شمائله
ومن المضارع - ما اختلف بحرف مقارب المخرج - قول الشريف
الرضي .

لا يذكر الرمل إلا حن مغرب له إلى الرمل أو طار وأوطان

ومن اللاحق - ما لا تقارب في حرفيه - قول البحتري :
لست عن ثروة بلغت مداها غير أني امرؤ كفائي كفاي
ومن اللغزي - ما اختلف بحرف مقارب الخط - قول الأرجاني :
أوبيض الهند من وجدى هواز بإحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس والقلب قول ابن نباتة السعدي في الأمير
بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحبيب تضطرب
قلت : هذا تخرص قلب بهرام ما رهب

(ب) وتلاعب بعضهم بالألفاظ في حيل شتى ، كقول الحريري في
منطلعة حروفها كلها عاطلة :

أعد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح

— ٢١٩ —

وقوله في أخرى حالبة الحروف كلها :

شغفتني بجفن ظبي غضيض غنج يقتضى تغيض جفنى

وقوله في الثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة :

اسمح فبت السباح زين ولا تُخب آملا تضيّف

وقوله في رابعة خطية الجناس :

زينب زينت يقد يقد وتلاه ويلاه نهّد يهّد

وقوله في خامسة مطرفة الجناس :

سم سمّة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسه (١)

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ٣٣٨ للأستاذ السباعي بيومي .

الفصل العاشر

تقنيات

التعقيب الأول

شرٌ وخير

جدير بنا بعد هذا التطواف أن نقف وقفة قصيرة ، لنرؤز في إنصاف ما قدم الفرس للعرب في الجاهلية وفي الإسلام من شر أو من خير ، قبل أن نبدأ رحلة أخرى ، نتبين فيها ما قدم العرب للفرس من صنوف النفع والخير .

١- ويبدو أن خير ما استفاده العرب من الفرس جاهلية وإسلاماً هو أنهم نقلوا من مفردات اللغة الفارسية كثيراً ، فأثروا اللغة العربية بها وبما اشتقوه أو تجوزوه منها ، وأنهم نقلوا بعض أقاصيص الفرس وحكمهم ومعانيهم وأخيلتهم .

كذلك ساهم أبناء الفرس بعد أن أسلموا وتعلموا العربية مساهمة مشمرة جادة في إثراء اللغة العربية بمؤلفاتهم القيمة التي تناولت ألوان المعارف والثقافة ، ولم يقصروا في العلوم اللغوية والأدبية ، فإن جهدهم في هذا المجال حميد ، لا يجعله أحد ، وكان منهم شعراء وكتاب حلقوا اللغة العربية ، وزاحموا بشعرهم ونشرهم الأفلاذ من العرب الخلص ، فأثروها بجديد من الأفكار ، وبطريف من الخيال .

٢- وقد يقال إن العرب اقتبسوا منهم نظماً في الإدارة والسياسة ،

— ٢٢١ —

كالوزارة ، وبيوت الإذن ، والتنجيم والمنجمين ، والدواوين وماشاكلها ، وهذا صحيح ، ولكنه محتاج إلى تعقيب .

(ا) ذلك أن بيوت الإذن (الحجابة) للدخول على الخليفة أو الحاكم مظهر من مظاهر الأبهة والاستعلاء والحكم المطلق كان العرب في غنى عنه ، بل ليشتم ما عرفوه .

(ب) أما التنجيم بمعنى التكهن بالغيب والتصرف في شؤون الدولة على وفق ما يقول المنجمون ، فإنه عمل لا يقره الإسلام ولا يصح أن تصرف الدولة شؤونها على هواه ، ولهذا لم يعبأ بهم المعتصم حينما خوفوه ففتح عمورية ، وكانت سيوفه أصدق أنباء من كتبهم كما قال أبو تمام ، فانتصر على الروم انتصاره المعروف .

(ج) وأما الوزارة فإنها بلفظها ليست غريبة على العرب ، فالوزير حامل الوزر وهو الثقل ، لأنه يحمل أعباء الحكومة ، أو الوزير هو الملجأ والمرجع في تدبير الشؤون ، لأن الوزر هو الملجأ والمعتصم . والوزارة بدلاتها كانت معروفة عند العرب ، إذ أرادوا بالوزير من يعين الحاكم ويشد أزره ويشير عليه .

وهي بهذا المعنى معروفة منذ عهد النبوة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاور صحابته في الشؤون العامة والخاصة ، وكان يختص أبا بكر ببعض الشؤون ، حتى إن العرب الذين خالطوا الفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا وظيفة الوزير عندهم كانوا يطلقون على أبي بكر وزير النبي .

ثم كان عمر في خلافة أبي بكر يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة

تياية عن أبي بكر ، وكان عثمان وعلي في خلافة عمر مستشارين له ،
وينهضان بما يعهده إليهما من شؤون الحكم ، إذ كان على يتولى كتابة
الرسائل ، ويقضى بين الناس ، وينظر في أحوال الأسرى ، ويفتدى
أسرى المسلمين .

وقد ذكر ابن خلدون أن عمر بن الخطاب لما أراد أن يبعث إلى
الكوفة بإمام يعلم الناس اختار عبد الله بن مسعود وقال : إني بعثت إليكم
بعمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا .

وكان هؤلاء الأعوان يقومون بأعمال الوزراء وإن لم تطلق عليهم
كلمة وزراء ، لبساطة الإسلام ، ولبعده عن أبهة الملك .

ثم صارت الخلافة في عهد بنى أمية ملكا وراثيا ، فاختر خلفاؤها
بعض الرجال المحنكين وقربوهم إليهم ، وأقاموهم منهم مقام الوزراء ،
ولكنهم لم يلقبوا بهذا اللقب إلا على ندره ، فقد لقب زياد بلقب الوزير
في عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولقب رُوَح بن زُبَاع الجدامي بلقب
الوزير في عهد عبد الملك بن مروان .

فإذا كان العرب قد نقلوا من الفرس وزارة التنفيذ ووزارة
التفويض كما سبق ، فإن هذا توسع فيما عرفوه من قبل ، وتطور في
نظام الحكم لم يكن منه بد .

والحق أن العرب كانوا بتوجيه الإسلام وتأثير التطور قد خطوا
خطوات فاسحا متلاحقة في مجالي الإدارة والسياسة ، فكان للنبي عليه
الصلاة والسلام ولخلفائه الراشدين ولبنى أمية عمال على الأقاليم هم
الولاة ، وكان العامل (الوالي أو الأمير) يقوم بالشؤون السياسية ، ويؤم
الناس في الصلاة ، ويفصل في خصوماتهم ، ويقود الجنود في الحرب ،
وكان مع الوالي عامل على الخراج يتولى الشؤون المالية ، ويراقب الوالي .

وكان للدولة جنود مدربون وقواد محنكون وأسطول وقضاة عدول وشرطة وعسس وجباة للزكاة والخراج ، وكانت لها دواوين شتى في كل إقليم ، وكلما سار للزمن بالعرب جددوا في نظمهم ، واستحدثوا من وسائل الإدارة ما تقتضيه الأحوال .

وكان الخلفاء الراشدون يشاورون ذوى الرأى من الصحابة وأعيان المدينة ، وكان المسجد مقر اجتماعهم ومشاوراتهم ، إذ كان المسجد مكان الصلاة ، ومركزاً لإدارة الشؤون السياسية والاجتماعية ، يقول سير توماس أرنولد : لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان مركز السياسة والاجتماع ؛ فقد استقبل فيه النبی السفراء ، وأدار شؤون الدولة ، ومن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق ، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد ، ومن فوقه وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر خطبته الأولى على الجمهور ، يبين فيها سياسته ومنهجه ، فكان المنبر أشبه بالمنصة التي يلقي من فوقها ساسة الأمم خطبهم السياسية .

(د) وأما الدواوين فإن العرب بدأوا بإنشائها قبل أن ينقلوا شيئاً من الفرس ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ له كتاباً يدونون القرآن الكريم ، ويكتبون رسائله إلى الملوك والأمراء ، مثل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان وأبى بن كعب وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة .

ويصح أن نعتد هذا العمل أول خطوة في إنشاء ديوان رسمى للدولة الجديدة .

فلما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كتاباً له ، ولما

تولى عمر اختار كاتبين له هما زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، ثم
تولى عثمان فاصطنع مروان بن الحكم كاتباً له ، فلما تولى علي بن أبي
طالب اتخذ كاتبه عبد الله بن رافع .

وحينما اتسعت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب ، وكثرت موارد
الدولة ، احتاج إلى ديوان يضبط مايرد إلى بيت المال وما يصدر عنه ،
واحتاج إلى ديوان ينظم أعطيات الجنود ، فأنشأ هذا الديوان ،
واستمر ديوان الجند في عهد عثمان وعلي ، على حين كانت في أرجاء
الدولة دواوين أخرى تقوم بأعمالها ، وكانت في فارس باللغة
الفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية .

ثم آل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم ، ليتولى إرسال
ما يكتبه الخليفة أو يمليه مختوماً لا يعرف جامله ما فيه .

ويرجع السبب في إنشائه إلى أن معاوية كتب إلى زياد واليه علي
العراق أن يعطي رجلاً مئة درهم ، فقبض الرجل الكتاب وكان
غير مختوم ، فجعل المئة مئتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية
أنكر المئتين ، وحينما استبان الحقيقة استرد المال من الرجل ، وأمر
بإنشاء ديوان الخاتم .

على أن الكتاب تعددوا فصاروا خمسة : كاتب للرسائل ، وكاتب
للخراج ، وكاتب للجند ، وكاتب للشرطة ، وكاتب للقضاء .

ثم عربت الدواوين التي كانت بفارس والشام في عهد عبد الملك ،
وعربت دواوين مصر في عهد ابنه الوليد ، فامتلات بالعرب وبمن أجادوا
اللغة العربية من أبناء هذه الأقاليم ، وصار لكل ديوان أعماله التي
يمارسها رجاله .

وفي العصر الأموي تزايدت الحاجة إلى كتابة الرسائل التي تصدر عن الخليفة ، فنشأ ديوان جديد هو ديوان الرسائل .

وكان كاتب الرسائل في أيام عبد الملك هو سليمان بن سعد ، وإن لم ينقطع عبد الملك عن ممارستها أحياناً بنفسه .

ولكن ديوان الرسائل لم يشتهر بالافتتان فيما يحيره إلا منذ عهد هشام بن عبد الملك ، وكان الفضل في هذا لأبي العلاء سالم بن عبد الله صاحب الديوان ، وقد تتلمذ له وحاكاه كثير من الكتاب ، وكان عبد الحميد بن يحيى أبرعهم ، ثم كان أعظمهم أثراً وأبعدهم صيتاً ، إذ تولى كتابة الديوان لروان بن محمد وهو وال على الجزيرة ، وتولاها له وهو خليفة بدمشق إلى أن غربت شمس بني أمية وأشرقت شمس بني العباس .

وإذن فقد عرف العرب الدواوين ونظامها قبل أن ينقلوها عن الفرس ، فإذا كانت قد كثرت وتشعبت بعد اتصالهم بالفرس ، فإن هذا راجع إلى التطور الذي اقتضته السياسة والإدارة وإلى مخالطتهم للفرس ولغيرهم في مصر والشام وإفريقية .

٣- أما آثار الفرس الأخرى فلم يَخلُص بعضها لخير العرب والمسلمين :

(١) ففي مجال العقائد نشر بعضهم في الجاهلية والإسلام الزرادشتية والمزدكية والمناوية والزندقة والإلحاد ، وتستمر كثير منهم بالتشيع للإمام علي وبينه ، لاعتن موالاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام وتقويض الوحدة وزلزلة القوة ، (تيارات ثقافية)

ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسي والخلاص من الحكم العربي .

ثم نجم عن هذا التدبير بقصد وبغير قصد أن تعددت الفرق والنحل ، حتى بلغت فرق الشيعة وحدهم ثلاثاً وسبعين .

ومن عجب أن بعض الفرق عادي بعضاً ، حتى لقد سول هذا العداء الذي لا مبرر له لبعض الفرق أن تكفر بعضها ، كأنما هذه على دين وتلك على دين .

(ب) وعلى مسرح الاجتماع والعادات أذاع بعضهم الفرس الخمرة ، والترف ، والجواري ، والغلمان ، والتبجح بالمنكرات ، فسرى الانحلال في المجتمع ، حتى تناسى كثير من العرب أخلاقهم التي بثتها فيهم البدواة ، وغرسها فيهم الإسلام ، وصاروا لا يأنفون من الفحشاء والمجاهرة بالخمريات ، والكلف بالغلمان ، والمباهاة بالإلحاد والعدوان على الأعراض .

وسكان من نتائج هذا كله أن كثر المترفون والخلعاء ، وأن تنافسوا في السرف والبلذخ ، وتسابقوا إلى مظاهر الأبهة في المساكن والملابس . والمطاعم والمشارب ، فحق عليهم قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (١) .

(ج) وفي ميدان السياسة أشعل بعض الفرس نار الشعوبية ، وقاموا بالثورات الانفصالية كثورة سونباذ ، والراوندية ، والمقنعة ، والمحمرة .

والخرمية ، وتمخضت هذه الثورات عن انقسام الدولة الكبرى إلى دويلات منفصلة كالصفارية ، والزيرية ، والسامانية ، والبويهية ، ثم انتهى الصراع بسقوط الخلافة العباسية التي كانت تتوج بغداد ، فتفرقت الوحدة ، ونشأت إمارات ودويلات هنا وهناك بالشرق والغرب تتناكر وتتحارب ، على حين أن أعداء العرب والإسلام هم بالمرصاد .

التعقيب الثانى

قضية العلوم بين العرب والفرس

(١) تمهيد

لم يكد الإسلام تستقر دعائمه في جزيرة العرب حتى انساح العرب في العالم سراعاً ، يحملون مشاعل الهدى ، ترافقهم لغتهم حيثما حلوا ، وما كان يمضى قرن حتى صارت اللغة العربية هي اللغة الأدبية والعلمية والرسمية للشعوب التي خضعت لحكم العرب ، واعتنق أكثر سكانها الإسلام ، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والثقافة الإسلامية ، ولأنها لسان الغالبين والحاكمين ، ولغة المكاتبات الرسمية والدواوين ، ثم لأنها أرقى وأثرى من لغات هذه الشعوب ، بعفرتها الكثيرة ، وبمرونة قواعدها النحوية والصرفية وبطواعية أساليبها ، وبحيوية أدبها .

لهذا اختفت القبطية واليونانية من مصر — كانت القبطية لغة التخاطب ، واليونانية لغة الأدب والشؤون الرسمية — وتوارت البربرية من شمال إفريقية — ليبيا وتونس والجزائر ومراكش — وانكشفت الفارسية في العراق وفارس ، وانزوت اللهجة النوبية من بلاد النوبة ،

تم بعد حين توارث اللهجة السودانية والكوشيتية من السودان ، ولم
 تظهر واحدة من هذه كلها بعد اختفائها ، ماعدا الفارسية التي استطاعت
 أن تسترد حياتها في فارس منذ القرن الرابع للجهره .
 ومعنى هذا أن اللغة العربية الأدبية المشتركة للشعوب التي دانت
 للحكم العربى من فارس شرقاً إلى مراكش غرباً ، ومن سورية شمالاً إلى
 السودان جنوباً .

وكانت قد ازدهرت ثقافات في فارس والعراق وسورية ومصر
 وشمال إفريقية ، وبقيت منها آثار شتى ، سرعان ماتمازج تيارها ببغدران
 الثقافة الإسلامية ، وبجداول الترجمة من اليونانية والهندية
 والفارسية ، فنشأت علوم وآداب وثقافات عربية إسلامية ، اشترك
 العرب والعجم في وضع أصولها ، وفي دعم بنيانها ، ورفع سمكها ،
 اشتركوا فيما ألفوه في بعضها ، وفيما أضافوه إليها من ثمرات تفكيرهم
 وابتكارهم .

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل ماتتصف به هذه الثقافة العربية من
 سمات عربية إسلامية ، ولهذا يعتز العرب جميعا بتراثهم الثقافى
 المشترك ، ويطربون له ، ويباهون به ، ولا يعلقون إعجابهم بعالم أو
 بأديب على إقليم ، ولا يبعده عن أنفسهم أنه من إقليم آخر ، لأنهم
 لا يشعرون إلا بأنه عربى منهم .

ومن حق العرب أن يعتزوا بهذا التراث الثقافى المشترك ، لأنه كما
 يقول كيرك : « ذو قيمة عظيمة ، تقوم عليه الصلاة الأساسية بين
 الشرق الأدنى والغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وآسيا البوذية .
 والثقافة العربية كانت الرائدة والزعيمة منذ القرن التاسع إلى .

القرن الحادى عشر ، ثم استمرت أهميتها العظيمة ثلاثة قرون أخرى ، وامتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى وكانت اللغة العربية فى العصور الوسطى أكثر اللغات انتشاراً ، ولم تتكلم العربية وتكتب بها شعوب من أمم مختلفة فى الشرق والعرب فحسب ، بل شعوب تدين بأديان متعددة ، (١) .

(٢) دعوى

لكن هذه المفخرة التى يجب أن تكون بمنأى عن النزاع قد جنح بها بعض الباحثين إلى ميدان النزاع تارة ، وإلى التهوين من شأن العرب تارة .

فلنتعقب هذه الدعوى منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر ، ثم نعقب عليها بما يكشف عن بطلانها .

١ - وأغلب الظن أن أول من بسط الدعوى وضخمها عبد الرحمن ابن خلدون ، وهو عربى خالص النسب ، إذ قال : « من الغريب الواقع أن حملة العلوم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيعته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربى .

والسبب أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السداجة والبدواة ، وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه .

كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتلوين ، ولا دُفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين.

ثم احتيج إلى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ، ثم كثر استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، وكان اللسان قد فسد ، فاحتيج إلى وضع القواعد النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط ، والاستخراج والتنظيم والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى هي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس والدفاع عن العقائد الإيمانية ، لكثرة البدع والإلحاد ، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت في جملة الصنائع ، وقد كنا قدّمنا أن الصنائع من مُنتحل الحضّر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها .

والحضر في ذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك ، للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما رُبوا في اللسان العربي ، فاكسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وغنا لمن بعدهم .

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه من أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى .
وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم ، وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين .

ولم يقيم بحفظ العلم وتلويثه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها ، وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحماها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة من انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدأ يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجبر إليها ، وتركوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، وما زالوا يرون لهم حق القيام به ، فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار ، حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك ، بما هم من البعد عن نسبتها .

وأما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بالعجم ، وتركها العرب ، وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحملها إلا العربون من العجم ، شأنها شأن الصنائع » (١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٧ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .

من هذا النص يسبين أن ابن خلدون رأى أن حملة العلوم - إلا القليل النادر - من العجم ، وبخاصة الفرس ، وأن العرب منهم في نسبه أعجمى في بيئته وتعلمه ومعرفته بلغة العجم وأخذ عن علمائهم .

وعمم حكمه هذا على العلوم التي كانت في ذلك الوقت ، ومثل بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وأصول وعقائد ، وبالعلوم اللسانية من نحو وصرف ولغة ، وبالعلوم الكونية التي ازدهرت بعد ذلك .

ثم علل اختصاص العجم بالعلوم وتخلف العرب عنهم بثلاثة أسباب :

(أ) كان العرب أهل بدواة في الوقت الذي كان فيه العجم أهل حضارة ، والبدواة لا تقتضى العلوم ، بل تقتضيها الحضارة ، فلما دعت الحاجة إلى وضع التفسير وتلوين الأحاديث واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، وإلى وضع القواعد النحوية ، تقدم العجم العرب ، لأنهم أصحاب ملكات راسخة من قبل .

(ب) لما تحضر العرب شغلهم الملك والحكم والسياسة والرياسة عن الاشتغال بالعلوم ، فاستقل العجم بها .

(ج) استنكف العرب - وهم أهل السيادة والرياسة - من ممارسة العلوم ، لأنها من أنواع الحرف والصناعات ، وتركوها للأعاجم ، ولم يجدوا في ذلك حرجا ولا نقصا ، لأن الدين الإسلامى لهم جميعا ، ولأن العلوم أعجمية النسبة .

٢- ثم صادفت دعوى ابن خلدون هوى عند خصوم العرب من الغربيين ، فشهبوا على العرب حملاتهم ، كما شن المتعصبون على

— ٣٣٣ —

الإسلام هجماتهم ، فصرنا نرى العرب هدفا تارة ، وبرى الإسلام والمسلمين هدفا تارة أخرى

والذى يعيننا فى هذا المقام تهجمهم على العرب .

فمثلا قال بروان Brawen : نخذ بما يسمى عامة علوم العرب . العمل الذى أسهم به الفرس تجد أنك أخذت خير نصيب .

وقال بول دى لاجار Poul de Lagard ليس بين المسلمين الدين . حققوا شيئا فى ميدان العلم سائى واحد (١) .

وقال س الجود C Elgood : النحو العربى من وضع الأجانب من الآراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التى أحس بها هؤلاء الأجانب لتعلم كتابة اللغة العربية وقرأتها على وجه صحيح ، وعلى الأنص غير العرب الذين ، أرادوا أن يكرسوا حياتهم للدراسات العلمية ، وواضعو النحو العربى هم الأجانب من الجنسيات الآرامية والفارسية الذين دخلوا الإسلام (٣) .

وزعم رينسان وأوليرى وغيرهما أن العلماء المتفوقين فى الأمة العربية والإسلامية يرجعون إلى أصول غير عربية ، وأضافوا إلى زعمهم هذا زعما آخر هو أن هؤلاء العلماء كانوا يرددون علوم سابقة يهيم من يونان وفرس وهنود وكلدان وآراميين ، فلم يضيفوا إلى التراث العلمى شيئا من ابتكارهم .

-
- (١) تراث فارس ٣٧٧ (العلم فى فارس . الفصل الذى كتبه C Elgood ترجمة الدكتور محمد كفافى وزملائه) .
 (٢) المرجع السابق ٣٧٠ .
 (٣) الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ٩٠ فون كريم ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

(٣) مناقشة الدعوى

أرأيت إلى الباحث المغرض كيف يتخذ من بعض الحق دليله على صواب الرأى كله ، فيعممه تعميما ، فيتجافى الصواب ، ويغمر الناس حقوقهم ؟

هكذا كان ابن خلدون ومن شابهه من المستشرقين وغير المستشرقين الذين جعلوا فضل العرب ، وتنكروا لآثارهم العلمية ، ووضعوا الإكليل على رموس العجم والفرس بخاصة . فلنأخذ في تفنيد دعاواهم وتقويض مزاعمهم ، حتى يتكشف بطلانها .

١ - لسنا ننكر أن كثيرا من العلماء الكبار يرجعون إلى أصل فارسي أو غير فارسي ، ولكن لا يصح أن ننسى أنهم قد انحدروا من أصل استعرب منذ زمن بعيد ، واصطنع اللغة العربية لغة علمية وأدبية ورسمية له ، بل لغة يومية يمارس بها شؤونه ، حتى إن أكثرهم لم يكن يعرف سواها ، وهؤلاء العلماء درسوا العلوم العربية والإسلامية باللسان العربي ، إذ كان الإسلام دينهم وينبوع ثقافتهم ، وكانت اللغة العربية لغتهم التي ألفوا بها كتبهم ورسائلهم ، بل إن أكثرهم كانوا يجهلون لغات آبائهم الأولين ، ولهذا خلفوا تراثهم العلمى باللغة العربية وحدها كالفارابى وابن سينا والرازى والخوارزمى والبىرونى وابن رشد وغيرهم .

فللفارابى - وهو تركى الأصل - نحو مئة رسالة وكتاب كلها باللغة العربية .

ولابن سينا - وهو فارسي الأصل - نحو مئتين وثمانين رسالة .
وكتابا باللغة العربية ، ماعدا بضع رسائل بالفارسية .

وللرازي - وهو من أصل فارسي - مئة وثلاثة عشر كتابا ورسالة
كلها بالعربية ، وكتب ابن رشد - وهو فارسي الأصل - كلها باللغة
العربية ، وهكذا .

فهم إذن عرب بلغتهم وثقافتهم ومؤلفاتهم .

والذي يقرأ كتبهم يجدهم قد امتزجوا باللغة العربية امتزاجا ،
ويشعر بإعزازهم لها ، وحلبهم عليها ، وفخارهم بها ، ويجد كثيرا منهم
يتعصبون لها ، ويرفعونها مكانا عليا ، إذ كانت لغة القرآن الكريم .
والحديث الشريف ، ولها ثراؤها وبلاغتها .

فمن الخطأ أن نعدهم غير عرب وهم يعدون أنفسهم من العرب .
وليس من الصواب أن نلصق شخصا بأصله البعيد الذي انحدر
منه منذ عشرات السنين أو مئاتها وهو نفسه قد نسى هذا الأصل ، أو
صار يذكره على طيف من التاريخ ، وائتمى إلى جنس آخر اعتنق
دينه ، وثقف بثقافته ، واصطنع لغته للتعبير بها عن فكره ووجدانه .

ولهذا كان اليونان محقين في وصفهم من يتكلم اليونانية بأنه
يوناني مثلهم .

وقد أنكر جماعة من العرب أن يكون سلمان الفارسي وصهيب
الرومي وبلال الحبشي عربا ، لهم ما للعرب من شأن ، فغضب النبي .
صلى الله عليه وسلم وقال : ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ،
وإنما هي باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي .

٢- وإنه ليسترعى النظر أن أكثر العلماء المنسويين إلى الفرس قد انقطعت صلتهم بنسبهم هذا ، حتى لنجد بينهم وبين الفرس عددا من الأجداد قد تسجله تراجمهم ، وقد تختصر فتقف عند حد معين ، وهم مع عربتهم دينا ولغة وثقافة متأثرون بالمجتمع العربى الإسلامى إلى أبعد حد ، ولولا الإسلام والحرية التى نعموا بها فى ظلاله ، ولولا التشجيع الذى حفز به الحكام المسلمون نشاطهم وعزائمهم ما أنتجوا هذا الإنتاج الذى رفع من أقدارهم .

ولنضرب أمثلة هؤلاء العلماء والأدباء :

فبديع الزمان الهمداني صاحب المقامات المعروفة (توفى سنة ٣١٨ هـ) اسمه : أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد (١) .

والبيهقى اللغوى المقرئ النحوى (٥٤٤ هـ) اسمه : أحمد بن على ابن أبى جعفر محمد بن أبى صالح البيهقى (٢) .

والميدانى مؤلف مجمع الأمثال وغيره فى اللغة والنحو والأدب (٥١٨ هـ) اسمه : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى النيسابورى (٣) .

وابن خالويه النحوى اللغوى (٣٧٠ هـ) اسمه : الحسين بن أحمد ابن حمدان بن خالويه (٤) .

والكسائى النحوى اللغوى المقرئ (١٨٢ هـ تقريبا) اسمه : ابوالحسن

(١) معجم الأدباء ١٦١/٢ .

(٢) المعجم ٤٠/٤ .

(٣) المعجم ٤٥/٥ .

(٤) المعجم ٢٠٠/٩ .

علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان ، ينتهي نسبه إلى بهمن بن فيروز (١) .
والجرجاني مؤلف الوساطة وأستاذ عبد القاهر الجرجاني (٣٩٢)
اسمه : علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل (٢) .

وسيبويه اسمه : عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن
كعب ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي ، أصله من البيضاء من
فارس ، ومنشؤه بالبصرة (حوالى ١٦١ أو ١٨٠) (٣) .

والطبري المؤرخ المفسر المحدث الفقيه (٣١٠) اسمه : محمد
ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (٤) .

والفراء اللغوي النحوي اسمه : يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور
ابن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي مولى بني أسد (٢٠٧) (٥) .

وابن فارس الراوية اللغوى المشهور (٣٦٩) اسمه : أبو الحسن
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب (٦) .

٣- وجدير بنا أن ننتبه إلى أن كثيرا من العلماء عرب خلص ،
ولكنهم نسبوا إلى بلدان أعجمية ، فظن بعض الدارسين أنهم عجم .
من هؤلاء مسلم بن الحجاج النيسابورى ، فهو عربى من قُشَيْر ،
لكن أهله كانوا يقيمون بنيسابور فنسب إليها .

(١) المعجم ١٦٧/١٣ ووفيات الأعيان ٤٥٧/٢ .

(٢) المعجم ١٤/١٤ .

(٣) المعجم ١١٤/١٦ .

(٤) المعجم ٤٠/١٨ .

(٥) المعجم ٩/٢٠ .

(٦) المعجم ٨٠/٤ ووفيات الأعيان ١٠٠/١ .

ومنهم أبو الفرج الأصفهاني ، فهو عربي من بني أمية ، لكنه ولد في أصفهان فنسبوه إليها .

ومنهم أبو داود السجستاني مؤلف السنن ، فهو عربي من الأزد منسوب إلى سجستان .

ومنهم الأبيوردي الشاعر المؤلف أبو المظفر محمد بن أبي العباس ، فهو عربي ينتسب إلى عبد مناف .

ومنهم الطوسي الذي روى عنه أبو الفرج الأصفهاني ، وأبو عبيد الله المرزباني ، فهو أبو عبد الله أحمد بن سليمان بن داود . . . بن سنان ابن حكيم .

ومنهم التبريزي اللغوي النحوي الأديب المؤلف ، فهو أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني (١) .

ومنهم أبو حامد المروزي - نسبة إلى مرووذ - أحمد بن بشر العامري ، عربي من بني عامر ، وهو فقيه شافعي صنف الجامع في المذهب ، وشرح مختصر المزني ، وصنف في أصول الفقه ، وكان إماما لا يشق غباره نزل البصرة ، ودرس بها ، وأخذ عنه فقهاؤها ، وقد وصفه أبو حيان التوحيدى بأنه بحر يتدفق بالسير والأخبار واستنباط المعاني والثبات على الجدل والصبر في الخصام ، وقال إنه أنبل من شاهدته في عمرى (٢) .

وقد بلقب العالم العربي بلقب يومهم أنه أعجمي ، مثل إبراهيم

(١) وفيات الأعيان ومعجم الأدباء عند هذه الأعلام .

(٢) البصائر والذخائر لأبي حيان ١٥٠/٢ ووفيات الأعيان ٥٢/١ .

ابن محمد بن عرفة العتكي الأزدي ، فقد لقب بِنِقْطَوِيَّةٍ على مثال
سيبويه ، تشبيها له بالنقط ، لدمايته وأدمته (١)
وهكذا تتكرر الأمثال .

٤- والعجب من ابن خلدون إذ قرر أن العربي من العلماء عجمي في
لغته ومرباه وأساتلته ، لأنه تناسى أن البيئة لم تكن عربية خالصة
ولا عجمية خالصة ، بل كانت - في فارس خاصة - مزيجاً من هذه
وتلك في كثير من مظاهر الحياة . -

ولقد جانب الصواب في دعواه أن العلماء العرب كانوا عجماً في
لغتهم ، لأن أكثرهم لم يكن يعرف غير العربية .

على أنه ناقض نفسه في قوله إن سيبويه والفارسي والزجاج عجم في
أنسابهم ، وإنما ربُّوا في اللسان العربي ، فاعتسبوه بالمرَبِّي ومخالطة
العرب ، وصيروهم قوانين وفناً لمن بعدهم .

فهو يرى البيئة هنا متأثرة بالعرب ، ويراهنا من قبل عجمية اللغة
والمظاهر والأساتلة .

٥- وقد نوافقه على بعض تعليقه لكثرة العلماء من العجم ، ولكننا
نخالفه في دعواه أن العرب أنفوا - لأنهم سادة - من الاشتغال بالعلم ،
وتخلوا عن ميادينهم للعجم .

ذلك أن للعرب في تاريخ العلوم مجداً متألّفاً لا يَحْبُو ، فقد عكفوا
على العلم منذ شرح الله صدورهم للإسلام ، ووجدوا في طلب العلم عبادة
واستجابة لدعوة دينهم ، وكانوا بطبيعتهم متأهبين للتحضر والترقي .

فأقبلوا على مناهل العلم إقبالا ، وشجعوا العلماء والأدباء تشجيعا جديرا بالثناء ، ولهذا كانت ثقافتهم في العصر الأموي — قبل أن ينقلوا عن الفرس واليونان والهنود شيئا ذا قيمة — متعددة الألوان وكان علماءهم يعمرّون الأمصار .

ولم يأنف العرب أن يتلقوا الثقافة منذ العصر الأموي على بعض اليهود والنصارى ، ولا على بعض الموالى مثل الحسن البصري وسعيد بن جبّير وابن جريج وابن سيرين وعطاء بن يسار . ثم إن بعض الخلفاء والأمراء كانوا في العصر الأموي والعباسي يباهون بعلمهم ، وكانوا يقربون العلماء إليهم ، ويغدقون عليهم ، ويرفعونهم مكانا عليا ، فضربوا بهذا أروع مثل في الشغف بالمعرفة وتقدير رجالها .

(٤) نتائج المناقشة

إنصاف العرب

لعله قد استبان من مناقشة قضية العلوم بين العرب والفرس هذه الحقائق :

الحقيقة الأولى :

أن ابن خلدون لم يكن دقيقا في حكمه وفي تعميمه . وليس يعنينا الدافع إلى هذا الحكم ، أهو التعجل ؟ أم نقص الاستقراء ؟ أم التأثر برأى سابق أم التعصب على العرب لأسباب معاصرة ؟ أم أنه كان يقصد الأعراب ؟ .

نلاحظ أن الحديث النبوي الذي ذكره وهو : « لو تعلق العلم

بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » من الأحاديث التي وضعها الشعوبيون ، ووضع العرب نقائص لها ، فمنذ اشتعلت العصبية بين العرب والعجم في العصر العباسي ألف الفرس كتباً شتى في الانتصار لأنفسهم ، بعضها للإشادة بمناقبهم وبمناقب العجم عامة (١) ، وبعضها في الانتقاص من قدر العرب والتشنيع بمثالبهم ، وهذه الكتب كثيرة ، منها : كتاب نصوص العرب وكتاب مثالب العرب لأبي عبيدة معمر ابن المثنى (٢) .

ومن المبالغة في العدوان أن ينقل أحد الشعوبيين التهجم الحانق على العرب وعلى الإسلام إلى ملك الروم . وذلك أن يونس محمد ابن كيسان (حوالي سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م) ألف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام - كما زعم - وصار به إلى ملك الروم ، فأعطاه مالا . وقد اشتهر يونس هذا بابن أبي فروة ، وهو لقب كان يطلق على جده كيسان الذي كان كاتباً للخليفة عثمان بن عفان .

وكان يونس نديماً لجماعة من الزنادقة ، يجتمعون على الشراب وقول الشعر وهجاء بعضهم بعضاً هزلاً تارة وعمداً تارة ، منهم والبة ابن الحباب ومطيع بن إياس وعبد الله بن المقفع (٣) .

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بسلاح آخر أشد خفاءً ، وأسرع

(١) الفهرست لابن النديم ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،

الخ .

(٢) معجم الأدباء ١٩ / ١٦٢ .

(٣) الحيوان للجاحظ ٤ / ٤٤٦ ، ٤٤٨ والأغاني ١٦ / ١٤٣ ولسان الميزان ٢ / ٣٥٣

و ٦ / ٣٣٤ وأما المرتضى ١ / ١٣٢ والأعلام للزركلي ٩ / ٣٤٧ .

وبعض المراجع تذكر أنه ابن أبي فروة وبعضها تذكر أنه ابن فروة ، وأرجح الأول ، لأن حمادا هجاه فقال : أما ابن فروة يونس فحذف كلمة (أبي) للوزن

تصديقاً ورواجاً ، لأنّ الذى يقرأ كتاباً فى مفاخر العجم أو فى متالب العرب يتراءى له شك فيما يقرأ ، وكثيراً ما يعرضه على مقاييس العقل والخبرة والثقافة فيرفضه رفضاً ، ولهذا عمد بعض الشعوبية إلى طريقة لا يعترضها شك أو رفض ، هى أنهم اختلقوا أخباراً وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسروا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا فى الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث ما يُعلى ! قدرهم (١) ، كزعيمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » (٢) « ففيل : من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سلمان الفارسي ، وقال : « هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لئله رجال من فارس » .

وكزعيمهم أن العجم ذُكرت عند رسول الله فقال : « لأننا بهم أوثق منى بكم » .

وزعيمهم أن رسول الله قال : « سيأتى ملك من ملوك العجم ، فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق » .

وزعيمهم أنه قال : « لاتسبوا فارساً ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلاً » .

ومن العجيب أنهم ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور ابن حنيفة ،

(١) العقد الفريد ٥٥/٢ .

(٢) سورة محمد ٣٨ .

وافتحخر به ، فقال : « إن آدم افتخر بي ، وأنا افتخر برجل من أمتي اسمه نُعمان ، وكنيته أبو حنيفة ، هو سراج أمتي » .

ولقد قابل العرب هذا السلاح بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تختصهم بالتفوق والتكريم ، منها : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تنله مودتي » ، ومنها : « إذا اختلف الناس فالحق في مضر » ، ومنها : « أحبوا العرب لثلاث لأنني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » .

الحقيقة الثانية

أما الحقيقة الثانية فهي أن العرب ساهموا في الإنتاج الفكري بنصيب عظيم ، وشاركوا في النهضة العلمية والتطور الثقافي بمئات الكتب التي ألفوها ، وبكثير من التجارب العلمية التي أجروها ، فليس من الصواب في شيء ما زعمه (براون) من أن الفرس وحدهم ساهموا بخير نصيب في الثقافة العربية ، وليس من الحق ما ذهب إليه (فون كرمير) في دعواه أن الفرس والآراميين هم الذين وضعوا النحو العربي .

وإذا كان تاريخ العلوم ينقض مادعاه براون وفون كرمير فإنه ينقض أيضا ما زعمه (دي لاجارد) أنه ليس بين المسلمين الذين حققوا شيئا في ميدان العلم سائ واحد ، لأن هذه دعوى جنسية متجنية مبعثها التعصب المقيت .

ومن السهل على الباحث المنصف أن يستبين أن العرب وضعوا بعض العلوم ، وألفوا فيها قبل أن يتصلوا بالعجم ، ثم ساهموا بنصيب عظيم مشكور في النهضة العلمية بعد اتصالهم بالفرس واليونان والهنود وغيرهم .

١- ففي العلوم الشرعية كان مالك بن أنس أول من ألف في الفقه الإسلامي ، وكان الشافعي أول من وضع علم الأصول ، حتى يقال إن نسبته إليه كنسبة المنطق إلى أرسطو ونسبة العروض إلى الخليل .

ولا يصح أن ننسى أن الأئمة الثلاثة - مالكا والشافعي وأحمد ابن حنبل عرب خلص .

وإذا كان أبو حنيفة فارسي الأصل فإنه تلقى أكثر علمه على عرب ، أحدهم حماد بن أبي سليمان الأشعري - نسبة إلى قبيلة أشعر اليمانية - فقيه الكوفة ، وكان أبو حنيفة يدين له بالفضل ، ويدعو له بعد موته ، حتى لقد قال : ماصليت قط إلا دعوت لشيخى حماد :

والثاني إبراهيم النخعي ، فقد تأثر أبو حنيفة بآرائه حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه يطبق مذهب النخعي ، ويفرع على أصوله .

كذلك درس أبو حنيفة على زيد بن علي زين العابدين ، وعلى محمد الباقر زين العابدين ، وعلى جعفر الصادق ، وعلى عبد الله بن الحسن ، وابن الحسن ، وعلى جابر بن يزيد ، وعلى عامر الشعبي ، وهؤلاء كلهم عرب .

على أن حمادا أستاذ أبي حنيفة تلقى على عربيين يمينيين هما إبراهيم النخعي وعامر الشعبي ، وتلقى هذان على عرب هم : شريح ابن الحارث الكندي ، وعلقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، وهؤلاء الأربعة أخذوا عن علي ابن أبي طالب وعن عبد الله بن مسعود .

ولابد أن نلاحظ أن أشهر تلاميذ الإمام أبي حنيفة ثلاثة هم :

أبو يوسف ومحمد وزُفر ، أما أبو يوسف وزفر فهما عربيان ، وأما محمد ابن الحسن الشيباني فهو من الموالي ، ونسبته إلى شيان بالولاء .

ولمّا إذن فقد تبين أن ثلاثة من أصحاب المذاهب الأربعة عرب خلّص ، وأن أكثر أساتذة أبي حنيفة عرب ، وأن اثنين من تلاميذه الثلاثة الكبار عربيان ، كما اتضح أن كثيرا من علماء التشريع عرب خلّص .

ومن مفاجاة الحق أن يتناسى باحث في هذا المجال كثيرا من علماء التفسير والحديث ورواد التشريع ، مثل عبد الله بن عباس وعلى بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وسعيد بن المسيّب والأوزاعي وأبي الدرداء وعروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وإياس بن معاوية . فإذا نظرنا إلى مراحل تدوين الحديث النبوي رأينا عبد الله ابن عمرو بن العاص يدون ماسمع من رسول الله ، وقد حدث مجاهد أنه رأى عند عبد الله صحيفة ، فسأله عنها ، فقال له : هذه الصادقة ، فيها ماسمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد (١) .

ثم دون محمد بن مسلم الزهري الحديث الصحيح بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتتابع المدونون بعد ذلك ، إلى أن ظهرت طبقة الإمام مالك والأوزاعي والثوري وأحمد بن حنبل وكلهم عرب .

٢- وأما العلوم اللغوية فإننا لاننكر أن كثير من أبناء الفرس برعوا فيها ، مثل سيبويه والكسائي والفراء وأبي علي الفارسي والزجاج

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٩/٧ وقد قرأت منذ سنوات بعد الطبعة الأولى لهذا الكتاب أنهم عثروا على الصحيفة بالهند وطبعوها .

وابن جنى وابن فارس والجوهري ، ولهم مؤلفات شتى وآثار عظيمة .
ولكن لا يصح أن نتغاضى عن جهود العرب ومؤلفاتهم ، قبل أن
يتصلوا بالفرس وغيرهم اتصال ثقافة ونقل .

فقد وضع أبو الأسود الدؤلى (المتوفى سنة ٦٩ هـ) أول لبنة فى
صرح النحو العربى فى عهد على بن أبى طالب (١) .

ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدى العربى الصميم فأكمل
النحو ، وشيد صرحه ، وتركه ليظهره بعده للناس تلميذه سيوبه (٢) .
ونحاة العرب كثير ، منهم الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء
والمازنى وابن دريد والأزهري والمبرد والنضر بن شميل والضبي وابن
الأنبارى .

ومن مفاخر الخليل بن أحمد أنه أول من وضع معجما للكلمات
العربية سماه العين ، وأنه أول من استنبط بحور الشعر العربى ،
وحصرها فى ستة عشر .

٣- وإذا كان من أبناء الفرس من برعوا فى رواية اللغة والشعر
والدراسة الأدبية كابى عبدة معمر بن المثنى وحامد الراوية وخلف
الأحمر وأبى عمر الشيبانى والتبريزى وعبد القاهر الجرجانى ، فقد
برع فيها كثير من العرب ، مثل قتادة بن دعامة ، وهو من رواة
العصر الأموى ، قالوا عنه : لم يأتنا شيء من علم العرب أصبح مما أتى
به قتادة .

ومثل أبى عمرو بن العلاء أعلم الناس بالقراءات وبالعربية وبأيام

(١) وفیات الأعيان ٢/٢١٦ والأغاني ١٢/٢٩٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٤ .

العرب وأشعارهم ، وكان قد دون عن فصحاء العرب كتب ملأت
حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، فلما رجع
إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه عقله .

ومنهم الأصمعي وأبو زيد الأنصاري والمفضل الضبي ومحمد بن
سلام الجمحي والجاحظ والمبرد وأبو حيان التوحيدي وأبو الفرج
الأصفهاني .

٤- ولقد يمثلون مؤرخين من أبناء الفرس كالطبري وابن مسكويه
والبلاذري وابن خلكان .

ولسنا نجمع فضل هؤلاء العلماء وأشباههم ، ولكننا لا ننسى أن
كثيرا من المدونين الأولين للسيرة النبوية عرب ، مثل أبان بن عثمان
ابن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وشُرَّ حَبِيل بن سعد وعبد الله بن
البكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن شهاب والزهرى
وابن هشام .

ولا ننسى أيضا أن كثيرا من الذين سبقوا إلى تدوين التاريخ
الإسلامي عرب ، منهم أبو مخنف لوط بن يحيى وسيف بن عمر والزبير
بن بكار والهيثم بن عدي ، وللهيثم هذا فضل سبق إلى ترتيب الحوادث
حسب السنين ، وقد استقى الطبري من كتب هؤلاء ، واعتمد عليها .

كذلك اشتهر من مدوني الأنساب عرب مثل محمد بن السائب
الكلبي وابنه هشام وأبي اليقظان النسابة .

أما المؤرخون العرب بعد هؤلاء فهم كثير ، منهم المسعودي وأبو
الفرج الأصفهاني وعبد الرحمن بن خلدون .

٥ - وكذلك العلماء شارك العرب مشاركة عظيمة القيمة في البحوث الفلكية والجغرافية وارتداد البحار .

ومن واجب الشريف الإدريسي علينا أن نذكره في هذا المقام ، فإنه ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، وقد ولد بمدينة سبتة سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ودرس في جامعة قرطبة ، ثم جاب شمال إفريقيا وآسيا الصغرى وغيرهما ، وذاع صيته ، فاستدعاه روجر الثاني ملك صقلية وجنوبي إيطاليا ، وكان قد زامله في الدراسة ، وكان بلاط الملك شرق السمات عربى الثقافة ، فلبى طلبه ، وألف له كتابه القيم (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ورسم صور الأقاليم على نضد أو على كرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم .

وكتابه هذا أوسع كتاب جغرافى إلى عصره ، ولهذا اهتم العالم به ، فعنيت كل أمة بما كتبه الإدريسي عنها ، فترجم إلى اللاتينية في آخر القرن السابع عشر ، وطبع منه القسم المختص بإسبانيا مع ترجمته الإسبانية سنة ١٧٩٩ م ، وطبع منه وصف الشام وفلسطين في ليبسك سنة ١٨٢٨ م ، وطبع قسم منه في ليدن سنة ١٨٦٤ ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة ببعض مكتبات أوروبا ، وفي دار الكتب بالقاهرة نسخة مصورة .

وحسبه هذه الشهادة التى تشيد بفضله : « ومن كتب الإدريسي التى ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا الجغرافية فى القرون الوسطى ، (١) ويقتضينا الإنصاف أن نذكر شهاب الدين أحمد بن ماجد بن

محمد السعدى بن أبى الركائب النجدى الذى كان يلقب فى القرن الخامس عشر الميلادى بأسد البحر ، وهو من أسرة عربية عريقة فى الملاحة ، فقد كان أبوه وجده ملاحين مشهورين ، ولهما رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر .

وقد كتب عنه العلامة جبريل فراند Ferrand بحثاً مستفيضاً فى دائرة المعارف الإسلامية ، أكد فيه أن ابن ماجد كان المرشد لفاسكودى جاما فى رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨ م وفى الكشف عن الطريق إليها .

على أن ابن ماجد خلف مؤلفات نثرية وشعرية فى الملاحة جديدة بالتقدير ، نشرها جبريل فراند ، منها كتاب (الفوائد فى أصول البحر والقواعد) سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ فى مئة صفحة وإحدى وثمانين ، يتضمن ما يحتاج إليه الملاحون من معرفة منازل الأبراج والرياح ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، ومعرفة الجهات وأصول الملاحة عامة .

وهذا الكتاب أرجوزة فى نحو ألف بيت ، تتناول أحد عشر بحثاً ، وأرجوزة ثانية فى مئتين بيت ، وأرجوزة ثالثة فى خمس مئة بيت .

ثم نشر فراند سنة ١٩٢٥ م ثلاث قصائد فى الملاحة لابن ماجد . وقال إن وصف ابن ماجد لبحر القلزم (البحر الأحمر) لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف ، وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وعن الطرق المؤدية إلى عبور المحيط الهندى ، كلها بلغت من التفصيل والدقة إلى الحد الذى لم يكن متوقفاً من ملاحى ذلك العصر .

وذكر أن ربابنة السفن في الهند والجزر القريبة منها كانوا إلى
 النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يفارقون كتاب ابن ماجد .
 ٦- وإذا كان بعض العجم قد تفوقوا في الفلسفة وعلم الكلام ،
 مثل واصل بن عطاء وعمر بن عبيد وأبي الهذيل والعلاف والنظام
 والفارابي والرازي وابن سينا وابن رشد ، فإننا لا نمارى في ذلك ، بل
 نعز به .

ولكننا نجد في العرب الخلفاء أندادا لهم ، منهم بشر بن المتمر
 والجاحظ وثمامة بن الأشرس النميري وجعفر بن مبرش الثقفي وجعفر
 ابن حرب الهمداني وأحمد بن أبي دؤاد والشريف المرتضى والأشعري
 وأبو حيان التوحيدى وابن خلدون .

وجدير بنا في هذا المقام أن نذكر يعقوب بن إسحاق الكندي
 (١٨٥ - ٢٥٢ هـ) ، فقد برع في الطب والحساب والهندسة والمنطق
 والفلسفة والفلك والموسيقى ، وألف في هذه العلوم أكثر من مئتين
 وأربعين كتابا ورسالة (١) ، منها اثنان وعشرون في الفلسفة ، وثمانية في
 المنطق ، وخمسة في التقسيمات ، وسبعة عشر في الجدليات ، وعشرة في
 الأحكاميات ، واثنان عشرة في السياسة ، وسبعة في الموسيقى ، وتسعة
 عشر في النجوميات .

٧- أما علم الاجتماع فإنه من مفاخر العرب ، وحسبنا أن نمثل في
 هذا الصدد بابن خلدون ، فهو عربي ينمى إلى وائل بن حجر ، عاش في
 الأندلس وشمال إفريقيا ومصر والشام فيما بين سنة ٧٣٢ هـ

(١) طبقات الأطباء ٢٠٦ لابن أبي أصيبعة واختار العلماء بأخبار الحكماء ٢٤٠ للقفطي .

(١٣٣٢ م) وسنة ٨٩٨ هـ (١٤٠٦ م) ، وهو المنشئ الأول لعلم الاجتماع ، وإمام في فلسفة التاريخ ، ورائد مجدد في علم التاريخ وفي الترجمة الذاتية لنفسه .

وليس الفضل في إنشاء علم الاجتماع راجعا إلى فيكو Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤ م) كما زعم الإيطاليون ، ولا إلى كتليه Quetelet (١٧٩٦ - ١٨٧٤ م) كما ادعى البلجيكيون ، ولا إلى أوجست كونت August Conte (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) كما قال الفرنسيون ، بل يرجع إلى ابن خلدون الذى ظهر قبل هؤلاء جميعا بنحو أربعة قرون ، فأقام هذا العلم على دعائم وطيدة ، وسار فيه على صراط واضح مسقيم ، واستوعب مسائله ، ووصل في تنظيم دراساته والكشف عن حقائقه إلى شأو رفيع لم يصل إلى مثله واحد من هؤلاء .

ولسنا وحدنا الذين نعجز بهذا الرأى ، فقد جهر به كثير من المنصفين من علماء الاجتماع المحدثين .

من هؤلاء العلماء لودفيج جمبلوفتشن ، والعلامة كولوزيو ، والعلامة فارد ، والعلامة شميث الذى قال في كتابه (ابن خلدون عالم الاجتماع والمؤرخ والفيلسوف) سنة ١٩٣٠ : إن ابن خلدون قد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها أوجست كونت في النصف الأول من القرون التاسع عشر ، ولو أن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون ، واستعانوا بالحقائق التى كشف عنها المناهج التى أحدثها ذلك العبقري العربى قبلهم بمدة طويلة ، لو أنهم فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم

الجديد بسرعة أعظم كثيرا مما تقدموا به (١) .

٨- فإذا ما انتقلنا إلى علم الكيمياء وجدنا العرب المخلص قد ساهموا فيه بنصيب كبير محمود .

ومن الذى يستطيع أن يتغاضى عن جابر بن حيان ؟

إنه عربى صميم ينتمى إلى الأزد ، وكان له معمل فى بغداد يعجرى فيه تجاربه وبحوثه ، وكان هارون الرشيد والبرامكة يجعلونه ، وله مؤلفات كثيرة فى الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعى ، تبلغ نحو مئتين كما ذكر ابن النديم ، ترجم عدد كبير منها إلى بعض اللغات الأوروبية ، وله بحوث قيمة فى التكليل وفى إرجاع المعدن إلى أصله بالأوكسجين ، وفى تحسين طرق التبخير والتصعيد والصهر والتبلور . « وقد ترجم عدد من كتبه الكثيرة إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧٢ م ، فدل هذا على دوام نفوذه العلمى مدة طويلة فى أوروبا .

وتشتمل كتبه على وصف كثير من المركبات الكيماوية التى لم تذكر قبله ، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب اللذين لا يتصور علم الكيمياء بغيرهما ، والبوناس وملح النشادر وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى والراسب الأحمر ... » (٢) .

وما زالت صورته بمكتبة آل مديسى بفلورنسا يشع منها نور الحكمة ، وقد نقلها العلامة هو ليارد الأستاذ بكلية كلفتون بانجلترا فى كتابه (مشاهير الكيميائيين) .

٩- ويأتى تاريخ الطب عند العرب إلا أن يستعلن ، ويكفى فى

(١) مقالة ابن خلدون ٢٨٥ الدكتور على عبد الواحد وائى .

(٢) حضارة العرب ٥٧٢ جوستاف لوبون .

هذا المقام أن نشير إلى بنى زُهر الذين نشأوا بالأندلس منذ بداية القرن العاشر إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وهم عرب خلص ، هاجر آباؤهم من جزيرة العرب ، واستقروا في الأندلس .

ومن هذه الأسرة أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهر ، الذى درس الطب على أبيه ، وتفوق فى تجاربه المبتكرة فى الأدوية ، وكان ابن رشد صديقا له ، وكان يعده أعظم الأطباء منذ جالينوس ، وله مصنفات كثيرة وإضافات جديدة إلى الطب ، كوصفه للأورام الحيزومية وخراج التامور وهى أمراض لم توصف من قبله ، ولم يكن يجهل التغذية الصناعية ، سواء أكانت عن طريق الحلقوم أم عن طريق الشرج ، وقد شرح طريقتهما بمهارة فائقة (١) .

وفى تاريخ الطب عند العرب كثير من أمثال ابن زُهر ، مثل محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي الذى برع فى الصيدلة وتركيب الأدوية وأكمل (الترياق الفاروقى) بالمفردات التى زادهما وعليه ، وله فى الترياق عدة مؤلفات مابين كبير ومتوسط وصغير ، وكان مختصا بالحسن بن عبيد الله بن طُنجح المستولى على مدينة الرملة ، وكان الحسن مغرما به وبلوائه ، وقد عمل له عدة معجونات طبية واقية من الأوبئة ، ثم أدرك الدولة الفاطمية عند دخولها مصر ، وصحب الوزير يعقوب بن كِلْس وزير المعز والعزیز ، وصنف له كتابا كبيرا فى عدة مجلدات سماه (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء) وكان بمصر حوالى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) (٢) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٨٣ .

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٤٧ للقفطى .

وما من شك في أن إنصاف العرب علميا يقتضي أن نفاخر
بأبن النفيس وهو علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي العزم القرشي
(علي وزن البكري) .

فهو أول من كشف عن الدورة الدموية الصغرى ، فسبق هارفي ،
بأربعة قرون ، وأول من فرق بين الأوردة والشرابين ، وأول من
وصف جدار القلب ، وعرف الدورة التاجية للقلب ، وأول من قال
إن أوردة الرئتين ليست مليئة بالهواء .

كان ابن النفيس يعمل بالقاهرة بمستشفى فلاوون .

ويرجع الفضل في الكشف عنه إلى الدكتور محيي الدين التطاوى
سنة ١٩٢٤م لأنه عثر على نسخة مخطوطة من أحد مؤلفات ابن النفيس
في مكتبة برلين فدرسها ونال بها درجة الدكتوراه من ألمانيا ، ثم عثروا
على نسخ أخرى بمكتبات باريس والأسكوريال وأكسفورد (١) .

الحقيقة الثالثة

أن العلماء الذين يمتنون إلى أصل غير عربي هم عرب في الحقيقة ،
لأن أسلافهم قد استعربوا ، فصاروا عربا بلغتهم العربية التي كان
أكثرهم لا يعرف غيرها ، وصاروا عربا بثقافتهم المتعددة ، وصاروا
عربا بمؤلفاتهم العربية ، وصاروا عربا بحبهم للعربية وحماسهم لها ،
حتى إن بعضهم ألف في مفاخر العرب ، ودافع عنهم ، وانتصر لهم .
ويكفي أن نمثل لاعتزازهم باللغة العربية بقول ابن جني في مقدمة
كتابه (الخصائص) : « كتاب من أشرف ما صنف في علم العرب ،

(١) تاريخ العلم عبد الحليم متنصر ١٧٧ .

وأذهب به في طريق القياس والنظير ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته .
هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونِيَّطَتْ به من علائق
الإنقان والصنيعة » .

ويقول الزمخشري في مقدمة كتابه (أساس البلاغة) : « خير
منطوق به أمام كل كلام حمد الله تعالى ومدحه بما تَمَدَّح به في كتابه
الكريم وقرآنه المجيد ، وأول ما قضى به حمد الله تعالى والصلاة على
النبي العربي المستل من سلالة عدنان ، المفضل باللسان ، الذي استخزنه
الله الفصاحة والبيان ، وعلى عِثْرته وصحابته مَدَارِهِ العرب وفحولها ،
وغرر بني مَعَدٍّ وحُجُولها » .

وقد مجد الزمخشري العرب ولغتهم ، وباهى بهم وبأخلاقهم ، وسخر
من الشعبوية في أبيات ، منها (١) :

وقل :

هل فشا في الأرض غير لسانهم لسانُ فُشُو الضوء واليوم شامس ؟
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسيهم في خصلة أو تلابس .
أجلُّ رسولٍ فيهمُ وبلسِنهمُ أجلُّ كتاب فاعتر يامنافس .
وقل للشعوبين إن حديثكم أضاليل من شيطانكم ووساوس .

الحقيقة الرابعة

إذا كان بعض الغربيين مثل رينان وأوليري وبراون قد تعمدوا
إنكار جهود العرب العلمية وسبقهم إلى الكشف عن كثير من الحقائق .
فإن بعض الغربيين المنصفين أشادوا بتفوق العرب الفكري وبجهودهم
العلمية .

(١) ديوان الزمخشري ٦١ مخطوط بدار الكتب .

فمثلا قال جوستاف لوبون : « يعجب الإنسان بالهمة التي أقدم بها العرب على البحث . وإذا كانت هنالك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب ، لأنهم كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وبناء مدرسة ، فإذا كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التطيلي المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية » . وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليلة وقرطبة وغيرها على جامعات محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية بكل ما يساعد على البحث العلمى . فكان للعرب في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ست مئة ألف كتاب ، فهارسها أربعة وأربعون مجلداً وقد قيل إن شارل الحكيم لم يستطع بعد ذلك بأربع مئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد ، يكاد يختص ثلثها بعلم اللاهوت » (١) .

كذلك نوه بعقلية العرب وفضلهم كاربنسكى في قوله : « إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدورة حق قدرها من المؤرخين ، وإن البحوث الحديثة قد دلت على أننا مدينون ديناً كبيراً للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم ، حينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى ، وإن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها ، وأضافوا إليها معلومات قيمة » (٢) .

(١) حضارة العرب ٥٢٦ جوستاف لوبون .

(٢) تاريخ العلم ٨٥ عبد الحليم منتصر .

وقال كاجورى : « إن العقل ليدّش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر ، وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الإفرنج كلمة Algebra » (١) .

وقال فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس ، وسبقهم فى ترقية العلم والفن ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أوروبا مدينة لهم بجهودهم العلمية التى كانت أكبر العوامل فى نهضتها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر » (٢) .

وقال سيديو : « إن نتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أوروبا فى جميع الأشياء » .

وقال سارتون : « لو لم ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ، فقد كانوا أعظم معلمين فى العالم منذ القرن الثامن حتى الثانى عشر الميلادى » (٣) .

وقال نيكلسون فى كتابه تاريخ العرب الأدبى : « لا تعد مكتشفاتنا الحالية شيئا ذا قيمة إزاء الدين الذى علينا للعلماء العرب الذين كانوا منارا للمعارف فى العصور الوسطى التى تكاثفت ظلماتها ، وبخاصة فى أوروبا » .

وهكذا أشاد كثير من المستشرقين بذكاء العرب وتفوقهم العلمى وجهودهم فى ميادين المعرفة ، ونوهوا بفضلهم على الغرب وآثارهم فى نهضته .

(١) المرجع السابق ٩٦ .

(٢) السابق ٩٨ .

(٣) السابق ٩٩ .

ولقد اتضح من هذا كله أن المسلمين من عرب ومن عجم كانوا وما زالوا يتسابقون في مجالى العلوم والآداب والفنون ، فيثرونها بإنتاجهم الرفيع ، وكانوا في تسابقهم إخوة أشقاء لا يفرق بينهم جنس ولا وطن ولا نسب ، لأنهم جميعا يستظلون براية الإسلام ، ويحتزون برفع لواء الحضارة .

التعقيب الثالث

النثر الفنى عربى النشأة

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان كالمسيو مرسيه ، فهو يرى أن أول كاتب فى اللغة العربية ابن المقفع الفارسى الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعلل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهى لا تقتضى نثراً فنياً ، لأن النثر النثى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال (١) .

وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، وفصل المقال فى هذا ، وعلله فى كتابه (حافظ وشوق) (٢) وفى كتابه (من حديث الشعر والنثر) (٣) .

أما ظهور النثر الفنى عند العرب فإن الدكتور طه حسين يرى أن

(١) النثر الفنى فى القرن الدابع ١/٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣

(٢) حافظ وشوق ٦٣

(٣) من حديث الشعر والنثر ص ٢٢ .

— ٢٥٩ —

أول القرن الثاني للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النشر الفنى (١) ، وربما كان من الحق أن أول من أحدث فى نفوسنا لذة الكتابة الفنية فى العصر الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع .
على أن الدكتور طه أكد أصالة النشر الفنى عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

والحق أن النشر الفنى نشأ نشأة عربية خالصة كما رأى الدكتور طه حسين ، فلم ينقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء .
لكن هذه الحقيقة قد تحتاج إلى تدليل عليها ، وإثبات لصحتها ، فينبغى أن أناقش ما ذهب إليه الأستاذ المستشرق مرسية من جهل العرب للنشر الفنى إلى أن ظهر عبد الحميد بن يحيى وعبد الله ابن المقفع .

— ١ —

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى فى البيان العربى ، شده العرب بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والناد .
أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن منزل على النبى من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لاطاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبى ، وزعموا أنه أوتى مقدرة خارقة ، فاتهموه بأنه ساحر وبأنه شاعر .

(٣) المرجع السابق ٢٨

(٢) المرجع السابق ٤٢

(١) المرجع السابق ٣٥

— ٢٦٠ —

وإذ كان القرآن ذورة البيان العربى ، ونزل بلسان عربى مبين (١) كما يصفه الله تعالى ، فإن من الطبيعى أن يكون العرب قبيل الإسلام قد مارسوا النشر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم ، فإن الله تعالى يقول « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (٢) ، ثم إن الله تعالى تحداهم فى عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ماتحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٣) .

لكننا بحاجة إلى نصوص نطمئن إليها فى معرفة العرب للنشر الفنى قبل الإسلام ، لأن الشك يخامر ماروى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وفقدان هذه النصوص التى نطمئن إلى صحتها ليس دليلاً على جهالة العرب بالنشر الفنى .

— ٢ —

العرب قوم ذوو لسن وبلاغة ، يحبون البيان والطلاقة والتجوير والرشاقة ، ويأمرون بالتبيين والتثبت والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرؤى (٤) .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ، قال تعالى : « ولتعرفنهم

(١) سورة الشعراء ١٩٢ .

(٢) سورة إبراهيم ٤

(٣) سورة الإسراء ٨٨

(٤) البيان والتبيين ١ - ١٩١ و ١٩٧ .

- ٢٦١ -

في لَحْنِ القول « (١) وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا وَيُشْهَدُ الله على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحاً ثم قادحاً ومعللاً لمدحه وقدحه : إن من البيان لسحرا (٣) .

لهذا كانت معجزة النبي من جنس ما تميزوا به ، من بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

- ٣ -

وقد كان للعرب في جاهليتهم أمثال كثيرة ، وسلم بعضها من النسيان والإغفال ، وبقي إلى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال . نعرفه اليوم كتاب الفاخر لأبي طالب المفضل بن سلمة المتوفى سنة ٢٩١ هـ . ولسنا نرتاب في نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلي ، كما نرتاب في الخطب ، لأن في طبيعة الأمثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلون بترديدها والاستشهاد بها ، لأنها تمثل تجارب الماضين وآرائهم وأحكامهم ، ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه في الحدث الحاضر ، ثم إنها تصور ألواناً من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة في تصويرها حينما قيلت ، وما تزال صادقة في تصويرها حينما يتمثل بها مرددوها .

ولكن معلقة الأمثال بالنثر الفني ؟ .

في كثير من هذه الأمثال صفات ترتفع بها عن اللغة المألوفة في الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة وافتنان .

فهى مرسله فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعاً وتمائلاً فى عدد الكلمات ، مثل (رب عجلة تَهَبُ رَيْثًا ، ورب فروقه يُدْعَى لَيْثًا ، ورب غيث لم يكن غيثًا (١) . ومثل : (رب ساع لقاعد (٢) . وهى تعتمد أحياناً على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة مستمدة من البيئة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ، مثل قولهم (كل فتاة بأبيها معجبة (٣) .

(١) الفاخر ٢٠٨ أول من قال ذلك مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيبانى ، وكان شيبان بن مالك بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيثاً فأراد أن يرسل بامرأته جماعة بنت عوف ، فقال له أخوها مالك : أين مظهر أختى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لاتفعل فإنها ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك بعض مقالب العرب ، قال : لكئى لست أخاف ذلك ففى وعرض له مروان القرظ بن زئبج بن جذيمة العيسى فأعجله عن زوجته ، وانطلق بها حتى جعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف لها سترًا ، فقال مالك بن عوف لشيبان : ما فعلت بأختى ؟ قال : لفتنى عنها الرماح ، فقال مالك : رب عجلة ... (٢) الفاخر ١٧٥ أول من قاله النابغة الذبياني ، وكان قد وفد إلى النعمان بن المنذر وفود من العرب فيهم رجل من بني عبس اسمه شقيق فأتى عنده فلما أعطى الملك الوفود بحث إلى أهل شقيق بمثل عطاء الوفد ، فقال النابغة حينئذ : رب ساع لقاعد ، وقال للنعمان :

أبقيت للعيسى فضلاً ونعمة ومحمد من باقيات المحامد
حباء شقيق فوق أعظم قبره وما كان يحبى قبله قبر وافر
أتى أهله منه حباء ونعمة ورب امرئ ساع لأخر قاعد

(٣) الفاخر ٢٥٣ : أول من قال ذلك العجاء بنت السعد بن علقمة وكانت قد خرجت مع ثلاث نسوة من بني سعد في ليلة طليقة ليتحدثن ، فأتين روضة ، فلما اطمأن بهن المجلس أخذن في الحديث عن أى النساء أفضل ، قالت إحداهن خير النساء الحريدة الودود الولود ، وقالت أخرى : بل خير النساء ذات الغنى ، وطيب الثنا ، وحسن الحيا ، وقالت الثالثة : خيرهن الشموع الجموع الحصان القنوع ، وقالت الرابعة : بل خيرهن الجامعة لأهلها المانعة الرافعة الواضعة . ثم قلن : فأى الرجال خير ؟ قالت إحداهن : الحظى الرضى القنوع غير الخطال (الشديد الغيرة) ولا التبال الحقود ، وقالت الأخرى : بل خير الرجال الوطى الدمث الأخلاق السئ ، الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الفرة ، قالت الثالثة بل خير الرجال الغنى المقيم ، الراضى لاهلوم ، قالت الرابعة : وأبيكن إن فى أبى لنمتكن .

قالت العجاء : كل فتاة بأبيها معجبة .

ومثل (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها (١)) .

وكقولهم في وصف المغرور بما يتوهم في نفسه من مزايا ومواهب .
أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها بغير أن يقيس ماعنده .
بما عند الناس : (كل مُجَرٍّ في الخلا يُسَرِّ) ، لأن الذي يجري فرسه
وحيداً ينخدع بسرعته ، لكنه إذا سابق به غيره ربما تبين له بطؤه
وضعفه .

وكقولهم فيمن يتنصل من خلق فيه أو من وصف ثابت له فيدعى
أنه طارئ عليه ، كأن يكون جباناً ويزعم أنه تقهر لمرض نزل به ،
أو يكون حقير النشأة فيدعى أن الدهر أخنى على مجد آبائه : (قبل
النفاس كنت مصفرة) لأن المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة
تزعم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها من آثار النفاس .

ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، فيضفى صفات الأحياء على
الجماد ، أو يضفى صفات العقلاء على غير العقلاء ، من إدراك وتعقل .
ورزانة وتهور ، مثل (أحرق من رجلة) لأنها تثبت في مجرى السيل
فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهى التي اختارت لنفسها
هذا المكان لتثبت فيه ، وكذلك قولهم :

(١) الفاخر ١٠٩ أى لآهتك نفسها وتبدى من عاسها مايبغى أن تبديه . أول من قال .
ذلك الحارث بن سليل الأسدي ، وكان زار علقمة بن خصفة الطائي وكان حليفا له ، فرأى ابنته .
الزباء فأعجب بها ، فقال : أتيتك خاطبا وقد ينكح الخاطب ويدرك الطالب ويمنع الراغب .
فقال له علقمة : أنت كفء كريم يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العقو ، فأقم نظرك في أمرك .
ثم انكفأ إلى أمها فأخبرها ، فقالت لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ السكهل الجحجاج .
(السيد السبع السكريم) الواصل المباح أم الفتى الوضاح ؟ قالت : لا ، بل الفتى الوضاح ...
فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث ، فأنشئ بها ، ثم رحل بها إلى
قومه ، فبينما هو ذات يوم جالس بفناء قبته وهى إلى جانبه إذ أقبل شاب من بني أسد يمتلجون ،
فتلفت ضعدها ثم بكى ، فقال لها : مايبكيك ؟ قالت : ماى وللشيوخ الناهضين كالفروخ ،
فقال لها : نكلتك أمك ، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . .

— ٢٦٤ —

(أكفر من حمار) و (أكيس من قشة (١)) و (أكتم من الأرض).

— ٤ —

احتنى العرب بالخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين في القدر .

يقول لبید (٢) :

ومقام ضيق فرجتُه ببيان ولسانٍ وجدلٍ

ويقول قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقعُ لُسنٍ (٣)

ويرثي أوس بن حجر فضالة بن كَلْدَة (٤) بأنه الخطيب الفذ في مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حَفَلُوا

عند الملوك أولى كَيْدٍ وأقوال

ويقول أبو قُرْدُودَة الطائي في رثاء ابن عَمَّار الطائي (٥) إن قاتليه

قد حرموا الناس كرمه العظيم ، ومنطقة الجميل الأخاذ الذي يشبه الثوب الموشى باليمن :

يا جفنةً كلزاء الحوض قد هدموا

ومنطقاً مثل وشي اليمنة الجبره (٦)

(١) القشة : القردة الصغيرة . (٢) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/٥٧ . (٤) المرجع السابق ١/١٨٠ .

(٥) المرجع السابق ١/٢٢٣ .

(٦) لُزَاء الحوض : مصعب الدلو فيه . اليمنة : يرد يني . الحيرة : بكسر الحاء وفتحها .

وفتح الباء ضرب من برود اليمن منبق موشى (لسان العرب مادة حبر) .

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون في مقالهم ويحبرونه ويزينونه ثم يسترسلون ، يقول الجاحظ (١) :

« كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب (٢) اقتداراً عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معازم التدبير ومهمات الأمور ميثوه (٣) في صلورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقاف . . أبرزوه محككا منقحا ، ومصفى من الأدناس مهذباً » .

أى أنهم كانوا أحياناً يعمدون إلى التحبير والتزيين والتنميق كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة في العصر الإسلامي ، ولا شك أن كثيراً من الخطب كان يُعدُّ إعداداً فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان إعداداً مكتوباً أو غير مكتوب .

يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان في يوم السقيفة قد زور - حبر وأعد - كلاماً ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئاً مما كان عمر يريد أن يقول (٤) .

وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صعداء ومشقة (٥) .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر فأرتج عليه فقال : إن أبا بكر

(١) البيان والتبيين ١٤/٢

(٢) المقتضب : المرتجل .

(٣) ميثوه . ذلوه .

(٤) الطبرى ٢٠٠/٢

(٥) البيان والتبيين ١١٧/١ .

وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله (١) .

وهذا النص صريح في أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما أو على الأقل بعض خطبهما ، وفي أن عثمان قد فوجيء غير مستعد ، فوعدهم بأنه سيعد خطبه لتجيء على النسق الذي يرضاه ويرتضونه .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبدالله بن وهب الراسبي - حين ولوه رياستهم - أن يخطب فيهم فقال : وما أنا والرأي الفطير والكلام القضيبي (٢) .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراء في خطبه (٣) ليخفى لثغته ، ومعنى هذا أنه كان يُعدها ويتمهل في إعدادها .

على أن طابع الإعداد والتأنق يتضح في كثير من خطب العصر الأموي ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ، وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة ، لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، بارعة التعبير متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على ألوان من الخيال .

ولقد يسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بمقدمة وثيقة الصلة بالموضوع ، ثم يعقبها العرض ، وبه أحيانا تدليل وتفنيد ، ثم تنتهي بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ، وهي بهذه المراحل قد

(١) المرجع السابق ١/٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٥/

(٣) المرجع السابق ١/١٤

— ٢٦٧ —

استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين (١) على أنه لا يشترط في الخطبة أن تضم هذه الأجزاء كلها ، لتكون بارعة أو كاملة ، فالمهم الموضوع نفسه ، لكن اشتمال بعض الخطب في العصر الأموي على هذه الأجزاء يؤكد أنها مُعدة قبل الإلقاء .

— ٥ —

لم تكن الكتابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا في بعضها التعبير والاحتفال ، كرسالته إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، ثم اتضح التنميق أكثر في الرسائل الكثيرة المتبادلة بين علي ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم عريت دواوين الخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خلص أو مستعربون حلقوا العربية . كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى .

وكان هؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم في النهوض بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاءهم في الدواوين موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النشر الفني لم يتمثل في الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها إلى ضرب آخر هو التأليف والتدوين .

(١) راجع كتاب (فن الخطابة) للمؤلف .

— ٢٦٨ —

ولقد كان كثير من يملون الرسائل أو يكتبونها يتخيرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، ومن هنا جاءت رسائلهم بليغة الصياغة ، طريفة الخيال ، كما نجد في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزياد وبين الحجاج وقطرى بن الفُجاءة .

ويدل على هذا أيضاً أن معاوية أملى كتاباً قال فيه عن رجل : « هو أهون علي من ذرة » ، أو كلب من كلاب الحرة » ثم قال للكاتب : امح من كلاب الحرة واكتب من الكلاب (١) ولعله كره هذه السجعة ، لأن كلاب الحرة ليست أكثر هواناً عليه من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية التي اشتهر العرب بها .

— ٢٦٩ —

أ : على أننا نتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح فنعتقد موازنة بين صفات النشر الفني عند عبد الحميد بن يحيى ، وصفاته في الرسائل التي كتبت في عصر بني أمية وبني مروان (٢) ، قبل أن يخط عبد الحميد سطرأ ، فماذا نجد ؟

نجد اتفاقاً ونجد تشابهاً في الجوهر ، ولا نجد اختلافاً إلا في الشكل والمظهر .

ولقد يكون هذا الحكم في حاجة إلى تفصيل فما تفصيله ؟ .
نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آناً ويوجز آناً ، مراعيماً ما يقتضيه

(١) رسائل الجاحظ ٧٥

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للمؤلف .

المقام وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنوع ، فقد كانت الرسائل قبله تطول أحياناً ، وتقصّر أحياناً ، مجارة للموضوع ، أو مراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وتوليد المعاني أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن أملوا رسائل في العصر الأموي ومن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى انتباهنا في نثر عبد الحميد أنه يجنح أحياناً إلى الخيال يُفوّف به الأفكار ، ولكن هذا ليس بجديد ، لأن في بعض الرسائل التي كتبت قبله ألواناً من الخيال لا تقل طرافة وجمالاً عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصاله .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتعجير وتعمد التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيراً من رسائل العصر أعدها كاتبوها أو أملوها وتأنقوا فيها وغمقوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل جملة ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذي لا استكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره في كثير مما يكتب ، لكنني أذكر أن هذه الصفات كلها في كثير من رسائل العصر الأموي .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتأنقه في البدء والمختام ، وتنويعهما حسب المقام ، وإطالته في البدء بنوع خاص . عبارات التمجيد والثناء مكررا المعاني تارة ، ومولدا بعضها من البعض تارة ، ولكن تفرده بهذا لا ينهض دليلاً على أنه أول من كتب في

العربية نشرًا فنيًا ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفته .
لنشر الفن قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغي أن ينصب على الأصل
والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر . ولأن النشر الفني
ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنيق والإطناب في مطالع
الرسائل ونحواتها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلوا
من التجديد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

- ٧ -

إذن كان النشر الفني معروفًا للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ،
لأن العرب كانوا يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد
وابن المقفع ، وجعل هذا النشر الفني يتطور ويترقى على ألسنة العرب ،
الذي أملوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة
الأموية نهايتها كان هذا النشر قد شارب نضجه ، ثم كان عبد الحميد
أول كاتب في الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت في آثار
قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار نشر
عبد الحميد وابن المقفع هو أول نشر فني يحدث في نفوسنا لذة ،
ونجد في قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النشر الفني في أدبنا العربي لم يكن يوناني النشأة ،
ولا فارسي المولد ، وإنما نشأ عربيًا خالص العروبة كما نشأ الشعر
وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسي واليوناني فقد تبين في النشر الفني واضحا بعد
ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك .

وعُلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معاملته في نشر ابن المقفع ومن بعده أوضح
منها في نشر عبد الحميد ومعاصريه .

التعقيب الرابع

التوقيعات عربية النشأة

ذهب بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا التوقيعات (١) عن الفرس ،
إذ كان الفرس قد اشتهروا بها .
وهذا رأي متعجن على العرب ، لأن التوقيعات نشأت نشأة عربية
خالصة .

(١)

وذلك لأنهم عرفوا التوقيع ومارسوه في أحسن صوره قبل أن يتصلوا
بالفرس أو غيرهم ويحاكوه في توقيعهم ، وليس ثمة فرق بين توقيعات
العرب في العصر الإسلامي وتوقيعاتهم في العصر العباسي .

(٢)

ثم إن التوقيع قائم على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى
الإيجاز ، ومقدرة على البيان ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، فلم

(١) للتوقيع معان كثيرة : ولعل معناه الاصطلاحي مأخوذ من وقعت الابل أي اطأنت
بالأرض بعد الشيع والري ، لأن الكاتب الموقع يطمئن إلى تصريفه للأمر وقضائه فيه .
أو من وقع ظنه على الشيء أي قدره ، لأن الموقع يكتب رأيه بعد تدبر .
أو من التوقيع وهو الرمي القريب والإصابة لأن الموقع يفصل في الأمر من أقرب طريق .
أو من التوقيع وهو إصابة المطر بعض الأرض وتخلفه عن بعضها فتختلف ألوانها ، لأن التوقيع
إلحاق شيء بالكتاب بعد الفراغ منه (لسان العرب مادة وقع) .

يكن العرب في حاجة إلى أن يحاكوا غيرهم^١ فيما يلائم طبائعهم أشد الملائمة .

(٣)

وقد كان الخلفاء يوجزون في توقيعاتهم على مايرفع إليهم من شكاوى ورغبات ، لبيان رأيهم فيها ، وكانت توقيعاتهم تتراوح بين آية قرآنية ، وحديث نبوى ، ومثل سائر ، وحكمة متداولة ، وجمله موجزة من الموقع نفسه .

وتميزت بأنها في مكان معين من حاشية الرقعة المرفوعة إلى الخليفة ، وبعداد مغاير للون الكتاب .

بهذا المعنى وعلى هذه الصورة عرف العرب التوقيع منذ عهد عمر ابن الخطاب :

ثم عهدوا بالتوقيعات منذ عهد الرشيد إلى كتاب يثقون بهم ، فصار التوقيع مهنة ، وصار له رجال من ذوى المقدرة البيانية ، يقول ابن خلدون : « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان في مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فلما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثلها في سجل يكون بيد صاحب القصة .

ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه .
واعلم أن صاحب هذه العظة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروعة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ،

فإنه معرضٌ للنظر في أصول العلم ، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ماتدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، ومع مايضطر إليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها .

(٤)

وهذه أمثلة من توقيعات الخلفاء الراشدين :

١- كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب في بناء يبنيه ، فوقع عمر في أسفل الكتاب : « ابن ما يُكنك من الجواهر وأذى المطر » .
ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعبتك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

٢- رويت توقيعات عن عثمان ، منها توقيعه على شكوى قوم من عامله مروان بن الحكم : « فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون » ، ومنها توقيعه على شكاية رجل شكاه إليه فقرا : « قد أمرنا لك بما يقيمك ، وليس في مال الله فضل للسرف » .

٣- ورويت توقيعات عن علي ، كتوقيعه في كتاب لابنه الحسن : « رأى الشيخ خيرٌ من جلد الغلام » ، وتوقيعه على كتاب لسلمان الفارسي سأل فيه عن طريقة حساب الناس يوم القيامة : « يحاسبون كما يرزقون » .

(٥)

أما توقيعات الأمويين فهي كثيرة ، منها :

١- كتب ربيعة بن عسل اليربوعي إلى معاوية يسأله أن يعينه

على بناء داره بالبصرة ، باثني عشر ألف جذع من النخل ، موقع معاوية على رسالته بقوله :

« أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ » .

٢- وكتب الحسن بن علي إلى معاوية كتابا ، أغلظ فيه ، موقع معاوية عليه بقوله :

« ليت طول حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك » .

٣- كتب مسلم بن عُبَيْدَةَ المُرِّي إلى يزيد بن معاوية بما فعله بأهل المدينة في وقعة الحرّة ، موقع في أسفل الكتاب بقوله : « فلا تناس على القوم الفاسقين » .

٤- كتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو أهل العراق ، فكان توقيعه على الكتاب :

« ارفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ماتكره ، ومع الخرق ماتحب » .

٥- كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة عبد الرحمن ابن الأشعث موقع على الكتاب بقوله :

« بضغفك قوّى ، وبخوفك هَلِّج » .

٦- كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدد بالخلع ، موقع سليمان بقوله : (والعاقبة للمتقين) .

٧- كتب بعض عمال عمر بن العزيز إليه ، يستأذنه في أن يرمّ مدينة ، موقع عمر بقوله . « ابنها بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم » .

٨- وهذا النسخ كثير من الخلفاء والولاة (١) .

(٦)

فلما قامت الدولة العباسية تولى خلفاؤها وولاها التوقيعات بأنفسهم
أول الأمر ، كما كان يفعل بنو أمية ، وكثرت التوقيعات في العصر
العباسي ، وزادت افتنانا .

١- فمن توقيعاتهم ما وقع به أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه
الناس :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا (١) » .

٢- وما وقع به أبو جعفر المنصور لأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم :
« كما تكونون يؤمر عليكم » .

٣- وما وقع به المهدي لرجل من بطانته يطلب صلة أبطات :
« ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

٤- وما وقع به الرشيد لعامله بخراسان : « داو جرحك لا يتسع » ،
وتوقيعه بعد قتل جعفر بن يحيى البرمكي : « أنبتته إطاعة ، وحصلته
المعصية » .

(٧)

لم يبق شك إذن في أن التوقيعات عربية المنشأ ، خالصة العروبة ،
مثلها مثل النثر الفني سواء بسواء .

الكتاب الثالث

آثار العرب في الفرس في الإسلام

(١)

الإسلام والحسنة

سار العرب إلى الحيرة وفارس حاملين العقيدة الإسلامية التي أنعم الله بها على البشر ، فلما دانت لهم فارس خيروا أهلها بين الإسلام والجزية ، كما كانوا يفعلون في البلاد التي فتحوها ، فهدى الله كثيراً من الفرس إلى الإسلام ، ثم شرح صدور أكثرهم فأسلموا مختارين راضين ، وما هي إلا حقبة من الزمن حتى برع كثير منهم ومن أبنائهم في العلوم الدينية ، وصاروا من أعلامها ، كابي حنيفة والبخاري ومسلم . وبهذا ارتفع الفرس من وهدة الوثنية وما يشبهها ممثلة في الزرادشتية والمآئوية والمزدكية ، إلى أوج التوحيد الخالص ، وتحرروا من النظم الاجتماعية الفاسدة إلى النظم الإسلامية السامية ، فقد كانوا يحلون بعض المحارم ، وإن ادعوا في القرون الوسطى أن عقائدهم المجوسية لم تكن تبيح لهم زواج المحارم (١) .

روى أن إسماعيل بن يسار - وكان شعوبيا - فخر على العرب

بقوله :

إِذْ تُرْبِي بَنَاتِنَا وَتَلْسُو نَ سَفَاهَا بَنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بار تولد .

وكان أشعب في السامعين ، فقال له : صدقتَ والله ، أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له ، قال إسماعيل : وماذا ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفاً من العار ، وريتموهن لثكنكوهن ، فضحك الحاضرون وود إسماعيل لو غاص في الأرض (١) .

ولقد نجم عن إسلام الفرس سمو في العقائد ، وعلو في النظم الاجتماعية ، وتحرر من أصفاد الحكم المطلق .

وقد سبق في الحديث عن الفتح الإسلامي لفارس أن الشعب كان يصطلي بنار الانقسام الديني ، فهناك زرادشتية تصطنعها الدولة دينها الرسمي ، ورجالها يضطهدون ماعداها من أديان ، وهناك مانوية قائمة على أسس من الكسل وترك الزواج ليفنى العالم ، وهناك مزدكية مخربة هدامة . تحض على شيوع النساء والأموال ، وإلى جانب هذه الديانات نصرانية يتعاضد نساطرتها ويعاقبتها ، والدولة تضطهد النساطرة واليعاقبة في كل حرب بينها وبين الروم ، وكان هناك يهود وصابئة طالما قاسوا شدائد التشكيل والاضطهاد .

على أن ترف الملوك والحكام ، والحروب الكثيرة بين الدولة وجيرانها ، واستئثار الملوك بالسلطان ، اقتضى فيضاً من الأموال يتدفق على خزائن الدولة ، فكانت الضرائب المتعددة الفادحة التي أن الشعب تحمت أثقالها .

وكان الملك وراثياً استبدادياً ، يزعم أن كسرى يملك نيابة عن الله ، فلم يكن يجرؤ أحد على الجهر بسخط أو اعتراض ، على حين أن

الأكاسرة في عزلة عن الشعب الذي يدين بأنهم يتولون شؤونه بتفويض من الله ، فمن حقوقهم على الشعب أن يسمع ويطيع ، وليس عليهم حق لأحد من هؤلاء الناس .

قال تولدكه : « إن ملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لبس التاج بما يجرى في عروقهم من دم إلهي » .

وقال براون : إن نظرية الحق الإلهي لم تُعْتَنَق كما اعتنقت في فارس في عهد ملوك آل ساسان ، ووافقه على هذا الوصف كثير من الباحثين مثل دوزي وميلار (١) .

فلما أسلم الفرس تحرروا من هذا كله ، وتخلصوا من أوهام الفساد والاستعباد ، ثم سمت نفوسهم ، وصفت أرواحهم ، وكثر فيهم المتصوفة والزهاد .

(٢)

في العلوم الدينية

سارع كثير من الفرس إلى اعتناق الإسلام منذ الفتح العربي ،
 وشرع كثير منهم يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن الكريم
 والحديث الشريف ، ولغة الغالبين ، ففسحت اللغة العربية طريقها
 هنالك ، وترجم الفرس كثيراً من الكتب العربية الدينية ، وألفوا
 كتباً أخرى معتمدين على المصادر العربية :

ذكر المؤرخ الفارسي أبو جعفر نرشخي في كتابه (تاريخ بخارى)
 أن أهلها كانوا في أول العهد بالإسلام يقرأون القرآن الكريم في
 ترجمته الفارسية (١) .

ولا شك أن هذه الترجمة كانت تقتضى ترجمة ما يتصل بالنص
 القرآني من تفسير وتشرية وتاريخ ، لهذا ترجم الفرس من عهد مبكر
 تفسير الطبري ، ومن المرجح أن ترجمة فارسية موجزة لتفسير الطبري
 ظهرت في القرن الرابع بأقلام فريق من علماء خراسان ، ثم كثرت
 الترجمات لكتب الحديث وكتب الفقه ، وكثرت المؤلفات في العلوم
 الشرعية معتمدة على المصادر العربية الإسلامية :

في التاريخ

أعجب الفرس بكتاب الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) (١) لأن الطبرى فارسى الأصل ، ولأنه ثقة فيما سجله تاريخهم القديم ، وحجة فيما سجل من تاريخ الإسلام ، فترجمه الوزير السامانى (بَلْعَمَى) فى القرن الثالث ، بعد أن حذف سلاسل السند والروايات المتعددة ، ولكنه أضاف إليه حكايات دينية وخلقية ، لأن الفرس يحرصون على أن يكون التاريخ مجالا للعظة والإرشاد .

وقد عمد المؤرخون من العرب — بعد الطبرى — إلى النشر المسجوع ، والتعبير العاهل بالخيال والصناعة والأمثال والشواهد الشعرية ، حتى إن العُتْبَى صرح فى كتابه (تاريخ يمين الدولة) الذى ألفه سنة ٤١٢ هـ بأنه سلك مسلك الشعراء فى تسجيل مآثر السلطان محمود الغزنوى ، وهو فى الحقيقة لم يسلك مسلك الشعراء وحدهم ، بل سلك أيضاً مسلك المؤرخين العرب بعد الطبرى .

ولمذ كان الفرس يقتفون آثار العرب ، حاكى مؤرخوهم هذا الضرب من التعبير ، فترجم الجرباذقانى كتاب (يمين الدولة) من العربية إلى الفارسية ، حريصاً على نقل الخصائص الفنية إلى لغة الفرس ، وصارت هذه الخصائص منهجاً يسلكه كثير من مؤرخيهم ، كما نجد فى كتاب التاريخ الذى ألفه شرف الدين وصاف فى القرن الثامن الهجرى .

(١) هذا هو اسم الكتاب فى طبعته الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية ويسمى فى بعض الطبعات تاريخ الرسل والملوك .

(٤)

في اللغة

فتح العرب بلاد الفرس وهم يتكلمون البهلوية (لغة المرحلة الوسطى بين لغتهم القديمة قبل فتح الإسكندر لبلادهم وبين لغتهم الحديثة التي نشأت في منتصف القرن الثالث الهجري) فلما احتكت اللغة العربية بالبهلوية صارعتها فصرعتها في الإنتاج العلمى والأدبى ، واستأثرت به أطول من قرنين ، إذ صارت لغة الناهيين من أبناء الفرس إلى أن بعثوا اللغة الفارسية الحديثة محاكية للعربية ، ثم زاحمتها شيئاً فشيئاً حتى استقلت .

لكنها بعد استقلالها ما زالت مصبوغة بألوان شئ من آثار اللغة العربية وآدابها .

١- وقد درس اللغة العربية وتفوق فيها كثير من أبناء الفرس ، كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيار الذى يذكر الجاحظ أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، حتى إنه كان يقعد للقصص والعرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يُدرى بآى لسان هو أبين .

وكان أبو مسلم الخراسانى يحفظ كثيراً من الشعر العربى ، وكان أبو سلمة الخلّال عالماً بالشعر والأخبار والجدل ، وكان البرامكة على

درجة عالية من البلاغة ، وكثيراً ماشجعوا بنى جنسهم على إجادة اللغة العربية والتفوق فيها ، ليؤلّوهم الوظائف الكبيرة في دولة بنى العباس (١) .

٢- لهذا كان الفرس يصطنعون اللغة العربية في أول الأمر وسيلة للتأليف وبخاصة في العلوم الشرعية ، وكانت بلادهم موطناً من مواطن الأدب العربي منذ سادت العربية هناك إلى أن أغار التتار على بلادهم ، وكان الأدباء من الفرس يأتئون بالأدب العربي ، ويحاكونه ، وينقلون كثيراً من كلماته وعباراته ، ومازالوا يقرأونه ويتذوقونه إلى اليوم .

ومن هنا كانت طريقتهم في تربية الملكة الأدبية لا تغاير الطريقة التي نصح بها العرب ، وهي التزود من الثقافة العامة ، والتعلّم بالبلغ الرائع من الشعر والنثر ، وإدامة النظر في القرآن والحديث .

يقول نظامى العروضى في كتابه (جهار مقالة) (٢) : « لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيباً ، ومن كل أستاذ نكتة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويقتبس من كل أدب طرفة ، فينبغى أن يعتاد قراءة كلام رب العزة ، وأحاديث المصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر في صحف الخلف ، مثل ترسل الصاحب ، والصابى وقابوس ، وألفاظ الحمادى وإمامى وقدامة بن جعفر ، ومقامات بديع الزمان والحريرى وحמיד ، وتوقيعات البلعمى وأحمد بن الحسن ،

(١) البيان والتبيين ٣٦٨/١

(٢) المقالات الأربع .

ورسائل عبد الحميد . ومن دواوين العرب ديوان المتنبي والإبيوردى والغزّى ، ومن شعر العجم شعر الأزرقى ومثنوى والفردوسى ... الخ » .
 | ٣ - فلا غرابة في أن تدفقت الألفاظ العربية على الفرس ،
 وامتلات بها لغتهم ، ولا سيما المؤلفات العلمية والأدبية .

والملاحظ أن الألفاظ العربية في اللغة العلمية أكثر من الألفاظ العربية في اللغة الأدبية ، وأنها في النشر أكثر منها في الشعر ؛ لأن النشر العلمى قائم على المصطلحات العربية ، أما النشر الأدبى فوسط بين النشر العلمى والشعر ، لكن يندر أن تتلاحق في الشعر ثلاثة أبيات ليس فيها لفظ عربى (١) .

ولقد بلغت الألفاظ العربية في بعض الكتب الفارسية من خمسين إلى ثمانين في كل مئة ، حتى كادت الكلمات كلها تكون عربية مرتبة على قواعد النحو الفارسى .

ولم يقتصر الفرس على اقتباس ألفاظ كثيرة من العربية ، بل اقتبسوا كثيراً من العبارات الكاملة ، سواء أكانت من القرآن الكريم والحديث الشريف أم من الحكم والأمثال العربية .

على أن العربية حينما تأثرت بالفارسية لم تنقل منها إلا مفردات كما سبق في الباب الأول .

ومن هنا يتضح أن الكلمات الفارسية في العربية قليلة جداً بالقياس إلى الكلمات العربية في الفارسية ، وأنها قليلة أياً قلة بالنسبة إلى الكلمات العربية الأصيلة ؛ لأن الكلمات الفارسية التى تسربت إلى العربية في العصر الجاهلى محدودة ، ثم قوى تسربها في العصر العباسى

بخاصة ، لكن العربية كانت آتخذ قد نمت ونضجت ، وصارت قديرة على التعبير عن مطالب الحياة ، فليست بحاجة إلى أن تقتبس من الفارسية إلا بعض المفردات ، للدلالة على أشياء لا نظير لها عند العرب .

وقلما نقل العرب عن الفرس كلمات لها نظائر في لغتهم ، وإن فعلوا ذلك أحيانا لخفة الكلمة الفارسية على ألسنتهم مثل وَرَدَ بدلا من حَوَّجَمَ ، وتَوَتَ بدلا من فِرْصَادَ ، ورصاَصَ بدلا من صَرَفَانِ ، أو ليدلوا على معرفتهم بالفارسية ، مثل بُوصَى بدلا من مَلَّاحَ ، وجَرْدَقَةَ بدلا من رَغِيفَ .

ثم إن العرب نقلوا من الفارسية أسماء ، ولم ينقلوا منها حروفا ولا أفعالا ، كما نجد في المعاجم اللغوية .

وفي شفاء (الغليل) للشَّهاب الخفاجي دليل على أنهم كانوا يتصرفون في كثير من الأسماء الفارسية التي نقلوها ، فيخضعون نطقها لأوزانهم ، ثم يشتقون منها أفعالا وغير أفعال ، كما اشتقوا من ديوان دَوَّنَ وتدوين ومُدَوَّنَ ومَدَوَّنَ ، ومن لجَامَ أَلْجَمَ ومُلْجَمَ (١) ، ومن كَهْرَبَا كَهْرَبَ ومن مغناطيس مَغْطَسَ إلخ .

٤- على أن النحو الفارسي لم يسلم من التأثير بالنحو العربي ، كحذف الفعل من بعض الجمل الفارسية ، أو تقديمه محاكاة للنحو العربي ، أو صوغ فعل مبنى للمجهول على الطريقة العربية ، أو استعمال الحال كما هو في النحو العربي (٢) .

(١) اللجام فارسي معرب . القاموس المحيط مادة لجم

(٢) الأدب المقارن ٣٤٣

(٥)

في النثر الفنى

وجد الفرس في الأدب العربى مثلهم الذى يحتلون ، ومعينهم الفياض الذى ينهلون منه ، فنقلوا من العربية إلى الفارسية كثيراً من الكتب ورسائل البلغاء ، ونصحوا بدراستها وتلوقها واحتذائها ، ومن هنا تأثر نثرهم الفنى بالنثر العربى أيما تأثر .

١ — الرسائل

حاكى الفرس بلغاء الكتاب ، وظهرت هذه المحاكاة في الرسائل الديوانية والخاصة التى كتبوها على غرار رسائل عبد الحميد بن يحيى وخلفائه ، فترى فيها احتفالاً بالمقدمات وبالخواصم ، وحرصاً على الإطناب ، وعناية بالصياغة ، وإكثاراً من الاستشهاد ، وحفاوة بالسجع والمحسنات حتى في الكتب التاريخية ، كما كان يفعل بعض مؤرخى العرب ، ويتضح هذا في كتاب (التوسل إلى التوسل) الذى ألفه وجمعه بهاء الدين محمد البغدادى في القرن السادس الهجرى .

٢ — القصص

استمد الفرس من التاريخ العربى والإسلامى ومن الشخصيات العربية والإسلامية بعض قصصهم .

(أ) ففي الأدب الفارسى قصص نثرية وشعرية موضوعاتها عربية خالصة ، منها حكايات حاتم الطائى للسعدى الشيرازى ، وقصة ليلى والمجنون للنظامى والجائى وهاتفى ، وحكايات وتمثيلات تعرض لحلم معاوية وعدل عمر بن عبد العزيز وجور الحجاج ، ومنها القصص

الشعبية الكثيرة التي كانت السبب في ظهور المسرحية المذهبية المعروفة في الأدب الفارسي بالتعزية .

ومنها الحكايات التي تعرّض صوراً من حياة الرشيد والمأمون والمتوكل .

(ب) وفيه كثير من الحكايات العربية مترجمة إلى الفارسية مثل حكايات الفرج بعد الشدة .

(ج) وإذا كان ابن المقفع قد ترجم من الفارسية إلى العربية أكثر ما في كتيبة ودمنة ، فإن الأصل الذي نقل عنه كان مفقوداً ، فترجم الفرس هذا الكتاب فيما بعد من العربية إلى الفارسية ، ترجم نشرأ في عهد الأمير نصر بن أحمد السلمي (٣٠١ - ٣٣١ هـ) ووزيره أبي الفضل البلعمي ، ثم نظمه شعرا أبو جعفر الرودكي في أوائل القرن الرابع ، وما تزال بعض قطع من هذه الترجمة متفرقة في كتب اللغة والمعاجم .

وهناك ترجمة كاملة باقية إلى اليوم هي ترجمة نظام الدين أبي المعالي نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب التي قام بها امتثالاً لأمر بهرام شاه الغزنوي سنة ٥٣٩ هـ وجعلها باسمه ، فاشتهر الكتاب باسم (كتيبة ودمنة بهرام شاه) . [١]

ويبدو في هذه الترجمة تأثر الأسلوب الفارسي بالعربي في تراكيبه المختلفة (١) .

٣ — المقامات

كذلك حاكى الفرس العرب في فن المقامة (١) ، والمقامة فن عربى. النشأة ، مازال يتدرج ويرقى حتى اكتمل على قلم الحريرى .

(أ) وقد ذهب بعض الباحثين (٢) إلى أن كتاب العرب نقلوا فن المقامات عن الفرس ، مستدلين بأن بديع الزمان الهمداني كان يجيد الفارسية ، وكانت حياته في بيئة فارسية ، في وقت كانت الدولة السامانية في خراسان وتركستان ، والبويهية بفارس والعراق ، والغزنوية في أفغانستان تتنافس في إنهاض الأدب الفارسي وتشجيعه ، ومن هنا استطاع بديع الزمان أن يكتب مقاماته في نيسابور .

لكن هذا الرأي يعارضه أن ابن دُرَيْد الأَزْدِي قد سبق بديع الزمان ، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ، إذ أنه عاش هناك مدة ، وكان غرضه من الأربعين حديثاً التي ابتكرها أن يعارض بها أدب الفرس ، فهو مخترع المقامات باللغة العربية ، وإن كانت موضوعاتها من البيئة الفارسية ، وكان بتأثير لغويته أميل إلى الغريب (٣) .

ثم عارضه أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى (٤) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ إذ وضع مقامات حاكها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من

(١) المقامة في الأصل موضع القيام ، وقد استعملت للدلالة على المجلس استعمال الأضداد ، ثم أطلقت على الحديث يقال في مجلس واحد ، ثم قصرت على نوع من الأدب معلوم .

(٢) منهم الدكتور أحمد ضيف في كتابه العصر العباسي .

(٣) زهر الآداب للحصري ٢٣٥/١ .

(٤) في معجم البلدان ٨٠/٤ أنه توفى سنة ٣٦٩ ولكن في المعجم نفسه ٧٢/٤ ، ٩٣ أنه توفى سنة ٣٩٥ وهذا يتفق مع ما في وفيات الأعيان وإنباء الرواة ودمية القصر .

بينهم تلميذه بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ . وابن فارس
والبديع عاشا في بيئة فارسية كما عاش ابن دُرَيْد من قبل .

ثم مارس هذا الفن كثير من الكتاب ، حتى جاء الحريري المتوفى
سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التي عارض فيها البديع ، وتفوق
عليه .

وحاول كثير من الذين جاءوا بعد الحريري أن يقتفوا أثره فلم
يلحق به أحد .

والذي نستخلصه من هذه اللوحة أن المقامات فن عربي النشأة ،
وإن كان السابقون إلى اختراعه قد عاشوا في بيئة فارسية ، لأن الفرس
لم يكن نثرهم الأدبي قد نضج وازدهر في ذلك الوقت ، ولم تعرف لهم
قصص أو مقامات من هذا الطراز ليحاكيها العرب .

(ب) ولقد تأثر الأدب الفارسي بالمقامات العربية ؛ فإن حميد
الدين البلخي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ يسير في مقاماته الفارسية على نهج
بديع الزمان والحريري ، وهو نفسه يقر بهذا في مقدمة مقدماته ، وإن
خالفهما في عدة أمور ، منها أنه لا يروي عن شخص معين كما روى
بديع الزمان عن عيسى بن هشام ، وكما روى الحريري عن الحارث
ابن همام ، وأن مقاماته لا تدور حول بطل معين كما دارت مقامات
البديع على أبي الفتح الإسكندري ، ومقامات الحريري على أبي زيد
السروجي ، وإنما تحتل شخصية المؤلف المكان الأول ، ويروي الأحداث
عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، ويتعدد الأبطال في مقاماته
وقتغير أحوالهم.

في الشعر

لم يرد شعر للفرس القدماء في لغتهم الفهلوية أو الفارسية القديمة ،
ومن المرجح أنه كان لهم شعر ، ولكنه توارى في غياهب الزمان .
وربما كان فقدان الشعر الفارسي القديم هو الذي زين لبعض
الدارسين من العرب ومن الفرس أن يعتقدوا أن الفرس القدماء لم يكن
لهم شعر .

فمثلاً قال الجاحظ : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى
من تكلم بلسان العرب ، والشعر لا استطاع أن يترجم ، ولا يعجز عليه
القبل ، ومضى حوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه » (١) .
وقال في موضع آخر : « في الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام
للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد
رأى ، وطول خلو وكل شيء للعرب فإما هو بديهة وارتجال ،
وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا
استعانة وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه
أقدر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع وليس
هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله ... ونحن إذا
ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنشور

(١) الحيوان للجاحظ ٧٥/١

والأسجاع ، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة (١) .

وقد سبق في الباب الأول من هذا الكتاب أن محمد عوفى ذكر في كتابه (لباب الأبواب) وهو أول كتاب في تاريخ الأدب الفارسي أن بهرام جور أول من نظم شعراً بالفارسية ، وأنه تعلم اللغة العربية والشعر من العرب الذين نشأ بينهم في النخيرة ، وكان له شعر عربي بليغ ، وذكر المؤلف أنه قرأ ديوان بهرام جور في مكتبة بخارى ، وحفظ بعضه ، ونقل بعضه (٢) .

وقد أيدى في هذا العالم الفارسي شمس الدين الرازي مؤلف كتاب المعجم (٣) .

كذلك ذكر شمس الدين الرازي في كتابه (المعجم في معايير أشعار العجم) أن صناعة الشعر من اختراع العرب ، وأن العجم تابعون لا واضعون ، وناقلون لا مستقلون (٤) .

فلما سطعت شمس الإسلام على ديار العجم واختلط الفرس بالعرب ، وحفظوا أشعارهم ، وعرفوا نظام بحورهم وأوزانهم وقوافيهم ، شرعوا ينسجون على منوالهم لطائف من نتاج طباعهم (٥) ، وقد ظهر هذا واضحا في القرن الثالث الهجري .

(١) البيان والتبيين ٢٨/٣

(٢) قصة الأدب في العالم ٤٤٨/١ .

(٣) المرجع السابق ٤٥٠/١

(٤) المرجع السابق ٤٤٣/١

(٥) قصة الأدب في العالم ٤٤٨/١

وجها من شك في أن الفرس كانوا شديدي الإعجاب بالشعر العربي ،
وكانوا يتوخون محاكاته حتى في شعرهم الذي نظموه بالفارسية فيما
بعد ، حتى إنهم نظموا ما يسمى بالملح ، وهو القصيدة التي يعتمد فيها
الشاعر إلى نظم بيت باللغة يلبه بيت بالفارسية ، أو يفعل عكس هذا ،
مراعياً في الحالين أن تنجى الأفكار مترابطة مسلسلة كأنها بلغة واحدة .
أما الموضوعات التي طرقتها شعراء الفرس فإن بعضها محاكاة
للموضوعات التي طرقتها العرب ، كالحمد والفخر والهجاء والغزل والبراء
والوصف والحكمة .

ويتبين من الموازنة بين الموضوعات العربية والموضوعات الفارسية
أن العرب تفوقوا في الحماسة والبطولة والغيرة والعجبة والتكريم
وللمخاطرة وأشبابها ، كما فاقوا في تصوير أحوال المجتمع والأسرة
ومظاهر الحضارة ، وفي الإكثار من الغزل للمرأة وإعزازها وحمايتها
والشوق إليها ، والعفة التي تتسامى بالحب العذري عن حاجات الجسد .
أما الفرس فإنهم فاقوا في عدة موضوعات ، كالقصة والشعر
الصوفي .

أ - في المديح

أما أشاع في المديح العربية بدؤها بالوقوف على الأطلال ، أو بالغزل
التبهيدي ، وكان لهذا البدء الغلبة على كثير من الشعراء منذ العصر
الجاهلي إلى أوائل العصر الحديث (١) .

على أن كثيراً من قصائد المديح مبدوعة بالمدح نفسه ، أو بما
يتصل به ، وبعض مديح أي نواس مبدوعة بوصف الخمر ومجالسها .

(١) راجع (الغزل في العصر الجليلي) للزبيدي .

١- ولقد حاكى شعراء الفرش النهج العربي الشائع ، فبدأوا مدائحهم بالغزل وبكاء الأطلال ، ثم انتقلوا إلى المدح ، كما كان يفعل الشعراء العرب .

من الأمثلة على هذا أن الشاعر الفارسي (منوچهرى) المتوفى أوائل القرن الخامس الهجرى مدح عظيماً من عظماء عصره ، فبدأ قصيدته ببكاء الأطلال الذى وقف عليه ، وصور ضيق نفسه بهجر محبوبته ، ثم وصف الرحلة التى تسلى بها على ظهر ناقته ، ثم تصور أنه لقي ركب المحبوبة وصواحبها ، فرحب بهن ، وعقر لهن ناقته ، وبعد هذا ركب هو ومحبوبته فى هودج واحد ، فشر بأن مركبه الثريا والبهاء لا نجيبة من النياق ، ثم تخلص من هذا كله إلى المدح .

ولا شك أن النهج العربى واضح هنا أيما وضوح ، وأن صور امرئ القيس فى مطولته (قفانبك) تعلن عن نفسها فى قصيدة الشاعر الفارسي .

٢- وحاكوا بعض شعراء العربية فى المبالغات والإشادة بالممدوح ووصفه بالفضائل من سخاء وشجاعة وبراعة فى تدبير شؤون الحكم ، بل زادوا عليهم وتجاوزوهم .

وهم فى هذا يشبهون معاصريهم من شعراء العربية ؛ لأنهم كانوا مثل الشعراء العرب على صلة بأمراء الدويلات وولاتها ، وكان هؤلاء الأمراء يتنافسون فى تقويم الشعراء والأدباء ، ويجزلون لهم العطايا والمنح ، ليشتدوا بذكراهم ، ويرفعوا من قدرهم ، ويسجلوا مآثرهم .

وقد جهر الشيخ أبو ذراعة الجرجاني بأن العطايا هى التى تلهم المدح الرائع ، إذ سأله أمير خراسان : أنتظم شعراً مثل شعر الرودكى ؟ فأجاب : إن حسن نظمى يفوق نظم شعراءه ، ولكن من الواجب أن

تجذل الشاعر بإحسانك ، وتمده بعطائك ، حتى يصبح مرضيا عنه من معاصريه ، فإن الشاعر لا يظهر أمره إلا حين يصله ممدوحه ببره . وينظر إليه بعين رضاه ، ثم أنشد أبياتا في هذا المعنى ختمها بقوله : أعطني واحداً من ألف مما نال الرودكي من عطايا الملوك يأتني شعر مثل شعره ألف مرة .

ومن مدائحهم قول أبي منصور عمارة المروزي في مدح السلطان محمود الغزنوي :

إن النور البادي على جبين الشمس منبعث من كف الملك ، وإن كرمه أظهر لي كوكب السعد سهيلاً على جبیني ، ولو ذكر أحد اسمه على شواطئ دجلة لصار ماؤه عسلاً مُصَفًّى ، ولاستحال طينه عسل ورْد (١) .

ومنها قول منصور بن علي المنطقي الرازي في مدح صاحب بن عبَّاد .

ليت شعري هل مرض قمر السماء ؟ إنه يشن ويشكو ، وجِرمه آخذ في النقصان ، لقد كان تُرْسُ الخالق فضي اللون ، أما الآن فقد بدا في السماء كأنه طرف الصولجان ، حتى خجل إليك أن جواد الصاحب انطلق في الصحراء ، فألقى نعله الذهبي في كبد السماء (٢) .

ومنها قول أبي بكر محمد الخسروي السرخسي الحكيم يمدح الأمير ناصر الدولة أبا الحسن محمد بن إبراهيم :

(١) قصة الأدب الفارسي ١٦٥

(٢) المرجع السابق ١٥٥

له همة غلت حتى إنك لتحسب أن السماء من تحت كالكسرة ، وأن هفته من فوق كالفتحة .

لقد صار هو القضاء ، وأعداؤه الحذر ، وفي حكم القضاء الحذر سبيل الفناء .

وإذا كان الفلك قد سلم الأمر إليه فلا تعجب ، فإن قدّم همة مجنّ الفلك . وإن حلمه والطود متحدان في النسبة ، وإن الموت وبأسه من معدن واحد ، ومكرماته بالنوع باقية حقاً ، فالنوع باق والشخص نزول (١) .

والمبالغات بينة في هذه المدائح ونظائرها ، لأن الفرس مبالغون إلى المبالغة ، ولهذا كثرت في الشعر العربي بعد الاتصال الوثيق بالفرس في العصر العباسي ، ثم عاد الفرس فتأثروا بما أعطوه ، وزادوا عليه .

ب — في الغزل

أما شعراء الغزل فقد أفتنوا في وصف المحبوب ، وأكثروا من التشبيهات والمبالغات ، وكان كلفهم شديداً بوصف الطرة والشعر المجعد ، فشبهوا الطرة بالعقارب ، وبالأحرف الهجائية المقوسة ، وهى الجيم والعين والنون .

كذلك أكثروا من العتاب وتصوير حال العاشق وما يعانيه من ألم وحزن إذا هجره معشوقه .

من الغزل قول أبي شكور البلخي : نظرت من بعد لأراك فجرحت

وجنتك المشرقة بالحسن واللاحة ، فلما نظرت إلى بعينك العلية
جرحت قلبي ، وهذا قصاص عادل ، لأن الجرح بالجرح . . .
وقد سبق في دراسة تأثير الفرس في الأدب العربي أن اللغة
الفارسية لا تفرق بين المذكر والمؤنث في الضمائر وأسماء الإشارة ، وإنما
يتضح المراد بالسياق ، وأن بعض الدراسين ذهبوا إلى أن العرب نقلوا
الغزل بالمذكر عن الفرس ، وسبق الرد عليهم بأن الغزل بالمذكر نشأ
نتيجة لمؤثرات اجتماعية كان لأبناء الفرس فيها النصيب الأكبر ،
فهو لم ينشأ محاكاة للأدب الفارسي ، بل نشأ بتأثير هذه العوامل ،
وبتأثير الفرس الذين عاشوا في المجتمع العربي ، وقرضوا الشعر العربي .

ج - في الخمريات

أكثر شعراء الفرس من وصف الخمر ، وآثارها في النفس ، وجاء
في وصفهم كثير من التشبيهات الطريفة والمغالي الجديدة ، والغلو
والإغراق في المبالغة ، فهم متأثرون بالعرب ونقلوا عنهم ، لكنهم
زادوا على ما نقلوا ، وأضافوا جديداً .

من الأمثلة على هذا قول أبي شكور : إن الخمر حين يعصرها
البستاني سائل مشوق أو روح مشرقة ، وإن الأعمى لو رأى قطرة منها
لقال : هذه عيني ، ولو رآها الميت لقال : هذه وحي ، وإنها حين
تُصب من القنينة في الكأس تشبه الهلال ، وحين تستقر في الكأس
تشبه البدر .

ومنها قول الرودكي : إن تأثير الخمر يبلغ أعلى المَخ قبل أن تنفق ،
وإنها لو سقطت قطرة منها في نهر النيل لظل التمساح غملاً من رابعتها

مئة عام ، وإن الغزال لو شرب قطرة منها لصار أسدا عريذا لا يكثر بالفهد .

ويبدو أن ولعهم بالخمير راجع إلى غنى بيئتهم بالبساتين الفسيحاء ،
والحدائق الغناء الحافلة بالفواكه والأزهار والثمار التي تعتصر منها
الخمير . . .

على أن بعضهم كان يرمز بالخمير إلى المحبة الإلهية ، وهم المتصوفة
من الشعراء (١) هـ

د - في الشعر القصصى

تأثر الفرس بالعرب فنقلوا كثيرا من قصصهم القديمة وقصصهم
الإسلامية ، ولكنهم فاقوا العرب في شعرهم القصصى ، فطالت بعض
قصصهم ، وتداخل بعضها في بعض ، وتولد بعضها من بعض .
من قصصهم التاريخية الشهانمة التي نظمها الفردوسي في نحو
خمسة وخمسين ألف بيت من البحر المتقارب والقافية المزدوجة ، في
تاريخ الفرس القدماء وأساطيرهم حتى نهاية الدولة الساسانية والفتح
العربي . .

ومن السهل أن يلاحظ الدارس للشهانمة أنها مصبوغة بالصبغ
الإسلامي العربي في كثير من مظاهرها ، لأن أكثر ملوكها وأبطالها من
الموحدين المؤمنين بالله واليوم الآخر ، يقضاه الله وقدره ، ولأن الصورة
التي لها لجمشيد - في تسخير العجن في نحت الأحجار وتخمير الطين
وتشييد البناء ، وفي زكوبه متن الهواء على تخت ، وفي ثرائه العريض

وملكه الواسع - قوية الشبه بالصورة القرآنية لسليمان عليه السلام .
وهذه الصورة الفارسية ليست منقولة من التوراة ، لأن السفيرين اللذين
يتحدثان عن سليمان في العهد القديم ليس بهما شيء من تسخير الجن
والريح ، كذلك ليس بهما شيء عن قصة الهدهد مع ملكة سبأ ، وإنما
نجد في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول والإصحاح التاسع من
أخبار الأيام الثاني أن ملكة سبأ تسمع بسليمان فتذهب إلى أورشليم في
موكب عظيم ومعها هدايا كثيرة لتمتحنه ، ثم تعود إلى بلادها .

وقد أوحى قصة الهدهد هذه إلى فريد الدين العطار ملحمة
الصوفية (منطق الطير) حتى إنه جعل عنوانها من قول القرآن الكريم
على لسان سليمان : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ » (١).

وصارت قصة سليمان وتسخيره الجن على النحو الذي ورد في
القرآن الكريم معيناً لقصص الجن والطلاسم والقماقم في الأدب
الفارسي ، كما صار الهدهد شخصية قصصية لاثقل وضوحاً عن الخضر
وذى القرنين (٢) .

ومن قصصهم الغرامية يوسف وزليخا للفردوسي ، ويوسف وزليخا
للجاي ، وخسرو وشيرين (كسرى أبرويز وحظيته شيرين) وليلى
والمجنون التي نظمها الشعراء نظامى وخسرو الدهلوى والجاي ومكتبي
الشيرازي ونای (٣) .

(١) سورة النمل ١٦

(٢) القصة في الأدب الفارسي ٢٨٦

(٣) قصة الأدب في العالم ٤٧٣/١

هـ - شعر التصوف

كذلك أقبلوا على شعر التصوف ، فأكثرُوا من الحديث عن معرفة المخلوق ومحبته ، وعن الفناء المؤدى إلى وحدة الوجود .
وهم يلجأون إلى ألوان من التصوير ، وضروب من الحقيقة والمجاز والتصريح والكنساية والوضوح والخفاء ، كقول العطار :
« العشق نار ، والعقل دخان ، فإذا جاء العشق ولى العقل هارباً » . وقول جلال الدين الرومي : « العشق أن تنظر إلى السموات ، وتمزق كل لحظة مئة حجاب ، وأول خطواته أن تهجر الحياة » . وقول حافظ : « كم في الطريق إلى منزل ليلى من أهوال وأخطار ، شرط أول خطوة أن تكون المجنون » . . . وقول أبي سعيد : « جسمي كله ألم ، وعيني كلها دمع من أجلك ، وإنما يعاش بغير جسم في عشقك ، لم يبق مني أثر ، فما هذا العشق ؟ صرت كلي معشوقاً ، فمن العاشق لك (١) ؟ » .

د - في بكاء الآثار

بكى بعض العرب مدنيهم التي انتزعها منهم أعداؤهم ، وبكوا مجدهم الدائر ، في كثير من قصائدهم بالشرق والمغرب .
وقد حاكى الفرس العرب في بكاء الآثار ، فللشاعر خاقاني المتوفى في القرن الخامس الهجري قصيدة وقف فيها بإيوان كسرى ، واستلهمه الحكمة والموعظة ، وبكى مجد الفرس الدائر .

وشبيه بهذا بكاء البلدان التي خربتها الحروب ، مثلما بكى

(١) قصة الأدب الفارسي .

حميد الدين بلخى المتوفى فى القرن السادس مدينة بلخ ، وذرف الدموع على خرائبها وعلى أصدقائه ، وهوى حاكى هنا بنثره على لسان صديقه مافعله الحريرى من قبله إذ بكى على لسان أبى زيد السروجى ببلدته سروج التى نهبها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ ، وإن كان الحريرى قد بكى شعراً فى المقامة الثلاثين .

ز - فى الأوزان والقوافى

كذلك نشأ العروض الفارسى محاكياً للعروض العربى فى دوائره وبحوره ومصطلحاته ، وإن آثر شعراء الفرس بعض الأوزان العربية ، لأنها أكثر طواعية فى لغتهم ، وأقرب إلى طباعهم ، وزادوا على بعضها الآخر ، ونقصوا منه ، ولكن بعض التغيير فى بعض الأوزان لاينبى أن الشعر الفارسى قائم على أوزان عربية .

وهذا هو السبب فى أن شمس الدين محمد بن قيس الرازى مؤلف كتاب (المعجم فى معايير أشعار المعجم) ألفه فى العروضيين معاً ، وكتبه بالعربية ، واختار أمثلة منها ومن الفارسية ، ثم لامه بعض أدباء الفرس ، فقسم كتابه قسمين : أحدهما (المعجم فى معايير أشعار العرب) ، والآخر (المعجم فى معايير أشعار العجم) لكنه بعد هذا التقسيم اضطر وهو يتكلم فى العروض الفارسى أن يستند إلى شرح العروض العربى ، لأن صناعة الشعر - كما قال المؤلف نفسه - من اختراع العرب ، والمعجم فى كل الأبواب تابعون لاواصفون ، وناقلون لامستقلون (١) .

ونستطيع أن نلخص التعديل الذي أدخله الفرس على الأوزان العربية وعلى القافية في عدة أمور :

١- أضافوا إلى البحور الستة عشر المعروفة في الشعر العربي ثلاثة أبجر سموها الغريب والغريب والمشاكل .

٢- أطالوا بعض الأوزان ، فأجازوا في بحر الرمل - وهو في العروض العربي ستة أجزاء أو أقل - أن يكون من ثمانية أجزاء .

٣- تصرفوا في بعض الزحافات والعلل تصرفاً أدى إلى توليد أضرب مستقلة عن الأوزان العربية ، كما نجد في الرباعي .

٤- لم ينظموا إلا قليلاً في بعض البحور العربية التي أكثر منها العرب كالطويل والكامل والمديد والوافر والبسيط ، وأكثروا من النظم على البحور التي قلل منها العرب ، كالمجتث والمضارع والمقتضب .

وهناك بحور أكثر منها الفرس والعرب على السواء كالحزج والرمل والمخفيف والمتقارب .

٥- أما القافية فقد حاكوا العرب فيها ، ونقلوا عنهم مصطلحاتها ، إلا أنهم أكثروا من القافية المزدوجة وسموها المثنوى (١) ، وأكثروا من الدوبيت (٢) أي الرباعي ، وخالفوا نظام الموشحات العربية وسموها بَند (٣) .

٦- التزموا القافية في القصيدة كلها أوفى مقاطع منها .

(١) المثنوى : نسبة إلى مثنى ، أى يتفق كل شطرين في الروى ، كما نجد في الشاهنامة (٢) دوبيت : من أربعة أشطر تتفق في الروى في الأول والثاني والرابع ، وينفرد الثالث غالباً وهو الذي انتقل إلى العربية باسم دوبيت .

(٣) البند : منظومة مقسمة إلى أقسام في كل قسم أبيات متفقة في الروى تختم بيت مستقل يكرر بعد كل قسم ، فيسمى النظم ترجيعاً ، أو يكرر رويه فقط فيسمى النظم تركيباً ، وهو شبه الموشح العربي .

(٧)

في البلاغة

اعتمد الأدب الفارسي في نشأته على الأدب العرب ، واستظل بظله
وحاكاه فترة من الزمن طويلة .

فمن الطبيعي أن يحاكيه في ضروب بلاغته .

وقد شهد بهذه المحاكاة علماء من الفرس ، قال دولتشاه في كتابه
(تذكرة الشعراء) إن للعرب الفصاحة والبلاغة ، وإن الفرس اتبعوهم
فيها .

ويبدو هذا التأثير واضحاً في كتاب (ترجمان البلاغة) للشاعر
فرخى المعاصر للفردوسي . وفي كتاب (حديقة السحر في دقائق الشعر)
لرشيد الدين الوطواط العمري (المتوفى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ م) ، فإن في
الكتابيين محاكاة للبلاغة العربية ، وتطبيقاً لأدب الفرس عليها ،
واستشهاداً بأمثلة عربية شتى (١) .

لذا صارت التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجازات والمحسنات
اللفظية والمعنوية مثل العربية .

وأكثر كتاب الفرس وشعراؤهم من الحلى اللفظية والمعنوية الى
أولع بها كتاب العربية وشعراؤها منذ القرن الثالث .

ونقل الفرس أصول البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فكانت مؤلفاتها
لاتغاير المؤلفات العربية إلا في القليل .

— ٣٠٢ —

(٨)

في الحروف الهجائية

على أن الفرس كتبوا لغتهم - وما زالوا يكتبونها إلى اليوم -
بالحروف الهجائية العربية ، كما كان الأتراك يفعلون إلى العقد
الثالث من القرن العشرين .

ولا شك أن كتابة الفرس لغتهم بالحروف العربية كان من الوسائل
التي سهلت على اللغة العربية أن تؤثر آثارها العظيمة في اللغة الفارسية ،
لأن معرفتهم الحروف العربية سهل عليهم قراءة الكتب العربية في
اللغة والأدب والعلوم .

- ٣٠٣ -

خاتمة المطاف

- ١ -

تبين من هذه الدراسة أن عزلة العرب عن العالم المحيط بهم في العصر الجاهلي تصوير تعوزه الصحة والدقة ، فقد كانوا على صلات بالفرس وبغيرهم ، بالجوار وبالتجارة وبالرحلات وبالغروب وبالمحالفات السياسية .

وكان اتصال العرب بالفرس في العصر الجاهلي وسيلة لتأثر العرب بهم ، وتأثيرهم فيهم ، ولكن هذا كان في نطاق ضيق محدود .

فلما أشرق الإسلام ، وفتح العرب بلاد الفرس ، تعددت وسائل الاتصال ، وتنوعت طرائق الأخذ والعطاء ، فصار تبادل التأثير والتأثر أوسع نطاقا ، وأعمق أغواراً ، وأوضح معالم ومظاهر .

- ٢ -

واستبان أن العرب أخذوا من الفرس كثيراً ، وأعطوهم كثيراً ، بل إنهم في الإسلام أعطوا أكثر مما أخذوا ، ونفعوا أكثر مما انتفعوا .

وليس يعيب العرب أنهم نقلوا من الفرس ، ولا ينتقص الفرس أنهم أخذوا عن العرب ، وما يحق للعرب أن يمنوا على الفرس بما أعطوهم ، ولا للفرس أن يمتنوا على العرب بما أولوهم .

فإن الأمم كانت وما زالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والخبرات ، بل إن المعرفة تنتقل بسلطانها الذاتي من صقع إلى

— ٣٠٤ —

صقع ، ومن شعب إلى شعب ، كما تنتقل السحاب والرياح ، لاتصدها عوائق ، ولا ترددها حواجز .

ولإذا كانت النظم والأفكار والثقافات المنقولة أو المنتقلة تنطوى على خير وعلى شر ، وعلى نافع وعلى ضار ، فإن الاتصال الوثيق الطويل الأجل ليس من شأنه أن يكفل الخير الخالص والنفع المحض ، وإنما ينقل من هذا ومن ذاك .

— ٣ —

على أننا لانستطيع أن نصف تأثير الأدب العربي بالفرس بأنه تطور أو تغير في الجوهر ، لأن الفرس لم يضيفوا إلى أبواب الشعر العربي جديداً سوى المشاركة في الغزل بالمذكر ، والتوسع في الغزل المكشوف ، وما يتصل بالزندقة والإلحاد ، ولا تعد هذه أنواعاً جديدة في الشعر ، فقد بقي الشعر العربي غنائياً كما كان .

وأما بناء القصيدة العربية فقد استمر بعد الاتصال بالفرس كما كان في العصر الجاهلي ، حتى إن الشعراء من أبناء الفرس اقتفوا آثار العرب ، فنظموا الشعر العربي على الأوزان العربية ، والتزموا القافية ، وعدادوا موضوعات القصيدة ، ولم يخرجوا على نظامها المؤلف ، فلم يستطع أبو نواس وهو الذى سخر ممن يفتتحون قصائدهم بالغزل والوقوف على الأطلال أن يتحرر من الغزل في مطالع قصائده كلها ، بل بدأ بعضها بالغزل وبكاء الأطلال .

كذلك لم يستطع الكتاب من أبناء الفرس أن يصبغوا النثر العربي بصبغ فارسي ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا به على نسقه الأصيل ، وإذا كانوا قد أضافوا إلى ثروته بما نقلوه إليه من قصة وتاريخ وحكم ،

— ٣٠٥ —

وبما أضافوه إليه من مظاهر شكلية بعضها مستملح وبعضها مستقبح ،
فلئن جوهره بقى عربياً لم يمسسه من التعديل أو التغيير قليل ولا كثير .
وقد سبق أن المقامات فن عربى النشأة ، لافارسى النشأة ، كما
ذهب بعض الدارسين .

وسبق أن التوقيعات أصيلة فى أدبنا العربى ، وأن النشر الفنى نشأة
نشأة عربية خالصة قبل أن يتصل العرب بالفرس اتصالاً أحدث
آثاره فى اللغة والأدب .

— ٤ —

ثم إن الفرس حينما خالطوا العرب وأثروا فيهم خلطوا عملاً صالحاً
بأعمال سيئات ، فقد أضافوا إلى اللغة العربية كثيراً من المفردات ،
وزادوا على الأدب العربى بعض الموضوعات ، وولدوا طرائف من المعانى
والخيال ، ونافسوا العرب فى المنظوم والمنثور ، وأغنوا الثقافة العربية
بمئات المؤلفات فى شتى العلوم ، ونقلوا إلى الإدارة والسياسة بعض النظم
الجديدة وهذا حسن كله ، ولكن بعضهم كانوا معاول تخريب فى صرح
العروبة ، لأنهم نكبوا العرب بالشعبوية ، وقوضوا ملكهم بالثورات
الانفصالية ، والدويلات المستقلة ، وجراؤهم على الزندقة ، والاستكثار
من الأدب المكشوف ، والولوع بالتعرف ، والهيام بالجوارى والقيان
والكلف بالخمير والغزل بالغلمان .

— ٥ —

أما تأثير العرب فى الفرس فقد كان خيراً كله ، إذ سما بهم إلى
الإسلام والتوحيد الخالص ، وزودهم بما يحمل الإسلام من خيرات
إلى القلوب والعقول ، وبما يكفل من سمو فى الأخلاق ونظم الاجتماع .

— ٣٠٦ —

وأغنى لغتهم الفارسية بكلمات كثيرة جداً من العربية ، وبجمل
وعبارات كاملة ، فتأثر تركيب الجمل الفارسية بالتركيب العربى فى
بعض نسقه وأوضاعه .

ومدّ نثرهم الفنى بألوان ظهرت فيما كتبوه فى التاريخ والقصة
والمقامة والرسائل الفنية .

وهذاهم إلى اقتباس أوزان الشعر العربى وقوافيه ومصطلحاته العروضية ،
وإلى محاكاة العرب فى بناء القصيدة ، وفى كثير من الموضوعات .

ثم إنه أغناهم بقواعد البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فصارت بلاغة
الفرس محاكية لبلاغة العرب ، وترددت فى الأدب الفارسى معان
وأخيلة عربية كثيرة .

—

كذلك زودهم بالحروف العربية التى كتبوا بها لغتهم ومازالوا
يكتبون .

— ٦ —

فلم يكن عجباً أن تغلبت اللغة العربية على الفارسية ، فتوارت إلى
القرن الرابع .

وحينما جدّ الفرس فى بعثها منذ القرن الثالث عجزوا عن تصفيتها
من آلاف الكلمات العربية ، وعن تخليتها من الأنماط الأدبية العربية ،
ولم يستطيعوا أن يتنكروا للأوزان الشعرية والقافية وضروب البلاغة
عند العرب ، ولا أن يصطنعوا لكتابتها لغتهم حروفاً غير العربية التى
مازالوا يكتبون بها لغتهم إلى اليوم .

— ٣٠٧ —

— ٧ —

ولقد ثبت أن العرب الخُلص أنشأوا بعض العلوم إنشاءً ، وأنهم ابتكروا ابتكاراً غير مسبوق ، وأنهم ساهموا بنصيب عظيم في النهضة العلمية والثروة التأليفية على مختلف العصور .

كذلك تبين أنهم سنوا كثيراً من نظم السياسة والإدارة قبل أن ينقلوها عن الفرس أو الروم .

وهذا دليل على أن العقلية العربية ليست عقيماً كما زعم بعض المستشرقين ، بل هي ذكية متفتحة ولّود ، ودليل أيضاً على أن الفضل في ازدهار العلوم ليس مقصوراً على الأعاجم وأبنائهم كما ادعى بعض الدارسين . وهو دليل على أن الحضارة العربية لم تكن من بناء الأعاجم ، فقد كانت للعرب حضارة قبل الإسلام ، ثم خمدت جذوتها ، فلما بزغ الإسلام أضاء لهم ، وغذى قلوبهم وعقولهم ، فحفزهم حفزاً ، وسما بهم سموا ، فكانت حالهم في صدر الإسلام خيراً منها في العصر الجاهلي ، وكانت أحوالهم في العصر الأموي أرق من أحوالهم في صدر الإسلام ، وهم حينئذ لم يكونوا قد نقلوا عن الأعاجم شيئاً ذا خطر ، ثم جاء العصر العباسي فتضافرت عوامل كثيرة على إعلاء صرح الحضارة ، منها أن العرب متأثرون بالإسلام وبنهضتهم قبل العصر العباسي ، ومنها استعدادهم الطبيعي للترقي والعلاء ، ومنها اقتباسهم من الفرس والروم واليونان وغيرهم ما وجدوا في اقتباسه خيراً لهم ولدولتهم .

واعتقد أنه قد آن لخصوم العرب أن يكفوا عن التهجم والافتراء ، فإن الحقائق تكلمهم ، والمنصفين من غير العرب يشيدون بعظمة العرب .

— ٣٠٨ —

ولأنه لاحتّم على كل باحث عربي أن يعجلو مفاخر قومه فيما يدرس ،
وأن يفند دعاوى الخصوم ويبطل أكاذيبهم معتمدا على الحق الذى
لا تشوبه عصبية ولا جمحود .

وعلى العرب أن يتعرفوا ماضيهم العظيم فى موكب التاريخ ، وأن
يثقوا بأنفسهم وبسلفهم ثقة البصير الحريص على تراثه ، المعتز بماضيه ،
المتطلع إلى مستقبل مشرق وضاء .

— ٨ —

وما من شك فى أن اللغة العربية استطاعت بشرائها ومرونتها أن تتسع
لفنون الأدب وضروب العلم ، وأن تسع كل ما أدخله عليها أبناء الفرس
والذين تأثروا بهم من العرب ، ولكنها كانت فى هذا كله سليمة البناء ،
وطيدة الخصائص ، فلم تفقد شيئا من مقوماتها ، ولم تنطبع بغير
طابعها ، على حين أن الفارسية انطبعت بالطابع العربى فى جوهرها وفى
مظاهرها .

وشبيه بهذا احتفاظ العربية بخصائصها حينما اتصلت بفلسفة اليونان
وعلومهم ، وحينما اتصلت بأوروبا فى العصر الحديث ، فإنها أثبتت
قدرتها على الاستيعاب والنماء والتطور والثراء ، وستظل كذلك قوية
نامية إلى ما شاء الله .

المراجع

مرتبة ترتيبا هجائيا

- ١- الآثار الباقية . البيروني ليبسك ١٨٧٨ م .
- ٢- الإثقان في علوم القرآن . السيوطي .
- ٣- الأحكام السلطانية . الماوردي . مطبعة الوطن بمصر سنة ١٢٩٨ هـ
- ٤- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . القفطي . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ
- ٥- الأخبار الطوال . الدينوري . تحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة
بريل ١٨٨٠ م .
- ٦- أخبار مكة . الأزرقي . المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٢ هـ ومطبعة
غتنغة ١٢٧٥ هـ .
- ٧- أدب السياسة في العصر الأموي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .
الطبعة الرابعة دار نهضة مصر .
- ٨- الأدب الفارسي الإسلامي . (من قصة الأدب في العالم) بقلم
الدكتور عبد الوهاب عزام .
- ٩- الأدب المقارن . الدكتور محمد غنيمي هلال .
- ١٠- أساس البلاغة . الزمخشري .
- ١١- أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية
بالقاهرة ١٢٨٠ هـ .
- ١٢- الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي .

- ١٣— الأشربة . ابن قتيبة . مخطوط بدار الكتب ١٦٦ مجاميع .
- ١٤— الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر . المطبعة الشرقية بمصر
١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م
- ١٥— الأصمعيات . تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون
مطبعة دار المعارف .
- ١٦— الأعلام النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بلندن ١٨٩١ م .
- ١٧— الأعلام . الزركلى . الطبعة الثانية .
- ١٨— الأغاني . الأصفهاني . طبعة دار الكتب وساسي .
- ١٩— أمالي المرتضى : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة
عيسى البابي الحلبي .
- ٢٠— إنباه الرواة . القفطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢١— انتصار الحضارة . هرستد . ترجمة الدكتور أحمد فخرى .
- ٢٢— إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية .
على بن برهان الدين الحلبي . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١٩ هـ .
- ٢٣— أوائل الأوائل . أبو هلال العسكري . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ .
تاريخ .
- ٢٤— الأوراق . الصولى . مخطوط بدار الكتب تاريخ ٥٩٤ .
- ٢٥— أيمان العرب . النجيري . مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول
العربية في ٧٩١ (١٦٨)
- ٢٦— البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . تحقيق أحمد زين
والسيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

— ٣١١ —

- ٢٧- بلوغ الأرب في مآثر العرب . العطار . مطبعة الطفا بلبنان ١٣١٩ هـ
- ٢٨- البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .
- ٢٩- التاج . الجاحظ . تحقيق أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢ هـ ١٩١٤ م .
- ٣٠- تاج العروس - الزبيدى - طبعة مصر ١٣٠٧ هـ -
- ٣١- تاريخ الأدب في العصر العباسى . السباعى بيومى .
- ٣٢- تاريخ الإسلام السياسى الدكتور حسن إبراهيم . الطبعة الثانية ١٩٤٧ .
- ٣٣- تاريخ الأمم والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٣٤- تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد . ترجمة الدكتور حمزة طاهر . دار المعارف .
- ٣٥- تاريخ الخلفاء . السيوطى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
- ٣٦- تاريخ الشعوب الإسلامية . بروكلمان .
- ٣٧- تاريخ العرب . فيليب حتى . ترجمة محمد مبروك نافع . مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة .
- ٣٨- تاريخ اليعقوبى . نشرة هوتسما Hautsma
- ٣٩- تراث فارس . ترجمة الدكتور محمد كفاى وزملائه .
- ٤٠- التنبيه والإشراف . المسعودى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .
- ٤١- جامع ألبیان فى تفسير القرآن . الطبرى . المطبعة الأميرية .
- ٤٢- الجغرافية التاريخية الإسلامية . محمد أحمد حسونة .

— ٣١٢ —

- ٤٣- الجمهرة . ابن دريد .
- ٤٤- جمهرة أشعار العرب . القرشي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧ هـ .
- ١٩٢٦ م .
- ٤٥- حافظ وشوق . الدكتور طه حسين .
- ٤٦- حديث الأربعاء . الدكتور طه حسين .
- ٤٧- الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . فوق كريم .
- ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ٤٨- حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .
- ٤٩- الحياة العربية من الشعر الجاهلي . الدكتور أحمد محمد الحوفي .
- الطبعة الرابعة . دار نهضة مصر .
- ٥٠- الحيوان . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الأولى .
- ٥١- الخراج . أبو يوسف . المطبعة الأميرية ١٣٠٢ .
- ٥٢- الخصائص . ابن جني . مطبعة دار الكتب .
- ٥٣- دائرة المعارف الإسلامية .
- ٥٤- ديوان ابن الرومي . نشره كامل كيلاني .
- ٥٥- ديوان أبي تمام . (١) تحقيق محمد محيي الدين .
- (٢) مطبعة صبيح .
- (٣) طبعة محمد جمال .
- ٥٦- ديوان أبي العتاهية .
- ٥٧- ديوان أبي نواس . المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م ومطبعة
- التقدم بمصر .

— ٣١٣ —

٥٨- ديوان الأعشى . نشرة رودلف جيير . مطبعة آدلف هلزهاوسن

. ١٩٢٧ م .

٥٩- ديوان أمية ابن أبي الصلت . تحقيق فون سردريك شلتهاثر ١٩١١ م

٦٠- ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير ١٨٩٢ م .

٦١- ديوان بشار بن برد . تحقيق محمد الطاهر بن عاشور .

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

٦٢- ديوان البهترى . مطبعة الجوائب . بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

٦٣- ديوان حسان بن ثابت . طبعة ليون .

٦٤- ديوان الخنساء (أنيس الجلساء فى شرح ديوان الخنساء) الأب

لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٨٩٦ م .

٦٥- ديوان الزمخشري . مخطوط بدار الكتب ٥٢٩ أدب .

٦٦- ديوان طرفة بن العبد . مطبعة برطرندي مدينة شالون ١٩٠٠ م .

٦٧- ديوان عبيد بن الأبرص . نشره السير تشارلس ليال .

٦٨- ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد .

دار المعارف بمصر .

٦٩- ديوان لبيد . نشره دكتور هابر Buber . ليدن ١٨٩١ م .

٧٠- ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٧٩٨ أدب .

٧١- ديوان المتنبي بشرح البرقوقى .

٧٢- ديوان النابغة الذبياني . بشرح البطليموى . طبعة بيروت .

٧٣- رسائل البلغاء . نشرها محمد كرد على . مطبعة البابى الحلبي

. ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .

٧٤- الرسالة . الإمام الشافعى . تحقيق أحمد شاكر .

٧٥- رسالة العشق والنساء . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .
٧٦- رسالة فى ذم أخلاق الكتاب . من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها
يوشع فتكل .

٧٧- رسالة القيان . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .

٧٨- روح المعانى . الألوسى .

٧٩- الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام . السهيل . مطبعة الجمالية
بمصر ١٣٢٢ هـ - ١٩١٤ م .

٨٠- زهر الآداب . الحصرى (١) تحقيق الدكتور زكى مبارك . المطبعة
الرحمانية بمصر (٢) تحقيق على البجاوى .

٨١- الزينة . أبو حاتم الرازى . تحقيق الدكتور حسين الهمدانى .

٨٢- سيرة النبى . ابن هشام . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
مطبعة حجازى بالقاهرة . وتحقيق مصطفى السقا وزميله . مطبعة
الحلبى .

٨٣- شرح الحماسة . المرزوقى . تحقيق عبد السلام هارون .

٨٤- شرح القصائد العشر . التبريزى .

٨٥- شرح المعلقات . الزوزنى .

٨٦- شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة الحلبي بمصر ١٣٢٩ هـ

٨٧- شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٨٩٠ م

٨٨- الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) تحقيق أحمد شاکر . مطبعة
الحلبى ١٣٦٤ هـ (٢) مطبعة المعاهد ١٣٥٠ هـ .

٨٩- صبح الأعشى . القلقشندى . مطبعة دار الكتب .

٩٠- ضحى الإسلام . أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

— ٣١٥ —

- ٩١- طبقات الأمم . صاعد الأندلسي ، نشره الأب لويس شيخز
اليسوعي بيروت ١٩١٢ .
- ٩٢- طبقات الشعراء ، ابن سلام . تحقيق محمود شاكر ، مطبعة
دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
- ٩٣- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، نشره إدورد سخاو ، مطبعة بريل
بلندن ١٣٢١ هـ .
- ٩٤- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة
١٢٨٤ هـ .
- ٩٥- العرب قبل الإسلام ، جورجى زيدان .
- ٩٦- العرب والإمبراطورية العربية ، بروكلمان ، ترجمة الدكتور
نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت .
- ٩٧- عربتنا . محمود كامل .
- ٩٨- عصر ما قبل الإسلام ، محمد مبروك نافع .
- ٩٩- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، الجزء الأول والثاني ، مطبعة لجنة
التأليف والجزء الثالث ، المطبعة العامرية الشرقية بمصر .
- ١٠٠- العمدة . ابن رشيقي ، مطبعة أمين هندية بمصر ١٣٤٤ هـ .
١٩٢٥ م .
- ١٠١- عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب .
- ١٠٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة . المطبعة
الوهبية ١٢٩٩ هـ .
- ١٠٣- الغزل في العصر الجاهلي ، الدكتور أحمد محمد الحوفي . دار
نهضة مصر بالقاهرة .

- ١٠٤- الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ، تحقيق على البجاوي
ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١٠٥- الفاخر ، أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ، تحقيق
عبد العليم الطحاوي ومحمد علي النجار .
- ١٠٦- فتوح البلدان ، البلاذري ، مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ -
١٩٠١ م .
- ١٠٧- فتوح الشام البصري ، مطبعة بينست شن كلكتة ١٨٥٤ م .
- ١٠٨- فجر الإسلام ، أحمد أمين .
- ١٠٩- الفصل في الملل والنحل ، ابن حزم ، المطبعة الأدبية بمصر
١٣١٧ هـ .
- ١١٠- الفهرست ، ابن النديم ، ليبزج ١٨٧١ م .
- ١١١- قصة الأدب الفارسي ، حامد عبد القادر ، مطبعة لجنة البيان
العربي ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .
- ١١٢- قصة الأدب في العالم . أحمد أمين والدكتور زكي نجيب
محمود .
- ١١٣- قصة الحضارة الفارسية ، ول ديوارنت .
- ١١٤- القصة في الأدب الفارسي ، الدكتور أمين عبد المجيد ، مطبعة
دار المعارف .
- ١١٥- الكامل . المبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١١٦- الكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ١١٧- الكشف . الزمخشري .
- ١١٨- لسان العرب . ابن منظور .

— ٣١٧ —

- ١١٩— لسان الميزان . ابن حجر . حيدر آباد .
- ١٢٠— المبسوط . السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .
- ١٢١— مجلة المجمع اللغوى .
- ١٢٢— مجمع الأمثال . الميدانى المطبعة البهية المصرية ١٣٤٢ هـ .
- ١٢٣— المحبر . ابن حبيب . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- ١٢٤— المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ .
- ١٢٥— المرأة فى الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى الطبعة الثانية مطبعة دار الكتاب العربى .
- ١٢٦— مروج الذهب . السعوى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ١٢٧— مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . أوليرى . ترجمة الدكتور تمام حسان .
- ١٢٨— المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بليدن ١٨٧٢ م .
- ١٢٩— مسالك الممالك . الإصطخرى . ليدن ١٩٢٧ م .
- ١٣٠— مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
- ١٣١— المعارف . ابن قتيبة ، المطبعة العامرة الشرقية بمصر ١٣٠٠ هـ .
- ١٣٢— المعانى الكبير . ابن قتيبة .
- ١٣٣— معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى .
- ١٣٤— معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
- ١٣٥— معجم الشعراء — المرزبانى . نشره الدكتور سالم الكرنوى . مكتبة المقدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

— ٣١٨ —

- ١٣٦- معجم ما استعجم : البكرى . تحقيق مصطفى السقا . مطبعة
لجنة التأليف ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م
- ١٣٧- المغرب . الجواليقي . تحقيق محمود شاكر .
- ١٣٨- المغازى . الواقدي . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٦ م .
- ١٣٩- المفصليات . الضبي . تحقيق عبد السلام هارون ومحمود شاكر .
- ١٤٠- مقامات بديع الزمان الهمداني .
- ١٤١- مقامات الحريري (شرح الشريشي) المطبعة المنيرية بمصر
١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .
- ١٤٢- مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .
مطبعة لجنة البيان العربي .
- ١٤٣- مقدمة خدابخش لكتاب الحضارة الإسلامية . فون كريم .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ١٤٤- مقدمة المفصل . الزمخشري .
- ١٤٥- الملاهي . المفضل بن سلمة النحوي . مخطوط بدار الكتب
بالقاهرة ٥٣٣ - فنون جميلة .
- ١٤٦- الملل والنحل . الشهر ستاني . تحقيق محمد فتح الله بدران .
- ١٤٧- من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين .
- ١٤٨- النظم الإسلامية ، الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي
إبراهيم حسن الطبعة الثالثة ١٩٦٢ .
- ١٤٩- المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . حيد آباد
الدكن الهند ١٣١٦ هـ .
- ١٥٠- الموشح . المرزبانى . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .

— ٣١٩ —

- ١٥١- المؤلف والمختلف . الآمدى . مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ
- ١٥٢- النشر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .
- ١٥٣- النقود العربية . الأب أنستاس مارى الكرملى .
- ١٥٤- نهاية الأرب . النويرى . طبعة دار الكتب .
- ١٥٥- نوابغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩١٤ م .
- ١٥٦- النوادر . القالى . مطبعة دار الكتب .
- ١٥٧- نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون .
- ١٥٨- الوزراء والكتاب . الجهشيارى . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى .
- ١٥٩- وفيات الأعيان . ابن خلكان . (أ) مطبعة بولاق .
- (ب) وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ م .

— ٣٢٠ —

مراجع أجنبية

١٦٠— سياسة نامه . نظام الملك . طهران ٣١٠ هجرى شمسى .

١٦١— فرهنگ نفيسى . محمد على نفيسى .

A, History of Arabian Music. Farmer. — ١٦٢

Literary History of Persia, Browne - London. 1906, — ١٦٣

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعر شوقي ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وعلى موازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه وموقفهم من الخلافة الإسلامية

٢ - الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدين شوقي ، ومظاهره في شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبي ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودفاع عنه ، ودراسة لنزعه في تأييد الخلافة مع دراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٣ - النسيب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه ، وخصائصه الفنية .

٤ - الفكاهة في الأدب :

دراسة للفكاهة ولأصولها ، وتقسيمها أنواعاً طبقاً للبواعث النفسية ، وعرض مفصل لدلالاتها الاجتماعية والسياسية واللغوية ، ونماذج فكاهة لبعض الشخصيات .

٥ - أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعراً وخطابة وحواراً وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض ، ويعرض للعصبية القبلية والجنسية وأثرهما في السياسة وفي الشعر ، وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٦ - أبوحيان التوحيدي :

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته وثقافته ، ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنة بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — البطولة والأبطال :

عرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، وعرض لصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، ولبعض أبطال مصر الحديثة :

٨ — سوسن :

قصة قصيرة سامية العرض نبيلة الهدف :

٩ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وفي علم الاجتماع وبخاصة التي لم يعرض لها الدارسون ، ودراسة جديدة لأدبه من شعر ونثر .

١٠ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه ، وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية وفي الإسلام :

١١ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، أما وزوجة وبتاً وأختاً وقريبة . ودراسة للمرأة في الحياة العامة في السلم وفي الحرب ، ولثقافتها وصناعتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ومن حيث أثرها في الغناء .

ودراسة لشاعريتها وفنون شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

١٢ — أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي :

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وأحجار ، وظواهر في الجو والأرض ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصدااء البيئة في موضوعات الشعر وفي أخيلة الشعراء وفنهم .

١٣ - تيارات ثقافية بين العرب والفرس :

يتناول الصلات بين العرب والفرس في الجاهلية وفي الإسلام ، وأثرها في كل من الشعبين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب ، ويوضح أن العرب أخذوا من الفرس ولكنهم أعطوها أكثر مما أخذوا .

١٤ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره للحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات ولسلطات العرب بغيرهم من الأمم .

١٥ - المثل السائر لابن الأثير : (أربعة أجزاء) :

تقديم وتحقيق وتعليق (بالاشتراك) .

١٦ - الطبرى :

دراسة لعصره وبيئته وحياته ومصادر ثقافته وألوانها ، وتعريف بتلاميذه ومؤلفاته ، وتحليل لشخصيته ولمناهجه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٧ - الجاحظ :

دراسة لعصره وحياته ومعالم شخصيته ومؤلفاته وخصائصه الفنية ، وتحليل لبعض كتبه .

١٨ - الزمخشري :

دراسة لعصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ومنهجه في كتاب التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية ، ودراسة لجهوده في ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره ولشعره .

١٩ - فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب وعدته وصفاته وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة وأنواعها وأصولها وأسلوبها وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة للخطابة السياسية في العصر الأموي :

٢٠ — من أخلاق النبي :

عرض للأخلاق الإسلامية ، وموازنة بين المذهب الإسلامي والنظريات الفلسفية تكشف عن سمو المذهب الإسلامي :
ودراسة لبعض أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كما تجلت في أقواله وسلوكه .

٢١ — الجهاد :

دراسة للجهاد من حيث معناه ، وحكمه ، وأنواعه ، وعلمته ، وجزأؤه ، ونتائجه ، وتعقيب بصور من شخصيات مجاهدة .

٢٢ — سماحة الإسلام :

تحليل لسماحة الإسلام في مناح شتى من تشريعه ، ومن معاملته لمخالفيه ، معتمدة على النصوص والتشريع والتطبيق العملي ، مع موازنات بين الإسلام وسواه من أديان وقوانين وفلسفات .

٢٣ — تحت راية الإسلام :

بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الإشادة بألوان من حضارته وتعاليمه وثقافته :

٢٤ — القومية العربية في الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية ، وعرض للشعر الذي أثر فيها ، وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديماً وحديثاً في مجال العروبة :

٢٥ — مع القرآن الكريم (الجزء الأول) :

بحوث شتى في التدليل العقلي على أن القرآن الكريم من عند الله ، وفي بيان إعجازه ، ونوع أسلوبه ، وحضه على العلم وعلى الفكر ، وفي توضيح الغرض من القسم فيه ، وفي بيان الثواب العاجل والعقاب الواقع ، وبيان أثره في الأدب شعراً ونثراً الخ :

— ٣٢٥ —

٢٦ - مع القرآن الكريم (الجزء الثاني) :

بحوث شتى تعرض أثر القرآن الكريم في اللغة ، وتبين ألواناً من إيجاز الخلف فيه ، وتنقن أن به حروفاً وكلمات زائدة ، وتبين معنى الأسمى والأميين فيه ، وتدرس الضلال والهدى والقدر والحرية والجزاء والعمل ، وتوضح أكاذيب اليهود على الله وعلى رسله كما توضح أسماء يوم القيامة الخ .

٢٧ - حصاد القلم :

مقالات وبحوث نشرت بالمجلات في مصر وفي العالم العربي .

٢٨ - بلاغة الإمام علي :

دراسة أساسها نهج البلاغة بين القبول والرفض ، وخصائص الإمام علي في خطابه وكتابه .

٢٩ - ديوان شوقي :

توثيق وتبويب وشرح وتكملة لديوان أمير الشعر أحمد شوقي ..

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٥٣ / ٧٨

الترقيم الدولي ١ - ١١٥ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر

الفيحالة - القاهرة

- ٣٢٦ -

الفهرس

BIBLIOTHEQUE ALEXANDRINE

صفحة

٣

مقدمة

الباب الأول - في العصر الجاهلي

الفصل الأول - عوامل الاتصال ... ٥ - ٢٥

أولاً - قبل إمارة الحيرة ... ٥ - ١٠

ثانياً - إمارة الحيرة ... ١١ - ١٤

ثالثاً - الفرس باليمن ... ١٥ - ١٩

رابعاً - التجارة ... ٢٠ - ٢٣

خامساً - صلات أخرى ... ٢٤ - ٢٥

الفصل الثاني - آثار الفرس في العرب ... ٢٦ - ٧٨

(١) أثر الديانة الفارسية ... ٢٦ - ٤٠

(٢) أثر الفرس في الحرب ... ٤١ - ٤٩

(٣) أثر الفرس في اللغة العربية ... ٤٩ - ٥٧

(٤) أثر الفرس في القصص والخيال ... ٥٧ - ٦٠

(٥) أثر الفرس في الملاحى والترف ... ٦١ - ٧٨

الفصل الثالث - أثر العرب في الفرس ... ٧٩ - ٨٢

الباب الثاني - في الإسلام

الفصل الأول - عوامل الاتصال ... ٨٣ - ٩٧

(١) في مشرق النبوة ... ٨٣ - ٨٥

(٢) فتح فارس ... ٨٥ - ٩٨

ضعف الفرس قبيل الفتح . سير الفتح . آثار الفتح . إقبال

الفرس على الإسلام . إقبالهم على اللغة العربية . خضوعهم

للحكم العربى . التمازج . مؤازرة الفرس للعباسيين . إشادة

العباسيين بهم . مؤازرتهم للمأمون على الأمين .

الفصل الثاني - آثار الفرس في الإدارة والسياسة ... ٩٨ - ١١٠

(١) غلبة الصبغة العربية أول الأمر ... ٩٨ - ١٠٥

(٢) السوزراء ... ٩٩

(٣) بيوت للإذن ... ١٠٤

صفحة

(٤) المنجمون	١٠٥
(٥) البريد	١٠٦
(٦) السيف	١١٠
الفصل الثالث - آثار الفرس في العادات	١١١-١٢٦
(١) النروز والمهرجان	١١١
(٢) الترف	١١٤
(٣) كثرة الحوارى	١٢٠
(٤) نظام الغناء والقيان	١٢٠
(٥) الكلف بالخمير	١٢٥
(٦) الكلف بالغلمان	١٢٥
(٧) تنوع الأزياء	١٢٦
الفصل الرابع - آثار الفرس في الزندقة	١٢٧-١٤٢
(١) الزندقة في العقيدة	١٣١
(٢) الزندقة الشكلية	١٣٦
تعقيب	١٣٨
الفصل الخامس - آثار الفرس في الشعبية	١٤٣-١٧٥
(١) تمهيد	١٤٣
(٢) أصداء الشعبية في العصر الأموى	١٤٨
(٣) أصدائها في العصر العباسى	١٥١
فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب	١٥٣
مؤلفات الفرس في التهجم على العرب	١٥٦
اختلافهم أفاصيص وأحاديث نبوية	١٥٨
ادعائهم التوحيد وتقديس الكعبة	١٦٠
المناصب الكبيرة	١٦٢
الثورات الانفصالية	١٦٣
ردود العرب على الشعبية	١٦٨
عاقبة الصراع	١٧٤
الفصل السادس - آثار الفرس في مفردات اللغة	١٧٦-١٨١

صفحة	
١٨٥-١٨٢	الفصل السابع - آثار الفرس في العلوم والتأليف
٢٠٤-١٨٦	الفصل الثامن - آثار الفرس في النثر الفني
١٨٦	إقبال الفرس على اللغة والأدب
١٨٨	مظاهره في النثر الفني
١٨٨	(١) القصص
١٩٢	(٤) الحكم والأخلاق
١٩٩	(٣) الكلف بالمحسنات
٢١٩-٢٠٥	الفصل التاسع - آثار الفرس في الشعر
٢٠٦	(١) التوسع في الغزل المكشوف
٢٠٨	(٢) الغزل بالمدح
٢١٣	(٣) التوسع في الحمريات
٢١٥	(٤) معان وأخيلة
٢١٧	(٥) الكلف بالمحسنات
٢٧٥-٢٢٠	الفصل العاشر - تعقيدات
٢٢٠	(١) شر وخير
٢٢٧	(٢) قضية العلوم بين العرب والفرس
٢٥٨	(٣) النثر الفني عربي النشأة
٢٧١	(٤) التوقيعات عربية النشأة
	الباب الثالث
٣٠٢-٢٧٦	آثار العرب في الفرس في الإسلام
٢٧٦	(١) الإسلام والحرية
٢٧٩	(٢) في العلوم الدينية
٢٨٠	(٣) في التاريخ
٢٨١	(٤) في اللغة
٢٨٥	(٥) في النثر الفني
٢٨٩	(٦) في الشعر
٣٠١	(٧) في البلاغة
٣٠٢	(٨) في الحروف الهجائية
٣٠٨-٣٠٣	خاتمة المطاف
٣٢٠-٣٠٩	المراجع
٣٢٥-٣٢١	كتب مطبوعة للمؤلف

